

بشير خلف

إيقاعات
على الرُّسُلِ

أعاديتها فيهم: الفكر والأدب والفنون

بشير خلف

إيقاعات على الرمل

أحاديث في: الفكر والأدب والفنون

عنوان الكتاب

إيقاعات على الرَّمَلِ

أما ديتة فيه: الفكر والأدب والفنون

بشير خلف

تصميم الغلاف
كمال خزان

الطبعة الأولى



ردمك

978-9931-273-05-9

الإيداع القانوني:
ماي 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمتہ

الثقافة المعاصرة ثقافة إنسانية من إنتاج الإنسان، آثارها لا تتوقف عند الأفراد فحسب، وإنما تمتد إلى المجتمع ككل، فقد سهلت تكنولوجيايات الاتصال، والتواصل المعاصرة إمكانية التعرف على ثقافات، وخبرات، وتجارب المجتمعات الأخرى مما ساعد، ويساعد على الاستفادة من التجارب الإنسانية السابقة، وتجنب الوقوع في نفس الأخطاء التي حدثت قبل ذلك؛ إذ الثقافة ترتبط ارتباطا كبيرا بجميع تمفصلات الحياة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمعرفية وغيرها

الثقافة المعاصرة التي تغلغت في كل مناحي حياتنا بفضل شبكة الإنترنت، ونتيجة: سهولة تعرف الفرد على الأحداث، والأوضاع من حوله بسهولة، وبسرعة، وبدون بذل مزيد من الجهود. وتعدُّد، وتنوع الوسائل، والتقنيات التي من خلالها يقوم الفرد بالتواصل مع آخرين من نفس الثقافة، أو مع آخرين يمتلكون ثقافات مختلفة، وهذا يؤدي إلى اتساع دوائر الثقافة، وتنوعها. ثراء الثقافة المعاصرة، وتوسُّعها، وتغلُّلها ما كان ليحدث لولا ثورة تكنولوجيايات الاتصال، والتواصل التي عمادها، ومحركها شبكة الإنترنت. حيث صارت شبكة

الإنترنت عبارة عن قناة معرفية هائلة الكمّ من المعلومات، والمعارف المختلفة، والمتزايدة يوميا زيادة رهيبة ساهمت، وتساهم في ربط، وتربط المجتمعات والأفراد متجاوزة بذلك الحدود الجغرافية، والحدود السياسية، والاجتماعية، والمذاهب الفكرية؛ كما ساهمت، وتساهم في تقارب الحضارات، وتلاقح الأفكار بين الشعوب بمختلف قومياتها، ولغاتها، وأديانها. إذ صارت مكتبة رقمية ضخمة تنقل للمستخدم المعلومات حال نشرها، وتسمح له بالاتصال مع مختلف الجهات العلمية، والأكاديمية، والبحثية، والاقتصادية والمجتمعية..

كما أنّ معطيات العصر الرقمي الحالي، والمستجدات التقنية المنبثقة عنه، كان لها نصيبٌ كبيرٌ في إحداث تحوّل جذري في مفاهيم، وأشكال الثقافة، ووسائل نقل ما يُكتب إلى القارئ بشكل عام. إن تطور تكنولوجيا النُّظُم الرقمية في مجالات الاتصال، والمعلومات زاد بشكل كبير في فرص تنويع مصادر المعرفة، والمعلومات وسهّل اكتساب معارف إضافية، مثلما أتاح إمكانية الانفتاح الحر، فمع تغير ظروف المجتمعات، وبزوغ عصر جديد قائم على التكنولوجيا الحديثة التي أفرزتها الثورة الرقمية ظهرت مجتمعات المعرفة القائمة على قوة المعلومة، وسلطة الصورة، كما ساهمت الثورة الرقمية في فسح المجال شاسعا أمام الإبداع الثقافي.

ترتكز ثقافتنا المعاصرة على سلطة، وثقافة الصورة أكثر من ثقافة المكتوب، وبما أن الصورة تكتسي سلطة رمزية قوية على صعيد

الإدراك الثقافي العام، فإن النظام السمعي البصري صار المصدر الأقوى لإنتاج القيم، وتشكيل الوعي، والوجدان لأن الصورة في عصرنا هي المفتاح السحري للمكوّن الثقافي الجديد، مكوّن إنتاج وعي الإنسان بالعالم.

فالصورة ليست مجرد شكلٍ، ومزيج من الألوان؛ بل تتخطى ذلك إلى وصفها بالخطاب المتكامل غير القابل للتجزئة، إنها تُمثّل الواقع، ولكنها تُقلّصه من حيث الحجم، والزاوية، واللون بينما لا تُحوّله، ولا تبدّله.

في هذا الكتاب أفكارٌ، ورؤى لعددٍ القضايا، والأحداث، والإشكالات؛ بل حتى الإكراهات التي عايشتها، أو شاركتُ فيها، أو قرأت عنها، وتأثرتُ بما آلتها، فأثرتُ أن أدوّنها، فالتدوين في مثل هكذا قضايا نوعٌ من أنواع كتابة التاريخ.

قمار: اليوم السادس من رمضان 1443 هـ. الموافق ل: 07 أبريل 2022

بشير خلف

أفكار ورؤى

آثارُ على الرمل

تُمثّل صحراء الجزائر مشهداً فنياً طبيعياً أبدعه خالق هذا الوجود يُذهب بمن يتأمله إلى الدهشة، والإعجاب، خصوصاً عندما تغمر أشعة الشمس تلکم المساحات الرملية، الممتدة، تلك الشمس الدافئة التي تحتضن تلکم الرمال الذهبية، وكأنها تخاف عليها وتريد حمايتها، وتعانقها في منظرٍ جميلٍ يُسحر الألباب، إذ تتميز هذه الصحراء بنعومة الرمال التي تتلألأ تحت أشعة الشمس كأنها قد صنعت من الذهب. تنقل لمن يلامسها شعوراً رائعاً، وتُسافر به إلى عالم الجمال، وتبدو الكثبان الرملية كثوبٍ من الحرير، يُشعر الشخص بالرغبة بالجلوس فوقه لتأمل روعة اكتمال المشهد الصحراوي البهي. تتميز الصحراء الجزائرية بمساحتها الواسعة، فتُمثّل جزءاً من الصحراء العربية الكبرى، على الرغم من المساحة الكبيرة التي يشغلها هذا البلد العريق والجميل - الجزائر - بكل ما فيه من مدنٍ عظيمة، فإنّ الصحراء تُمثّل أكثر من ثلاثة أرباع المساحة الإجمالية التي تشغلها الجزائر على الأرض. تدلّ المساحة التي تربع رمال الصحراء عليها أنّ هذه الصحراء واسعة المدى، ممّا يمنحها سحرًا خاصًا يُبهر كل من يراها، ويجذبه لزيارتها، فالإنسان بطبعه يكره المكان صغير المساحة، وضيّق المدى، ويُفضّل الأماكن الكبيرة المرحة التي تُعطيه شعوراً

بالأريحية. هذا المكان الواسع يُشعر الشخص بالحرية، فلا جدران تحدّه من كل الجهات مثل جدران المنازل وجدران الأبنية التي تملأ أغلب المدن، ولا قيود تُحد من حركته فيجد نفسه طليقاً، وهناك يُمكنه التحرك كيفما شاء، ولا حواجز لا تترك لعينيه فرصة التحديق في كل ما يُمكنه رؤيته؛ بل إنه يستطيع النظر حيثما أراد. يشعر الشخص الذي يقصد الصحراء الجزائرية بأنه قد سافر إلى الفضاء، ويتنقل في أرجائها الواسعة بأريحية كبيرة لمساحاتٍ واسعة، يمشي في كل الجهات ليكتشف ما يحتويه المكان دون أن يُصطدم بأي شيءٍ يُعرقل سيره، أو يُعارض طريقه ويجبره على التوقف في نقطةٍ معينة.

تتميّز الصحراء بهوائها النقي المنعش، بعيداً عن هواء المدن، وعن التلوث الهوائي الذي ينتشر في كل مكانٍ من دخانٍ، وغيره من الملوثات، فيتمكن الشخص من الاستمتاع بهذه النعمة، والاسترخاء فوق الرمال الناعمة التي تُساعد بنعومتها ودفء حرارتها على الاسترخاء، والفرجة.

وادي سوف.. موطن الجمال الصحراوي

وادي سوف موطن السحر والجمال، والمثابرة والإبداع، فمن زمن ويد الإنسان به لا تقل عطاء عن خيرات المكنوزة، وهو الذي عمر فيها بيوتا مهندسة معمارية متقنة، تنتهي إلى أسقف قبوية تتلاءم مع الظروف المناخية القاسية، إذ تساهم هذه البنية المميزة في توزيع أشعة الشمس على الجوانب وعدم تركيزها على الأسطح المقوسة بما

يُوقَّر جَوًّا معتدلا في الداخل، كما تمنع ترسب الرمال فوقها أو تراكم ما تحمله الرياح معها خاصة أثناء العواصف، زد على جمالية هذا الطابع البنائي الذي يميز المكان عن باقي المناطق.

الداخل إلى هذه المدينة لن يصدق أنه في منطقة صحراوية، لأنها من غير مبالغة جنان خلاب من النخيل والشجر وكل نبات حي أخضر، لتترامى على مد البصر مناظر طبيعية ساحرة وكأنها لوحات فنية حية رسمت على الرمال الذهبية المتلألئة تحت أشعة الشمس الساطعة، وبين جنبات الآثار والمعالم التاريخية، حيث تجتمع ألوان التراث العريق والتاريخ مع أنوار الإصرار والتحدي على أرض لا تعرف المستحيل.

يجد زائر ولاية الوادي نفسه أمام جمال فريد تطبعه الطبيعة الصحراوية الخلابة التي تحاكي فيها الرمال العسجدية والنخيل الباسق العين والنفس لتعطيه إحساسا بالراحة ورغبة في اكتشاف كل زواياها ومنازلها العريقة بشغف كبير، التي تحاكي الأصالة، وتظهر عبقرية هندسية تميز بها السوفي، الذي استطاع أن يتأقلم مع قساوة الصحراء صيفا، وشتاء من خلال النمط العمراني الفريد من نوعه الذي يعتمد على القباب، والأقواس، والادماس؛ علاوة على الغيطان، المكتنزة بالنخل، والزيتون، وأنواع الخضار، وحتى الفواكه أخيرا، بالرغم من قساوة طبيعة، ومناخ الصحراء، وجموح الرمال، وتمردّها، وعنفها؛ لكن العقل الجمعي السوفي قَبِل التحدي، وأرسى على مرّ الأيام دعائم

العلم، والمعرفة، والإبداع، والابتكار لمواجهة كل الظروف والتحديات، حيث وضع، ويضع الحلول الناجعة لكل المشاكل، والمعوقات؛ بل إنه حوّل عديد الصعوبات إلى عوامل مساعدة في دفع عجلة الإنتاج. الظلال.

علاقة الإنسان السوفي مع الرمال.. روحية تلازمية

الصحراء جمالها ساحر، هواؤها نقيّ، وما يزيد جمالها تلکم الكثبان الرملية التي تبدو كرداء مهّدٍ حريري، ذهبي؛ وامتدادها اللامحدود بحيث اذ تجولت فيها يذهب عقلك الى عالم الخيال من شساعة المكان، وهدوئه؛ واسعة رحبية.. رمالٌ ناعمةٌ ذهبيةٌ هي تلك الصحراء التي تتيه عبر رمالها، ويحيرك مدى الأفق فيها، إذ لا حدود تقيدك، ولا أحجار تؤذيك، تمشي، والذهن صافٍ، والفكر منطلقٌ إذا تعبت، فرشتُ لك على رمالها ظلّك الناعم بنعومتها كي تستريح، وتواصل السير، وتعطر أنفاسك بشذى الحرية، وتحتفظ بأثرِكَ لأنك غُصتَ في أعماقها تخطّ على صفحاتها ما يجول بخاطرك بقدميك.. بأناملك.. بعصاتك .

أمّا غروب الشمس في الصحراء المتدرج لونه من البرتقالي، والاحمر هو لوحة فنية من إبداع الخالق.

الإنسان السوفي منذ القديم، منذ أن جذبته منطقة ربوع وادي سوف، وطاب له العيش فيها، واستكان لها بعد أن روض جموح طبيعتها القاسية، واتخذ من الرمال الثائرة، المتمردة رفيقة روحية له

يفترشها، ويتمدد عليها مستكينًا لها، رضيًا، تمتصّ رضاب عرقه، تعوّضه برودة، تمسده، تُزيل عنه التعب، تخلّصه من التوتر، تُريحه من وعثاء التنقل البعيد، أينما تواجد في حقله الشاسع، في غابته الصغيرة، في الطريق، في الطّريق كانت له نعم المهّد ينام على أديمها دون فراش، دون غطاء، يمشي على الطريق حافيا، يضع ثيابه فوقها متى شاء، وأين ما اختار حافظت على ألوانها، وطبيعتها.

رافقت الرمال الذهبية الناعمة الإنسان السوفي في مأواه الأسري، فكان للرمال في المنزل التقليدي مساحتها المفضّلة وسط ساحة المنزل المُسمّى " الحوش " المساحة المفروشة طبيعيًا للعب الأطفال، ولتسهيل تنقل أفراد العائلة حفّاة من غرفة إلى أخرى، ولتناول العشاء مجتمعين، متحلّقين حول القصعة، ثم قضاء السهرة معا متجاورين، فإذا عنّ لهذا، أو تلك النوم فليمدد في مكانه، والرمال فراشه، والنسيم الحري الليلي يهدده، لا نمرّ دون ذكر غرفة الكبار المخصّصة عادة للجدة، والأم عنما تتقدّم في العمر، الغرفة التي تكون دون باب مواجهة نحو الجنوب لدخول أشعة الشمس للتدفئة شتاء، مفروشة بطبقة سميكة من الرمال الذهبية الناعمة، هي غرفة للنوم، كما هي غرفة لتجمّع الكل: الكبار والصغار.

وحقّ عندما تطوّر البناء، وتخلّى سكّان ربوع سوف عن موادّ البناء التقليدي، وصنوف العمران التقليدي، وجنحوا إلى البناء العصري المنشأ بالقوالب الإسمنتية، والطوب الطيني (الياجور) لبناء

القصور، والفيئات فإن الساحة الرملية لتجمع الأسرة، وتناول العشاء معا، والتمتع بالسهرات الصيفية، وكذا غرفة خارجية مفروشة بالرمال بقيت لها مكانتها المفضلة، واعتبارها الروحي التاريخي.

الرمال للترفيه والعلاج الطبيعي

التزلج على الرمال هو أحد أشكال رياضات التزلج التي تشبه رياضة التزلج على الجليد، إلا أنها تمارس على الكثبان الرملية بدلاً من الجبال المكسوة بالثلوج، هذه الرياضة التي انتشرت في العقود الأخيرة في ألب دول العالم التي بها صحارى، حيث تدخل ضمن برامج الهيئات، والوكالات السياحية التي تتعامل مع السياح الأجانب، لم يُلتفت إليها في بلادنا إلا ما تنظمه بعض الجمعية المحلية للشباب في إطار رحلات مناسبة.

إلا أن التزحلق على الرمال من قمم الكثبان الرملية العالية قديم، كان يُمارس سنويا في مناسبات زمنية معروفة للسكان، ودخل ضمن الموروث الشعبي باعتباره من الطقوس المتعارف عليها أثناء فترة الاستعمار الفرنسي قبل سنوات الثورة التحريرية، لتختفي نهائيا بعد الاستقلال.

مما أذكره في منطقة قمار كانت في كل خريف إثر انتهاء موسم جني محصول التمر، يُقيم السكان شبه عيد في منطقة بها كثبان رملية عالية ما بين حدود بلدية حسّاني عبد الكريم، وبلدية قمار، تُسمى (سيف الديبيلة) تدوم يوما واحدا، منذ الصباح الباكر يفد

الفلاحون بالمنطقة، ومعهم أسرهم، كما يفد سكان البلدة في ساحة رملية شاسعة، فتتفرغ النساء لإعداد وجبة الغذاء المتكوّنة من الكسكسي الذي كسكسته مجموعة منهن، وأنضجته مجموعة أخرى، مسقى من خضر المنطقة، وتوّجته قطع لحم شهى من لحم الحمل، وجبة يشارك في مكوّناتها الجميع.

أمّا الرجال، والشباب يمارسون عديد الألعاب الرياضية التقليدية كالمبارزة بالعصي، أو لعبة القوس، أو غيرها، ولما ينتصف النهار، وتدفأ الرمال، يصعدون إلى قمم الكثيب الأعلى فوجًا بعد فوج، ويبدأ التزحلق من الأعلى إلى الأسفل مع قيام كل متزحلق في احذاره بالضرب على الرمال بقوة بالعصا التي معه، حينها يُسمع صوتٌ للرمال، وكأنها ترعد؛ ذلك الصوت ترتفع له أصوات الجميع بالفرحة، كما زغردات النساء؛ وينتهي يوم الفرح السنوي قبل موعد صلاة المغرب بتناول وجبة العشاء اللذيذة التي تكفي الجميع.

تقصّي الأثر على الرّمل

امتاز الإنسان السوفي منذ القدم بذكائه الخارق، وفطنته الحادة، خاصة في وسط، ومحيط البيئة الصحراوية في المهوبة التي أعطاها له الله في تقصّي الأثر، ومعرفة الأوصاف، والأنواع، والحركات للإنسان، والحيوان والطيور، من خلال آثارهم على صفحة الرمال دون أن يشاهدهم، أو يراهم لحظة مرورهم، أو تواجدهم ...

الحمامات الرملية او التداوي بالرمال أو الرمل الاستشفائي .

منذ القديم تطفنّ الإنسان السوفي إلى نجاعة الرمال في العلاج الطبيعي بها، لما تشتدّ الحرارة في فصل الصيف، بدلاً من العلاجات الأخرى الطبية التي كانت في العهد الاستعماري شبه معدومة؛ بل معدومة، ونظرا لعلاقة الإنسان المتينة في هذه المنطقة مع الطبيعة، ومكوّناتها في حياته في جميع المجالات، جرّب العلاج من الرمال، فكانت النتائج باهرة، وبتراكم الخبرات الفردية والجماعية ظهر ما صار يُسمّى فيما بعدد حتى في أيامنا هذه في عديد مناطق الجزائر الصحراوية، ومنها منطقة وادي سوف: التداوي بالحمامات الرملية ، أو الرمل الاستشفائي.

العلاج بالحمامات الرملية طريقة تستعملها العرب في مجال العلاج الطبيعي، وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن الرمال الموجودة في الصحراء تُعتبر كأحد أنواع العلاج البيئي، أو الطب البديل، حيث يتم دفن المريض في الرمال.

وتبدأ أولى خطوات العلاج بالدفن في الرمال بتحديد بقعة رملية نظيفة لم يسبق استخدامها من قبل، وتكون معرّضة للشمس لوقت طويل، ويُفضّل أن تكون بعيدة عن ظل جدار، أو شجرة ، فتكون الرمال مشبعة بحرارة الشمس، كما تكون نقية من أي بكتيريا، أو فطريات، ثم تُحفر حفرة تكون ملائمة لجسم المريض، ينزع كامل ثيابه ما عدا الداخلية منها كي يستفيد جسّمه من حرارة الرمال،

ويستلقى في الحفرة، ويتمّ تغطية كامل جسمه بالرمال ما عدا الوجه، ويُحرص على أن تكون كمية الرمال الموضوعة فوق الجسد متوسطة تفي بغرض العلاج ، وألا تكون حملاً ثقيلاً على قلبه، وقدرته على التنفس الطبيعي، ثم توضع فوق الوجه مظلة لوقايتها من الشمس، ويبقى المريض في الحفرة من 07 دقائق الى 22 دقيقة كحدّ أقصى وهذا حسب طاقة تحمّله ، وما أن ينتهي من ذلك يتمّ إخراجه من الحفرة، وتغطيته في الحال منعاً لإصابته بتيار هوائي بارد قد يصيبه بعواقب، ويدخل مباشرة إلى خيمة، أو زريبة مهيئة خصيصاً لذلك ، ويستمر المريض في غطائه لمدة ساعة على الأقل.

تستخدم هذه الطريقة في علاج الكثير من الأمراض، حيث الدفن في الرمال الساخنة يُنشِط الدورة الدموية، ويُنتج عدداً من التفاعلات المفيدة داخل جسم الإنسان، تساعد في علاج ما يلي:

- أمراض الروماتيزم. آلام الظهر. الروماتيزم المفصلي. النقرس. قصور الشرايين. السمّة الزائدة. الأمراض الجلدية كالصدفية، والبهاق. ارتخاء العضلات. عرق النسا. التهاب المفاصل، واحتقانها

آلام الاعصاب، والعضلات.

كما أن المشي على الرمال حافي القدمين ضروري لتفريغ الشحنات السلبية، والموجات الكهرومغناطيسية التي يتعرّض لها الانسان نتيجة تعامله مع وسائل الإعلام الحديثة، وتطور الأمر أدّى إلى استخدام الرمال، والطين حالياً في عمليات التجميل، وشدّ

البشرة، والتخلّص من الترهلات. ومن أهمّ الأسباب وراء نجاح الرمال في العلاج احتوائها على بعض العناصر التي تصدر عنها إشعاعات تساعد على تحفيز الجهاز المناعي للمريض.

تُفيد رمال الصحراء في هدوء النفس، وشفاء الروح، ولذا فمن يودّ التخلص من القلق، والضغطات النفسية يُنصح بأخذ حمام رمل ساخن فيعود صافي الدهن، والنفس.

الصحراء.. مبعث الحكى السّاحر

الصحراء ذلك السحر الأسطوري الكامن في المخيال الجمعي للإنسانية عامة، وفي الذاكرة العربية بشكل خاص، حيث تبرز الصحراء في الوعي، والمُخيلة مَجْمَعًا للنقائض، منسجمة مع طبيعتها المتقلّبة، فهي لا تسكن حينًا حتّى تثور، ولا ترضى لحظة حتّى تغضب، تفرح فيتحوّل الكون إلى مسرح شعريّ رائع، وتغضب، فيكون في غضبها الهلاك والشقاء. ولوج الصحراء فتحٌ لإمكانية السرد.. أن تعيش وترى، وتحكيّ عمّا رأيت، والرؤية هنا لا تأبه كثيراً بالمنظور الحسي، بل تتعداه. فالصحراء هي واحدة من مُحَرِّضات روح المغامرة الإنسانية، وهي التي توسع أفق التصور المحفّز على الإبداع..

يبدو لنا أن الشفاهية هي مفتاح ثقافة الصحراء وعنوانها، وهي مفتاح السرد الصحراوي حتى بصيغه المعاصرة المتأثرة بالكتابة والكتايبية. فالصحراء تعتمد على الشفاهية في مختلف شؤونها. والشفاهية تشمل الشعر والسرد معا. ولها تأثيرات بليغة في إنتاج المادة الأدبية نفسها، ثم في تداولها ونشرها وحفظها. والكلمة الشفاهية/كلمة الصحراء هي ما يقال بالفم، وليس ما يرى بالعين أو يخط بالقلم، إنّها جزء من المتكلم أو الناطق، وهي أقوى وأثبت وأشد تأثيرا حتى حدود

الأسطورة، والسحر.. في ثقافة الصحراء الكلمة المنطوقة تكفي: فلها قوتها وفعالها وسيطرتها، أما الكتابيين فيضعف تأثير الكلمة المنطوقة عندهم ويحتاجون إلى الكلمة المكتوبة الموثقة (وإذا تداينتم بدين فآكتبوه) في القرآن الكريم، وهذا مطلب حضري جاء مع تبني الاسلام للنمط الحضري. أما البدوي فعند كلمته (المنطوقة الملفوظة) ولا يحتاج

كلاما مكتوبا لتثبيت وعده أو فعله، بل كلمته هي قوته وفعله.¹

الحضارة في أصل دلالتها ترتبط بالاستقرار في مقابل البادية، أو الصحراء المتسعة التي يتحرك الناس في بقاعها بحرية أكبر وبإقامة أقل في المكان الواحد. الصحراء حرية والمدينة سجن. الصحراء مفتوحة والمدينة مغلقة. الصحراء ممتدة والمدينة مرتدة.

الصحراء حرية.. المدينة سجن

الصحراء أيضا ليست ثابتة على مرّ الزمن، فقد " تتحضر" بعض بقاعها إذا ما تغير مناخها وظهر نباتها وصلحت بعض أراضيها للزراعة، وقد يتصحّر الريف وتتصحّر القرى إذا ما تعرضت لتغيرات معينة، كأن يجف مطرها ويقل نباتها. ولكن مثل هذا التغير يكون على مدى أزمنة طويلة. وكذلك هناك تغيرات وهجرات من الصحراء وإليها، فقد يتحضر (يقيم) البدوي، وثم أخبار ومرويات سجّلها الرواة الأوائل عن الأعراب الذين انضموا للحواضر وغدوا قنوات

1 - محمد عبيد الله. الصحراء رؤية تأسيسية في ثقافتها وسردياتها. مجلة الكلمة. العدد 110 يونيو 2016

لنقل معارف البادية وأشعارها ومروياتها السردية، و تمكننا المصادر العربية من معرفة بعض أسمائهم. وأكثر من يلقبون بـ "الأعرابي" أو "ابن الأعرابي" وهم كثر في أخبار المؤلفين والرواة، هم ممن لهم صلة بهذه الفئة من الرواة الأعراب الذين انتقلوا إلى الحضر، أو ظلوا يترددون بين البادية والحاضرة. وهناك رحلات العلماء الحضريين (الأصمعي وغيره..) إلى البادية وعودتهم بحكايات ومرويات كثيرة تمثل صورة من صور النقاط صور البادية وثقافتها بمنظور حضري وأدوات كتابية. وقد يتبدى بعض أهل الحضر ويدخلون في البادية، فيتحولون إلى البداوة بتغيير نمط حياتهم. وفي الحديث نهي عن التبدي "من بدا جفا" وهو موقف مفهوم في ضوء تبني الإسلام للنمط الحضري. وهذا يدلنا على أن التفريق يعتمد نمط المعيشة على الأمد البعيد أكثر مما يرتبط بمجموعات سكانية ثابتة أو معينة. ولذلك فقد نجد قبائل منقسمة بين نمطين أو ثلاثة كما يدل على ذلك بحث أستاذنا الدكتور الأسد الذي أشرنا إليه. (1)

للصحراء سردها الساحر

إن للصحراء سردها، وسرد العرب في جذوره سرده صحراوي إجمالاً، إذا كان يخيل إلينا أن الشعر هو فن الصحراء الأثير، أو الوحيد فإن ذلك الوهم سببه ثبات الشعر أكثر من النثر، والمرويات السردية، من ناحية قابليته للحفظ مع وجود الوزن والقافية والرواة الموكلين بحفظه وإنشاده. إن الشفاهية هي مفتاح الصحراء وعنوانها،

وهي مفتاح السرد الصحراوي حتى بصيغة المعاصرة المتأثرة بالكتابة والكتابية.. إنها الكتابة بلغة الرمل..

يقول الشاعر والروائي الجزائري أحمد عبد الكريم:

«كتابة الصحراء، لا تُعني الوصف الخارجي لجغرافيا الصحراء بطريقة وثائقية، وإنما تعني نقل روح الصحراء من خلال تفاعل الإنسان مع المكان والتعبير عنها بشكل عميق بعيدا عن النظرة الايكزوتيكية»¹.

ويذكر في مقاله عن رواية ربيعة جلطي "نادي الصنوبر" التي تتناول عالم التوارث. ما ورد على لسان المرحوم عثمان بالي في كلامه للجمهور في إحدى الحفلات: «الليلة إن شاء الله ما قدرناش نجيبوا لكم الصحراء.. نُدّوكم أنتم للصحراء».

المُبدعون تواقون إلى غرائبيتها

أولئك الذين ولجوا الصحراء، أياً كانت دوافعهم، قد غادروها وهم مُثقلون بوفرة من الحكايات. غير أن الصحراء في الوقت نفسه مرتع فذٌ للخيال، وفضاء لا يُضاهي لمسارات من السرد لا تنتهي، وهي التي ألهمت شعراء، وروائيين، ومغامرين، ومستكشفين، وجواسيس، ومغرمين بأحبايل الجغرافيا، وعمات التاريخ، ومتصوفة، ومهووسين بالتحرش بحدود الموت، وغيرهم ليدخلوها، ويخرجوا منها

(1) الصحراء رؤية تأسيسية في ثقافتها وسردياتها (مرجع سابق)

(2) - محمد بن زيان. في السرد والصحراء. جوائز سن. 04 / 02 / 2013

وهم على غير ما كانوا عليه. كتب لوكليزيو رواية "صحراء"، الفرنسي الحائز على جائزة نوبل سنة 1980م، ومثله فعل، ولكن في مدار تجربة مختلفة، الضابط الإنجليزي توماس إدوارد لورنس، أو كما يعرفه الكثير من الناس بلورنس العرب، وهو يكتب "أعمدة الحكمة السبعة"، وكذا انطون ده سانت . أكزوبري الذي بأسلوبه الأدبي البديع، وبروحه الفلسفية، صوّر لنا عظمة الطيران، وإثارته، وأخطاره، وعزلته في كتابه الجميل: "أرض البشر"، لمّا قاد طائرات البريد الجوي عبر صحراء شمال أفريقيا.

روائيون رصدوا لحظات التحول

تناول روائيون عرب عديدون الصحراء حاضنة مكانية لها فرادتها، والتي تحدد تعرجات الأحداث وتؤطرها؛ ذلك لأن للصحراء قوانينها، وسطوتها الثقيلة على إنسانها، وقدر هذا الإنسان ومصيره. لكنّ هؤلاء الروائيين رصدوا لحظات التحول في الصحراء، لحظات الاختراق التاريخية مع دخول المستعمر، واكتشاف النفط، وبناء المدن، وانتشار وسائل التقنية، ومؤسسات الإدارة الحديثة، أي في شبكة علاقاتها مع خارجها.. نذكر هنا، رواية "فساد الأمكنة" لصبري موسى، وروايات "النهايات" و"سباق المسافات الطويلة"، و"مدن الملح بأجزائها الخمسة" لعبد الرحمن منيف.

أمّا ما فعله إبراهيم الكوني فإنه رسم الصحراء في عزلتها الكونية وعذريتها، وتمنّعها، حتى بعد تصديها لغزو الأعراب "المجوس

والفرنسيس"، وإصرارها على البقاء مهاداً للحكايات العجيبة والأساطير، وعاملاً فسيحاً مُقَفِّراً للإنسان. وعندما نتقصّى متن السرد، والصحراء حتى إلى وقت قريب سيقفز تأكيداً أمامنا اسم الروائي الليبي إبراهيم الكوني بكم رواياته، وبثيماتها المنفتحة على فضاءات متفرّدة زماناً ومكاناً وأنماط علاقات، ورؤية ورؤيا.

متنّ السرد الصحراوي تعدّد

فرض فضاء الصحراء نفسه، وبقوة كبيرة على النص الروائي الجزائري المعاصر، بحكم جاذبيته، وروائع طقوسه، وعاداته وتقاليده الساحرة الآسرة، وبحثا من الروائيين الجزائريين عن فُرص جديدة للتجريب، وممارسة مغامرة الكتابة بنوع من الممارسة العشقية مستعينة بقاموس صوفي ثري بمصطلحاته الموعلة في الوله والوجد والفناء؛ خاصّة لدى مبدعي أبناء الصحراء مولداً، ونشأة، وإقامة؛ ممّا سمح بتعدّد مبدعي السرد قصصاً، وروايات، كما لم يبق هذا الجنس الأدبي حكرًا على مبدع بعينه؛ لكون أسماء أخرى ظهرت على الساحة العربية، وخاصة في منطقة المغرب العربي منهم الروائي الموريتاني موسى ولد ابنو وروايته "مدينة الرياح"، والروائي المالي عمر الأنصاري صاحب رواية "الرجال الزرق".

الرّحالة إيزابيل إبراهيم اهدرت

ومن الذين ولجوا الصحراء، وفتنتهم فعمشّقوها، وكتبوا عنها وأبدعوا، ويقدر ما أهتمهم الصحراء فإنهم خلّدوها في أعمال سردية

رائعة أشبه ما تكون بلوحات تشكيلية رائعة الجمال.. الكاتبة الرَّحالة إيزابيل إبراهيم ذات الشخصية التاريخية المثيرة للجدل، ليس فقط لأنها جزء من ذاكرة الجزائر، وقطعة من فسيفسائها، ولكن لشهرتها العالمية ككاتبة، وما أحيط حولها من جدل، وشكوكٍ في تحركها، وعلاقتها

وجدت في الجزائر جنتها الأرضية، ووطنها المفقود، فاعتنقت دينه الإسلامي الحنيف، وساندته في فضح بشاعة الاستعمار، وساهمت في ثقافته، وكل هذا بنشاطها وبقلمها الجريء، وأسلوبها الرومانسي الدافئ تارة، والساخر تارة أخرى؛ وهذا ما نستشقه من كتاباتها، ومراسلاتها الصحفية. عشقت إيزابيل الوادي (وادي سوف).. الجنوب الشرقي الجزائري)، ونخيلها، وكتباتها الرملية، وأزقتها وآبارها، وساحاتها، ومآذنها، وإبلها فجاءت كلها صوراً متناسقة منسجمة في كتاباتها عن الوادي؛ كما كانت واضحة جلية في ذهنها ومخيلتها.

قد بلغ عشقُ إيزابيل للوادي حتى أن الذين عاشوا حياتهم كلها في هذه المدينة لا يمكن أن ينافسوها في معرفتها لها، واطلاعها على أتفه الجزئيات، والدقائق في الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والروحية لهذه المدينة حينذاك وهي التي أطلقت على مدينة الوادي: "مدينة الألف قبة وقبة". عرفت إيزابيل عن الوادي خيرها وشرها، جدّها وهزلها، عفتها، وفجورها، عاداتها وتقاليدها. عرفت من أهلها صدقهم وكذبهم، غدرهم وإخلاصهم، صداقتهم

وعداوتهم.. كل ذلك سجّلته في نصوص سردية جميلة أشبه بلوحات تشكيلية في غاية الجمال.

تجاربُ مهمةٌ

الحديث عن الصحراء يجعلنا نلتفت إلى تجربة مهمة، هي تجربة الكاتب الجزائري حبيب السايح الذي عرفت فترة إقامته بأدرار تحولا نوعيا في لغة، ومعمارية، وثيمات رواياته، وفي تبلور رؤية جديدة عبّر تلك اللغة التي تنسكب كلمات معجونة بالرمل. إضافة إلى أعمال سردية أخرى تتخذ الصحراء فضاء معماريا كرواية " تميمون " لرشيد بوجدرّة، رواية " نادي الصنوبر " لربيعة جلطي، رواية اعترافات أسكرام للأستاذ عزّ الدين ميهوبي، والمجموعة القصصية " حائط رحومة " للدكتور عبد الله كرّوم، ومجموعة " مغارة الصابوق"، رواية " مملكة الزيوان " للدكتور الحاج أحمد الزيواني، رواية "تنزروفت .. بحثًا عن الظل" للدكتور ضيف الله عبد القادر، ورواية " الشهيلي " LE SIMON باللغة الفرنسية للأستاذ علي عبيد من الوادي، رواية " أعوذ بالله " للدكتور السعيد بوطاجين. رواية " الخابية" للكاتبة الإعلامية جميلة طلباوي، وكذا روايتها " وادي الحناء"، رواية " صحراء الظميا " للأخضر بن السايح، وكذا رواية " فجر الغيطان" للكاتب الإعلامي خليفة قعيد، رواية " تاغيت" للدكتور باديس فعالي.

نختم برواية " نبوءات رايكا " للكاتب خيري بلخير التي فازت بالمرتبة الأولى للغة العربية في جائزة علي معاشي لسنة 2019. كما في

شهر فيفري 2020 فاز القاص، الروائي عبد الرشيد هميسي في جائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع بروايته الموسومة بـ " الملحد بقيّ بن يقظان" التي تجري وقائعها في بلدة حاسي خليفة بربوع وادي سُوف. وتبقى الصحراء مصدرَ إلهامٍ

في رأيي الشخصي النصّ السّردى الصحراوي، ليس فقط الذي يتّكى على الصحراء مصدرًا للأحداثِ فحسب، وإنما تلكم أيضاً الروائح، والأساطير، والذكرياتِ التي سكنت الصحراء، وآثار الإنسان من رسومٍ، ونقوش، مما قد يُكسبُ النصّ السّردىّ الغرائبية.

هل القصة القصيرة.. بخير؟

إن القصة القصيرة بخير، ولا تزال تُنتج، وتكتب بكثافة عالية في معظم الثقافات العالمية بما في ذلك العالم العربي، كما أنها تقرأ وتنشر في صحف، ومجلات، ومواقع إلكترونية وفي شكل مجموعات قصصية.

القصة القصيرة بخير

تُنتج، وتكتب بكثافة في كل الثقافات العالمية، تنظم لها الجوائز والمسابقات. العديد من المسابقات والجوائز العربية والدولية تُنظم كل سنة في العديد من البلدان شرقا وغربا؛ وقد وُجّهت الأنظار مجددا إلى فن القصة القصيرة بعد ما فازت الأدبية الكندية " أليس مونرو" (1931 . . .)، سنة 2013 بجائزة نوبل للآداب عن إبداعها القصصي، وقد جاء في وصفها بأنها: " سيدة القصة القصيرة المعاصرة"، حيث أعاد فوزها المجد لأدب القصة القصيرة، ولفت الأنظار إلى قوام القصة القصيرة في العصر الحديث، الذي شهد تنافسا شديدا بين الرواية والقصة القصيرة.

القصة القصيرة فنّ مراوغ، وحصانُ جامحٌ

فنّ جميلٌ يقدم إمتاعا فنيا راقيا للمتلقّي، يأخذ من الشعر (الصور الشعرية)، ومن الرواية، (الحدث والشخوص)، ومن المسرح (الحوار)، ومن المقال (منطقية السرد)، ومن السينما (طريقة الاسترجاع).

إن القصة القصيرة فنٌّ مراوغ، وحصان جامح، يحتاج إلى قائد بارع، يُروِّض هذا الفن المشاكس، والمراوغ معاً، كاتبٌ قديرٌ بكفاءته التقنية، الإبداعية يتمكن من كبح جماح فرس القصة القصيرة.

القصة القصيرة، كما هو معروف لدى كتابها، والنقاد فنٌّ صعبٌ لأنها تتطلب التركيز، وتكثيف اللغة.. بلغت من التجديد أن ظهرت القصة القصيرة جدًّا التي تعتمد على التكثيف اللغوي الشديد، والمفارقات، والمفاجآت.

النص القصصي يقدم نفسه كمُحفِّزٍ متعدد الطبقات، ومتعدد الدلالات، ولذلك هو فنٌّ صعب التلقي، يحتاج إلى قارئٍ مدربٍ ومثقف، يستمتع بسبر أغوار النص لا قارئاً كسولاً يبتغي التسلية، وتمضية الوقت.. القصة صعبة التلقّي، قد لا يستطيع القارئ التوحد مع شخصها لأنهم غالباً ما يكونون من الفئات «المهمّشة، المغمورة»، بحسب القاص، والناقد الإيرلندي فرانك أوكونر، (1903 - 1966)، مع ملاحظة أن السرد القصصي بطبيعته «الداخلية» والاختزالية لا يتيح للقارئ العادي أن يجد نفسه فيه، خصوصاً أنه لا يمثل أبداً عوالم بديلة، بل غالباً ما يكون حفراً في عالم البشر البشع.

لهذا نجحت الرواية في امتحان «السوق»، بينما فشلت فيه القصة، والشعر، هذا مع التشديد على أن الفن والسلعة شيان مختلفان؛ بل ومتناقضان، وأي فن يتحوّل إلى سلعة يفقد مباشرة قيمته الفنيّة. الرواية وجدّت صناعة النشر.. في الرواية إمكانية

التسليع، وإمكانية تسويقها على نطاق واسع؛ الرواية سهلة التلقي، مشوّقة، يستطيع قارئها أن يتمثّل، أو يجد نفسه في شخصها، وتشكل عالماً بديلاً عن الواقع، وتنبني علاقة القارئ معها ببطء وبتمهّل، وبكامل التفاصيل.

القصة والرواية أدواتا الحكيم المعاصر

القصة والرواية رافدان أساسيان من روافد السرد لا يُلغي أحدهما الآخر؛ ذلك أن من مميزات القصة سرعة قراءتها، بينما تتميز الرواية بالإلمام بسعة الموضوع، وطول وقت قراءتها.

في كتابه " الصوت المنفرد"، يذهب القاصّ، والناقد الإيرلندي فرانك أوكونر إلى أن صوت الرواية هو صوت تسجيلي للمجتمع؛ بينما القصة القصيرة صوت الفرد. فالرواية وفقاً لأوكونر فنٌّ تطبيقي، في حين أن القصة القصيرة فن خالص؛ أمّا الكاتبة التشيلية إيزابيل اللندي (1942-...)، وصفت القصة القصيرة بأنها: " كالمسرح، تنطلق مرة واحدة لتصيب الهدف"، في حين وصفها عبقرئياً القصة القصيرة أنطون تشيخوف بأنها: " القطفة من الحياة".

ظهور فن جديد لا يُغيب غيره

ظهور فنّ في مرحلة زمنية ما تستدعيه ظروف ما ليس معناه موت فن آخر، فليس غريباً أن يظهر جنسٌ أدبي تستدعيه ظروفٌ خاصة، وتُسرع في إيجاده، فيُقبل عليه كثير من المبدعين، لأنه يناسب الوضعية التي يحيونها، ويُقبل عليه المتلقون من جهة، ويناسب

حجم المساحة المتاحة للنشر من جهة أخرى، وهذا واقع الرواية اليوم، وليس معنى هذا أن لما تتسيد الرواية تختفي القصة، ويموت النص المسرحي، ويتوارى القصيد الشعري.

السؤال: هل انتهى الفن السرد القصصي؟

واقع الساحة الأدبية يؤكد وجود العدد الكبير، الأوفياء لفن القصة القصيرة على امتداد الجغرافيا العالمية، والعربية، لم يهجرها كتابتها يوماً، وبعضهم لم يكتب من جنس الأدب سواها. وهو ما أسهم بشكل، أو بآخر في تجديد طرُق كتابتها، وتنوع في أساليبها وموضوعاتها ومضامينها، وقد استفاد كتابها الجدد من الفنون الأدبية المختلفة الأخرى.

وللقصة القصيرة على صفحات المواقع، والأنديما ما كان لها في الصحف، والمجلات، ومسابقاتها وجوائزها المغربية لا تزال متجددة كل سنة في الكثير من المنابر. فالصحافة التي شجعت ظهور القصة القصيرة وازدهارها، ما تزال في حاجة إليها لتُشبع نهم القراء الذين يستمتعون بها، حتى في الصحافة الإلكترونية.

تشير الدراسات الإحصائية، في أمريكا مثلاً، إلى أن ما يُنشر من القصص القصيرة سنوياً يفوق بكثير ما يُنشر من الروايات، وأن ما يُرصد من جوائز للقصة القصيرة أكثر بكثير من جوائز الرواية؛ كما أن القصة القصيرة ملائمة لروح عصر السرعة، الذي فرض تناسل القصة القصيرة فولدت في أحضانها القصة القصيرة جداً. علاوة على ذلك،

فإن طبيعة الإنسان الاجتماعية تدفعه إلى أن يحكي ما يقع له من أحداث طريفة فيبوح بها لصديق حميم يأتمنه، ليخفف من وقع تلك الأحداث على نفسه.

هل عادت القصة القصيرة إلى الواجهة؟

وصفت مقالة جريدة التلغراف (البريطانية)، عن مآلات الأنواع الأدبية في القرن الحادي والعشرين، فكانت القصة القصيرة بأنها «الشكل الأدبي الأكثر مواءمة لراهننا»، فصيغة الإيجاز التي تميّزها (عن الرواية) تناسب قدرة البشر المتضائلة على الاحتفاظ بالتركيز، في وقت تتسابق فيه منجزات تكنولوجية كثيرة لكسب الانتباه لحظياً. وصرّح نيل غايمان، وهو كاتب خيال علمي بريطاني معروف، في مقابلة له، بأن:

«القصص القصيرة وحدها من بين الأنواع الأدبية الأخرى تأخذ طولاً، وشكلاً مناسباً لأيامنا: للقراءة سواء على الحاسب اللوحي، أو الهواتف الذكية». وقبل هذا نشرت مجلة أسبوعية بريطانية (سبيكتاتور) عنواناً مثيراً للاهتمام عن «نهضة قوية للقصة القصيرة». وهناك تقارير في غير ما صحيفة تناولت مبيعات الكتب، وتحدّثت عن أداء غير مسبوق لمجموعات القصة في السوق الأيرلندية، حيث يبدو هذا الشكل الأدبي موضع اهتمام متزايد من قبل جيل الكتاب الشبان في بلد يكتب ويقرأ بالإنجليزية بتحرر أكثر من التقاليد المحافظة للمؤسسة

الثقافية البريطانيّة¹. فهل فعلاً نقف على بؤابة عصرٍ ذهبي للقصة القصيرة؟

القصة القصيرة في الجزائر؟

على غرار العالم العربي الفسيح، الكثير من كُتاب القصة القصيرة في الجزائر قد تحولوا بعد تجربة متباينة زمنياً إلى كتابة الرواية، فكانت الكتابة في هذا الجنس الأدبي - القصة القصيرة - مَعْبَرًا إبداعياً إلى جنس آخر هو الرواية لسبب، أو لآخر، حتى الرواد كالتاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، زهور ونيسي، انطلقوا من القصة القصيرة إلى الرواية؛ وكذلك جيل مجلة "آمال" كأمين الزاوي، واسيني الأعرج، الحبيب السايح، وغيرهم انطلقوا من القصة؛ والأمثلة كثيرة على هذا التحول من جنس إلى آخر خاصة إلى الرواية من بعد كتابة القصة.

أعتقد أن الدوافع متباينة من كاتب - منتقل - إلى آخر، فالبعض غامر في انتقاله على أساس التجريب، والبعض على أساس ضيقٍ شَعَرَ به في جنس واحد غير قادر على احتواء ذاته، وآفاقه التخيلية، كما لا ننكر أن البعض ذهب إلى الرواية منجذباً بتيار المحوذة الإبداعية من منطلق أن الرواية ديوان هذا العصر، وذلك ما صرّح به عددٌ من كُتاب القصة، وحتى الشعراء.

1 - ندى حطيظ. هل أصبحت القصة القصيرة فن عصرنا؟ صحيفة الشرق الأوسط. 26 أكتوبر 2020م. العدد: 15308.

القصة القصيرة تطورت مثلما الرواية

بالرغم من هذا الرحيل الجماعي إلى عوالم الرواية، يبقى للقصة سموها، جمالياتها، وأسئلتها التي تطرحها، ومراميها التي تتناولها بخصوصياتها، وقد وعى هذا كثيرٌ من القصاصين الجزائريين المعاصرين وأبدعوا أيما إبداع شكلا ومضمونا في هذا الفضاء القصصي، وشهدت القصة القصيرة تطورا مهمًا، خصوصًا بعد أحداث أكتوبر 1988 حيث انفتح هذا الجنس الأدبي على كثير من الآفاق والرؤى بوعي، مثلما ظهر جيل جديد اكتسح فضاء الرواية ولا يزال.

بَحْثًا عَنِ أَدَبِ السُّجُونِ فِي الْجَزَائِرِ

هذا النوعُ من الأدبِ قليلٌ سواء في فترةِ استعمار الجزائر،

وحتى في مرحلة الاستقلال إلى يوم الناس هذا لأسباب عديدة منها:

- أن فرنسا الاستعمارية بالرغم من زحّ عشرات آلاف الجزائريين في السجون قبل الثورة، لم تتمكن من نزع، وتغييب الهوية العربية الإسلامية منهم؛ لكنها نجحت في نشر الأمية بينهم، فغابت الكتابات الأدبية، ومنها أدب السجون. وبعد بروز الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية، وتأسيس جمعية العلماء في الثلاثينات من القرن العشرين، والعمل على نهضة الأمة الجزائريين، وتأسيس المدارس العربية في كل ربوع الوطن، والاحتكاك بالمشرق العربي، وخاصة بتونس، وجامعها المعمور جامع الزيتونة من خلال دراسة العشرات من الشباب الجزائري به، ورجوعهم بعد ذلك للتدريس بمدارس الجمعية الذين رسخوا هوية الأمة الجزائرية، ونشر الوعي بمفهوم الوطن الجزائري، والدفاع عنه كباقي الأمم، مما تفتّنت له السلطات الاستعمارية، فاعتقلت أولئك المدرّسين قبل الثورة، وخالها، فعذبوا، وذاقوا ويل الاعتقال من تعذيب، وتجويع، وإذلال، وحرط من القيمة الإنسانية، فسجلوا معاناتهم " شعراً، لأنّ الشعر كان أقرب إليهم، وهو

ديوان العرب حينذاك، والشاعر مكانته أقرب إلى تجنيد الناس للمقاومة، وبعث الحماسة بينهم، وحفظ شعره لدى المتعلمين. فالسرد ابن المدينة، والاستقرار بها؛ كما الاطلاع على الثقافات الأخرى، ونتائجها الفكرية، والأدبية، والاحتكاك بها عن طريق الاتصال، والتواصل، والثقاف، وإتقان اللغات؛ وهذا كان محروماً منه الشعب الجزائري عهد ذلك. خلت المكتبة الجزائرية من السرد لتلك المرحلة؛ لكن لا نعدم أسماء قليلة: كأحمد رضا حوحو في كتبه القصصية السردية: رواية "غادة ام القرى"، مع "حمار الحكيم" المقالات القصصية الساخرة، "صاحبة الوحي" (قصص) نماذج بشرية" (مجموعة قصصية)، أعمال لم يتطرق فيها إلى السجنيات، فاعتقاله سنة 1956م¹، وتنفيذ حكم الإعدام فيه حالاً ما مكّنه من الكتابة عن السجن. والكاتبة المعروفة زهور ونيسي من رواد السرد في الجزائر قصة ثم رواية، كل كتاباتها كانت عن ظلم الاستعمار الفرنسي للشعب الجزائري، كما ثورة التحرير، والدفاع عن الجزائر، أغلب كتاباتها صدرت بعد الاستقلال، ومن أشهر كتبتها في السنوات الأخيرة "كاليدونيا، أو النفي بدون رجعة" الصادر سنة 2018م الذي خصّصته لـ 400 جزائري الذين اتهمتهم السلطات الاستعمارية الفرنسية بتهم باطلّة كعادتها، ونفتهم إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة منفيين بدون رجعة إلى بلدهم، ليشتغلوا عبيداً في أراضي المعمّرين الفرنسيين.

¹ - أحمد رضا حوحو. ويكيبييا الموسوعة الحرّة.

الكاتبة زهور ونيسي كتاباتها لا تُعدّ "أدب سجون"، لأنها لم تدخل السجن أثناء ثورة التحرير، حيث كانت في تونس، مثلها مثل رائدي السرد بعد الاستقلال: عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطّار. ولا أحسب أنّ هناك كتابات سجنية من داخل السجون، والمعتقلات في الجزائر، أو عن زوّارها بعد الاستقلال، لأنّ الفرد الجزائريّ، ولو كان مثقّفًا هيّابًا من الكتابة عن ذاته، فما بالك بالكتابة عن السّجن؟

ما يهّمنا هنا كتابة السجناء عن معاناتهم بأقلامهم، أو بإملائهم بلسانهم على من كتب عنهم، وبموافقتهم؛ وليس بأقلام غيرهم الذين لم يعرفوا عن السجون إلّا ما قرأوه، أو سمعوه من غيرهم؛ والمثل يقول: «ليس من رأى كمن سمع»، هناك كتابات تُدرج في أدب السجون، إنّما ليست بأقلام السّجناء منها على سبيل المثال، لا الحصر، تفضح التعذيب البشع، والتنكيل للسجناء الجزائريين، من طرف الجلّادين الفرنسيين: رواية "على جبال الظهرة" لمحمد ساري، رواية "نتوءات البحر" لعزّي بوخالفة.

الشعْرُ سجّلُ أدب السجون أثناء ثورة التحرير

إنّ نظرة فاحصة لمعظم الشعر المكتوب في السجون بالجزائر أثناء الثورة التحريرية الكبرى لخير دليل على ذلك؛ ولأنّ الأدب كان مرافقًا دائمًا للأوضاع العامّة، فقد استطاع شعراء الجزائر من الثوّار الأحرار، وبخاصّة السجناء المعتقلين تدوين المعاناة بشقّي تفاصيلها، وصورها في قصائد خلّدت، فكانت مواضيعها تدور حول الظلم،

والقهر، والاضطهاد، والحنين، والاستشراق للحريّة، والحياة الكريمة
حتى أُطلقَ على الشاعر مفدي زكريا "شاعرُ الثورة" لأنه كان ثائراً قبل
أن يكون شاعراً، وغيره في الجزائر كَثُرَ. من هؤلاء الشعراء:

1 - عُمر شكيري الذي أقام بأكثر من مُعتقلٍ*، وما كاد يتحرّر من
الاعتقال حتى فرض عليه الاستعمار الفرنسي الإقامة الجبرية حتى
الاستقلال، وشعره كلّه في فترة الثورة، وهو القائل¹:

من شهر أفريل في العشرين حلّ بنا طشّ العذاب يوماً كنّا
بغافينا

وجدتُ نفسي في الدّوزيام منزويّاً خلا منها إلى العلياء
تسامينا

في البرواقية ألقينا رواحنا وقبلنا الخلقُ ألقوها
بتشرينا

ومنهم من قضى حوْلاً ومطعمه من السيّاط والتعذيب
أفانينا

ليُخرجوا منه إقراراً بما اقرّفت يداهُ أو يأخذوا عنه
براهينا

فما استطاعوا بشيء بعد أن عجزوا وكلّ ناقمهم عسفاً
وتفتينا

* - هو عمر أبو بكر شكيري، ولد عام 1920 في بلدة قمار بوادي سوف، الجزائر
1 - حورية رواق. سجنية عمر شكيري: المضمون والبناء . مجلة مقاليد لجامعة ورقلة. العدد
الثالث. ديسمبر 2012

هنا شيوخُ انخنتْ كالفوس أظْهُرْهُمُ والرأسُ مشتعلٌ شيبًا
وتخمينا

في الجسمِ ضعْفٌ ولكن في عزيمةِ صلابةِ الصَّخْرِ لا تعنو
لشارينا

2 - السجنُ عند مفدي زكريا الفضاء المتعدد الدلالة، الذي يلتقي فيه الموقف الإنساني بشقى مُشكِّلاته، فيأخذ أبعادا تجعله مكانًا خاصًا يتسم بجمالياتٍ متعدّدة، كثيرة الثراء، تسمو على الواقع، وتتجاوزُه لتشكّل منطقةً "موجبة" على الدوام. فالسجنُ عنده لا يرادف الحجر والمنع؛ بل يرادف التحرر، والانطلاق، والريادة، يُخاطبه قائلاً¹:

يا سجنُ ازخرُ بجنودِ الكفاحِ
فأنت يا سجنُ طريقُ الخلودِ
أنت محرابُ الضحايا
يا مصنعَ المجدِ ورمزَ الفدا
يا مهبطَ الوحيِ لشعْرِ البقا
يا معقلَ الأبطالِ والشهدا
يا منتدى الأحرارِ والملتقى
أصبحتَ يا سجنُ لنا معبدا

- جندم الحاج. صورة المكان في شعر الثورة لدى مفدي زكرياء -ديوان اللهب المقدس نموذجاً.
1 مجلة جيل الدراسات الادبية والفكرية العدد 57

عليك نتلو العهدَ والموثقا

أنت أنت يا بـروس.

3 - الشيخ أحمد سحنون، أيد ثورة التحرير مباشرة بعد قيامها¹. وفي 24 ماي 1956، أي بعد حوالي سنة ونصف من قيام الثورة أُلقت السلطات الفرنسية الاستعمارية القبض عليه رفقة مجموعة من المفكرين والمصلحين. اعتقل أولاً بسجن "البرواقية"، ومنه نُقل إلى معتقل "بوسويّ بالغرب الجزائري، ولم يمنع السجنُ بقضبانه، وأسواره، وضيقة، وآلامه الشيخَ سحنونَ من الإنتاج الأدبيّ، والنشاط الإصلاحيّ، والثوريّ والتنظيميّ، فقد كانت مرحلةً حافلةً بالإنتاج الشعري، ولهذا السبب سمّي ديوانه "حصائد السجن"، لأنّ أكثره كتبه داخل السجن.

من ديوان "حصائد السجن"²:

«في السجن وجدت الفراغ الذي كنت أنشده فلا أجده، ولقيت رفاقي الذين كنت أسمع عنهم ولا أسمع منهم، وعثرت على "المختبر" الأساسي للإيمان، والمسبار الحقيقي للأخلاق. في السجن عرفت زيف الحياة وباطلها، فقد كنت قبل أن أدخل السجن أتمنى لو أتيح لي فراغ أنظم فيه أشعاري، وألم شعث أفكاري، وأصل إلى ما لم أستطع أن أصل إليه في ضوضاء الحياة من معرفة أسرار الحياة. فلما دخلت

1 - صحيفة الحقيقة: العدد 3، الصادر بتاريخ: 29 - 12 - 1993
الشيخ أحمد سحنون. ديوان حصائد السجن. ج. 2، ص: 391 منشورات الحبر. الطبعة الأولى 2007. ²

السجن فقدت استقرار النفس، وهدوء البال، فلم أنتفع بالفراغ، وأدركت أن فراغ الوقت بدون فراغ البال لا قيمة له ولا جدوى منه. في السجن أدركت شقاء الوجود وعجز الإنسان عن الوصول إلى سعادته، فقد كنت قبل أن أدخل السجن أشقى بضوء الحياة فلما دخلت السجن شقيت بقيود الحياة. في السجن عرفت أن للأحرار قيوداً؛ كما أن للسيوف غموداً وذكرت قول ابن الجهم: "قالوا: حبست- . فقلت: ليس بضائري حبسي، وأي مهند لا يغمد؟" وقلت: كيف لا يضير المهند أن يغمد؟ وما جدوى المهند في الغمد؟ "وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالاً؟".

في السجن أكلت من شجرة المعرفة التي أكل منها الإنسان الأول فعرف؛ عرف الخير والشر، فعرف سر الحياة. وإن أدى ثمن هذه المعرفة غالباً بحرمانه من الجنة التي أخرج منها، كما أدت أنا ثمن هذه المعرفة غالباً، بإخراجي من جنة بلادي إلى هذا السجن...»
بعد عامين في المُعتقل¹:

أبعُد عامين في هم وفي حزن ووحشة بفراق الأهل والوطن؟
أبقى هنا مثلما قد كنت واحرباً أن كان في مثل هذا ينقضي زمي
رباه رحماك لي قلب ولي كبد وأفْرُخُ بَعْدَهُم عني يورقني!
ثاني يوم في الزنزانة

إن تكن زَنزانتي ضيقة إنْ ذَكَرَ اللهُ قد وَسَّعَها

¹ - ديوان حصائد السجن. مرجع سابق. ج 1 . ص 164

إن من ينسى الذي أبدعه يذكر الدنيا التي أبـدعها
ما حياة الناس إلا فرصة قد أتاحت وبيح من ضيعها
إن ذكرَ الله زادَ وغذى لِنفوسٍ طالما أشبعها

السجون والمعتقلات جحيم المعذّبين خلال الثورة

السّجن قديمٌ قديمٌ قدّم ظهور الحضارات؛ بينما المُعتقل لا يظهر إلا في الحروب، والصراع بين الدُّول، والأزمات الداخلية، فيه يُحشر ذوو الأفكار الحرّة، والاتجاهات السياسية المختلفة، والمخالفة للسلطة القائمة، يبقون فيه مؤقتًا من أجل التحقيق، ويتعرّضون فيه للعذاب النفسي، والإهانة، والتجويع، والقهر، والتعذيب لافتكاك الاعترافات؛ بينما السّجن يُودع فيه من تمّت محاكمتهم، وأدينوا بأحكام زمنية، فالسجن يحدّ من حرية الفرد المسجون، فيمنع من الحقوق المدنية، وحرية الحركة، والتواجد مع الأسرة، وفي المجتمع. في العهد الاستعماري الفرنسي تعدّدت المعتقلات، وكثرت السجون التي رُجّ فيع آلاف الجزائريين بمحاكمة، ودون محاكمة؛ إلا أنّها تشابهت، واشتركت في تعذيب الجزائريين العذاب الذي قد لا يتخيّله من لم تُلقِ به الأقدار في جهنّمها. فرنسا الاستعمارية لما اشتدّ أوار الثورة، وتضاعفت الاعتقالات أضافت المعتقلات والسجون لما كان موجودًا قبل الثورة؛ كما لا فرّق حينها بين المعتقلات والسجون بالجزائر المستعمرة، وبين السجون، والمعتقلات بفرنسا التي حُسرَ بها الجزائريون الذين انضموا

إلى الثورة، وتمّ اعتقالهم، وحُكِمَ عليهم فسُجنوا، أو اعتُقلوا، وعُذِّبوا ثم أُطلق سراحهم، وبَقُوا تحت رقابة أعين البوليس.

الاستنطاق والتعذيب

للحصول على معلومات الثورة، وأسرارها، ومجاهديها، ومناضليها استعملت السلطات الاستعمارية شتى أساليب التعذيب كالضرب المبرح، وارتكاب الفاحشة بالمساجين، أو إرغامهم على فعلها فيما بينهم، وتعذيبهم بالكلاب، وتجويعهم، ومنعهم من شرب الماء، وإرغامهم على صنع الطّوب، ثم تكسيره، والحفر ثم الرّدم، والهدم، وتنقية المياه القدرة، والتنكيل بالتشويه الجسدي، والتعقيد النفسي، ويحبس المعتقل المُعاقب في الزنزانة منفردًا لعدّة شهور، ويُرغم المعتقلون، والسجناء بالجلوس على مؤخراتهم فوق الزجاج المكسّر، وتُدقُّ أصابعهم بالمطرقة، كما تُكوى بالنار، والكهرباء، ويُشقُّ الجلد واللحم بالموسى، ويُوضع الملح في الأخاديد المجروحة، المفتوحة؛ ويُعلّقون من الأيدي والأرجل، والرأس إلى الأسفل، وتُملأ بطونهم بالماء، ويُضغط عليهم بشدّة ليخرج الماء من كلّ منافذ الجسم كالأنف، والفم، والأذن، والدُّبر، كما يُعذّبون بالحرمان من النوم، والوقوف العسكري لساعات، وحفر القبور.

1 - محمد الطاهر عزوي، مجاهد، وسجين خلال الثورة نقله الاستعمار

إلى عدّة سجون، يروي معاناة المساجين:

«..فتحت فرنسا معتقلا في شلال جنوب مدينة مسيلة في شهر ماي 1955م، كان جحيماً لا يُطاق بالحرّ الشديد، لا شجر، ولا مدر، في صحراء قاحلة نُصبت فيها خيام، وكلّ خيمة فيها عشرة معتقلين يفترشون الرّمْل تحت وهج الشمس اللاذع يتصبّبون عرفاً، لا ينامون من شدّة الحرّ، تُرعجهم العقارب بكثرة طوافها، وتمرّ بينهم، وتعلو أجسامهم، وتلفح وجوههم في الليل والنهار، منطلقة من أوتاد الحميم، ويوميا لها ضحاياها؛ وكم حلا للعدوّ الاستعماري حينذاك أن يجد حليفا يملك سلاحاً بالغريزة لا يملّ من الهجوم بزرع السّموم، يلتذّ بالحرارة، وينشط أمام هبوب رياح السموم؛ ولأنّ التعب أهلك المعتقلين بما يتناولون من طيبخ طناجير الرّفّت، وبما يشربون من الماء في الأواني التي تخلّى عنها الجنود الحراس، وألقوها بالمزابل، وصحون الأكل، فيأخذها السجناء، وينظفونها بالرّمْل؛ لأنّ الماء لا يكفي لريّ السجناء المعدّين. ويُصطفّ هؤلاء المعدّبون في هذا الجحيم خمس مرّات في اليوم، ويوجّهون إلى الشمس لتنعكس أشعّتها على وجوههم نكاية بهم، وإحراقاً لسحناهم، ويُساق الشباب منهم، وأقواهم إلى تنقية وادي اللحم المجاور من الأحجار، والأعشاب يومياً.¹»

2 - بول أوساريس، الجنرال في الجيش الفرنسي. المظلي، المعروف عن استخدامه للتعذيب خلال الحرب في الجزائر، قال:

- محمد الطاهر عزوي (سجين خلال الثورة). ذكريات المعتقلين. ص: 36 - 37 . منشورات
1 متحف المجاهد. 1996 / المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار

« كان النظام الذي أنشأته يسيرُ بإحكام ودقّة إلى درجة أنني تحصّلتُ بسرعة على أسماء متهمين لا يُشكُّ في ضلوعهم في العمليات الإجرامية، الأكثر دمويّة؛ وعندما تمّ إيقافهم ما وجدت فيهم صورة البطل، وإنما كانوا وحوشاً، لا غير؛ وجاء موعد استنطاقهم، كنت أبدأ بسؤالهم عمّا يعرفونه، غير أنهم أفهموني أنهم لا يريدون البوح بأيّ شيءٍ؛ وهكذا وبدون وازع من الضمير، أوضح لي رجال الشرطة تقنية الاستنطاقات الحشنة. بداية كان هناك الضرب الذي كان يكفي في الغالب، ثم بعد ذلك تأتي الوسائل الأخرى كالكهرباء والماء. كان التعذيب بالكهرباء يتمّ عن طريق مولدات كهربائية تُستعمل في الأرياف من أجل شحن أجهزة اللاسلكي، كما كان التعذيب يتمّ عن طريق صعق الأذنين، أو الخصيتين. وخوفاً من هذه الوسائل، أو بفضلها كان السجناء يشرعون في تقديم معلومات مفصّلة، وحتى الأسماء التي كانت تؤدي إلى إجراء توقيفات جديدة. هذه المرّة وبمساعدة الشرطة كنت أجدني منساقاً إلى المشاركة أكثر، فأكثر في هذه الاستنطاقات الحشنة. ¹ »

3 - قال الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر الذي ساند الثورة الجزائرية عن الزبانية الذين أوكّ إليهم تعذيب المساندين للثورة الجزائريين أكانوا جزائريين، أم من فرنسيين:

- الجنرال أوساريس، ترجمة مصطفى فرحات، شهادتي حول التعذيب، ص 35 . وزارة المجاهدين
1 طبعة خاصة، دار المعرفة، 2008.

«..رجالٌ قَسَاةٌ أقوياء، أوكل إليهم أمرُ ترويض أوقح البهائم، وأشدّها وحشية، وأكسلها: البهيمة الإنسانية؛ ومن المفهوم أنهم لا ينظرون إليه عن كُتْبٍ، فالمهم أن يُشْعِرُوا السجينَ بأنه ليس من جنسهم؛ ولذلك يُعْرَوْنَهُ من ثيابه، ويربطونه بشدّة، ويهزؤون به. ويمرّ جنودٌ بالقرب منه ذهابًا وإيابًا يقذفونه بشتائم وتهديدات بلامبالاة.¹»

4 - هنري إلبيغ مديرُ الجريدة "الجزائر الجمهورية"، **Alger Republican** من عام 1950 إلى عام 1955، مُنعت جريدته، فانضمَّ إلى المقاومة السريّة، تمَّ اعتقاله سنة 1957، سُجن طوال أكثر من شهرٍ، يروي ما سمع، وما رأى:

«..لقد مضى الآن أكثر من ثلاثة أشهرٍ على اعتقالِي، ولقد رافقتُ خلال هذه الفترة من الآلام، والإذلال ما لا أجروُ معه على أن أتحدّث بعد عن الأيام، والليالي من العذاب لو لم أكن أعرف أنّ ذلك قد يكون مفيدًا. وطوال شهرٍ سمعت في الليل صراخ رجال كانوا يُعذّبون، وستظلّ صيحاتهم تتردّد في ذاكرتي إلى الأبد، وقد رأيتُ معتقلين يُضربون بالمطارق، ثم يُلقى بهم من طابقٍ إلى آخر، فيصيبهم من التعذيب، والضرب الخبلُ (الجنون)، حتى لا يعرفوا إلا أن يُتمتموا بالعربية الكلمات الأولى من دعاء، أو صلاةٍ قديمةٍ. غير أنني عرفت بعد ذلك أشياء أخرى، علمت اختفاء صديقي موريس أودان الذي

- جان بول سارتر. عارنا في الجزائر. ترجمة عايدة وسُهيل إدريس. ص 52 . دار
1 الأداب.بيروت.1958

ألقي عليه القبض قبل أربع وعشرين ساعة من اعتقالي، والذي عذبه الفريق نفسه الذي تولّى أمرى؛ لقد اختفى كما اختفى الشيخ تباسي رئيس جمعية العلماء، والدكتور شريف زهار، وكثيرون غيرهما. وفي "لودي" التقيتُ من بلدة "ميلي" كان يعمل في مستشفى البلدية لعلم النفس التطبيقي، وقد عذبه المظليون، ولكن بطريقة جديدة: فقد ربطوه عارياً على كرسيٍّ معدنيٍّ يخترقه المجرى الكهربائي؛ وما زال ساقاه يحتفظان بآثار حروقٍ عميقة¹. «

يواصل ألبغ الحديث عن تعذيبه شخصياً من المظليين:

«..وانتفضتُ انتفاضةً شديدة، وأنا في قيودي، وجعلتُ أصرخ بأقوى صوتي، لقد أرسل "شا" في جسمي الشحنة الكهربائية الأولى، وكانت قد انبثقت بالقرب من أذني شرارةً طويلة، وشعرتُ بقلبي يجمح في صدري، وأخذتُ أتلوّى من الوجع، وأنا أصرخ، وتتلوّى ضلوعي؛ بينما كانت الانتفاضات التي تأتيني من آلة الكهرباء في يد "شا"، وبينما أنا في صراخي تناول "جا..." قميصي فطواه، وأدخله في فمي، وعاد التعذيب، وشددت بكلّ قواي على القماش بين أسناني؛ وشعرتُ فجأةً بمثل عصّة وحشٍ ينهش لحمي نهشات متقطعة، وكان "جا..." قد علّق الملقط في عضوي التناسلي، وظل فوقي يبتسم، وكانت الانتفاضات التي تهزني من القوة حتى أنّ الحبال التي كانت

- هنري ألبغ. الجلادون، أو الاستجواب. ترجمة عايدة، وسهيل إدريس. ص: 9 - 10 دار
1 الآداب. بيروت. 1958.

مربوطة بقدمي قد تقطعت؛ وما لبث الملازم أن أن تناول الآلة من "ج... وكان قد جرّد سلكاً من ملقطه، وجعل يمرّه على صدري، فإذا بالانتفاضات العصبيّة تهزّ جسمي كله هزّاً متزايداً، وجلس " شا..."، وأصدقاؤه يجرعون زجاجات البيرة، وكنت أضغط على قميصي بين أسناني لأفلت من المغص الذي كان يلوي جسمي كله. ¹»

5 - الجنرال الجلّاد أوساريس لا يبدي أبداً «أسفه» لِمَا قام به اذ يرى بأن حبه لبلاده، واعتقاده بأنه كان يفعل أمراً جيداً شكلاً خلفية سلوكه.. باختصار كان يقوم ب"واجهه" وفق ما دونه في كتابه المشار إليه سابقاً: " شهادتي حول التعذيب". ففي حوار أجراه معه الإعلامي سامي نزيه في أحد مكاتب دار النشر الفرنسية تحت الأرض، لم يكن سهل مجالسة الرجل لأكثر من ساعتين، ففي كل رواية تشعر أنك تريد ان توقف آلة التسجيل اشمزازا وتتركه مع ذكرياته السوداء قابعا في تلك الغرفة المغلقة، لكن الجنرال السابق الذي تتلمذ في بدايته في أفضل المدارس الادبية الفرنسية، يعرف بين الفينة والفينة كيف يرمي بالمسؤولية على من كان أكبر منه سياسيا وامنيا، ويسعى الى موضعة نفسه في موضع الضحية.

«... لم تتغير نظرتي كثيرا إلى الجزائر، ولا يمكن قراءة التاريخ بعين الحاضر، فآنذاك كان رجال جبهة التحرير، أو جيش التحرير بمثابة إرهابيين يقتلون جنودنا، أو المتعاطفين معنا، ويهاجمونا في وضح

¹ - الجلادون، أو الاستجواب. ص: 21 - 22 مرجع سابق

النهار، فكان لا بدّ ان نلجأ الى عقابهم. صحيح كان يموت البعض تحت التحقيق، لكننا كنا في فترة حرب، وكان ينبغي مثلا دفع شخص للاعتراف بكل الوسائل، تفاديا لعملية أوسع كان يمكنها أن تقضي على الكثير منا، لو لم يعترف.

لم أقتل العربي بن مهدي خلال التحقيق، فالتحقيقات كانت انتهت معه؛ لم يتعرض للضرب، فهو اعترف بكل شيء حين قال له أحد المحققين إن أصدقاءه البربر قالوا كل شيء وخدعوه، هو العربي الوحيد بينهم في قيادة جبهة التحرير، وكان يريد أن يثبت لنا أن لدى رجاله الكثير من العناد، والعزم على مقاتلتنا، فكشف لنا، ومن منطلق الاعتداد بنفسه، ومقاتليه الكثير من الأسرار التي كنا نريد أن نعرفها. بعدما انكشف أمرُ اعتقالنا له، وكنا نعرف أنه المخطط الأول لأبرز العمليات ضدنا، سعى البعض وبضغوط سياسية لنقله إلى محاكمة أخرى، وكنا نخشى أن ينجو من أيدينا، ومن الموت أو ان تبرأ ساحته، وحينها اتصلت بالجنرال ماسو الذي كان قائدا لكل اجهزة الاستخبارات الفرنسية في الجزائر آنذاك، وكنا نعرف أن القادة العسكريين في أي مكان من العالم يحتفظون بمادة السم في جيوبهم، فينتحروا لو اعتقلوا، لكننا لم نجد في جيبه شيئا من ذلك، فقررنا شنقه، فشنقته بيديّ وشعرثُ لحظتها بارتياح، فهو كان بالنسبة الينا إرهابيا تماما كما هو الشأن اليوم مع أسامة بن لادن. أفهم سبب نضالهم، لكنني لم ولن أؤيد الأساليب الإرهابية التي كانوا يلجؤون إليها لترويعنا؛

أما بالنسبة إلى الجزائر الفرنسية، فما زلت أوّمن بها. لقد علموني أن أقتل من دون أن أترك اثرا، علموني كيف أكذب وكيف لا أبالي، لا بعذابي، ولا بعذاب الأخرى¹»

6 - المرحوم بشير بومعزة من رجال الحركة الوطنية، ومن زعماء الثورة الجزائرية، ومُمثّلها في فرنسا، اعتُقل في باريس، وعمره 31 عامًا، عُذِب، ونُكِّل به، روى، ووثق بخطّ يده:

«..أمروني بتعرية نفسي من الثياب، ولمّا لم أتعرّ بالسرعة التي يريدون، أتبعوا أمرهم بلكماتٍ جديدة وجّهوها إليّ بجمع أيديهم، وضربات أخرى بأقدامهم. ولم أكد أتعزّى تمامًا حتى عصّبوا عينيّ من جديد، وأركعوني، وربطوا يديّ وكوعيّ؛ ثم أولوجوا عارضة حديدية خلف ركبتيّ، ثمّ علّقوني في الفضاء، ورأسي إلى الأسفل. وبدأت جلسة التعذيب بأن أخذ شرطي يُدير المولّد الكهربائي وشرطي آخر يُنقل قُطبي الكهرباء فوق جسدي متلبّثًا قليلا فوق أعضائي التناسلية؛ بينما الآخرون يقذفون جسدي بالماء، لكيلا تبدو آثار التعذيب من ناحية، ويكون الألم أشدّ قسوة.

بعد ربع ساعة فكّوا قيودي فيها، ومارسوا لعبتهم المفضّلة كرة القدم"، وشرعوا معي من جديد بأن قادوني عاريا تماما، وعينايا معصوبتان إلى غرفة مجاورة في نفس الطابق، وسمعن أحدهم يقول:

¹ سامي نزيه. الجنرال الفرنسي السابق اوساريس. جريدة إيلاف الإلكترونية. 24 - 01 - 200 -

«يجب أن نقتل هذا الوسخ الحقير»، ومددوني على بطني فوق مقعد خشبي، ورأسي في الفراغ؛ ثم قُيِّدت ذراعي بخيوطٍ متينة على امتداد جسدي، وعادت الأسئلة التي رفضت الإجابة عنها؛ ثم رُفِعَ المقعد الخشبي في انحناءٍ إلى الأمام؛ وببطءٍ شديد غطّسوا رأسي في حوضٍ مليء بمائعٍ كريبه الرائحة. وبين فترةٍ وأخرى يجلس أحدهم فوق منفرج الساقين، ويميل بكل ثقله فوق كليتيّ فأسمع غرغرة الماء الوسخ المائع الذي أتقيّؤه.¹»

7 - معتقل "أركول" أيام الثورة يقع شرق مدينة وهران، معتقلٌ للتعذيب البدني، والنفسي، ومحطّة للمرور، في هذا المعتقل الرهيب يروي المجاهد السّجين محمد الطاهر عزوي الذي مرّ بهذا المعتقل ظروف استقبال مساجين الثورة به:

«..فيا ويجهم كيف يُستقبلون؟ ! إذ يُستقبلون بالمشي على الركبة، ويؤمرون برفع الأيدي، ويضربون من الخلف الضرب العنيف، ويُحتم عليهم أن يُجيبوا بألفاظ الخنوع، والدُّلّ، والمسكنة، والإهانة، ويُمنعون بعد ذلك من النوم في المراقد، ومن الذهاب إلى المراحيض؛ كما يُمنعون من الصلاة، ويُفاجؤون أثناء النوم بالقيام الإجباري، فويلٌ لمن تأخّر في الوقوف. أمّا اللكمات، والصفعات، والرُّكل بالأحذية فتتهال على الجميع بلا توقّف، وقبل الركوب في الشاحنات العسكرية يُسلسلون

1 - بشير بومعزة. ترجمة رمضان لاوند. الغفرينا أو تعذيب الجزائريين في باريس. ص: 25 - 26

1 - 27 دار العلم للملايين. بيروت. 1959

مثنى، مثنى؛ وحينما يركبون يُسدل عليهم الستار، فلا يروّن شيئاً في أثناء الطريق، يُحرسون داخل الشاحنات بالكلاب، وأسنّة الرّماح، ولا يعلمون عن مصيرهم شيئاً، كما لا يعرفون شيئاً عن الاتجاه، هل هو إلى معتقل آخر، أو رجوع إلى السجن الذي غادروه، أم إلى ثكنة عسكرية، أو إلى مرْمى الإعدام.¹»

8 - الجلّاد الجنرال أوساريس، يبرّر تعذيبه، وقتل المعتقلين وهم تحت التعذيب، والاستنطاق بأنّ الفترة فترة حربٍ وكان ينبغي دفع المعتقلين للاعتراف بكل الوسائل، وفتيات التعذيب، بل كانوا يُقتلون حتى ولو تحدثوا واعترفوا:

«..أذكر رجلاً مسلماً في الأربعينات من عمره، وذو جسدٍ نحيفٍ جدّاً، تمّ إيقافه من طرف وحدتي عن طريق وشاية، وكان يظهر أنّ له ملامح العمال النزهاء. كان الرجل متّهماً بصناعة القنابل، وكانت كلّ الدلائل تتوافق لتُثبت إدانته؛ غير أنّ الرجل يُنكر كلّ ما يُنسب إليه، وكان يقول بأنه مريضٌ بالسُّلِّ، وبأنه لا يمكن له صناعة قنبلة؛ بل إنه لا يعرف حتى ما هي القنبلة. وكان الرجل يستفيد فعلاً من منحة بسبب مرض رئويّ؛ لكنه كان يجهل بأنه أثناء تفتيش منزله، عُثِر على مادّة متفجّرة، وكذا دفتره العسكريّ، ويذكر الدفتر أنّ الرجل كان خبيراً بالمتفجّرات أثناء تأديته الخدمة العسكرية. ولم أقم بتعذيب الرجل، وأظهرت له دفتره العسكريّ؛ وبمجرّد ما شاهد الوثيقة صدم

1 - محمد الطاهر عزوي. ذكريات المعتقلين. مرجع سابق. ص: 41

الرجل، واعترف بأنه قام أحياناً بصنع قنابل، وأنه الآن لا يصنعها. وأظهرتُ له بعضَ المُعدّات التي وجدناها في بيته، وقال بأنه سوى عاملٍ بسيطٍ، وأنه لا يعنيه ما يحدث لِمَا يصنعه بعد ذلك؛ لأنه لا يهتمُّ بالسياسة، وبأنه ليس من يُشغَلُ القنابل، ولا الذي يختار أهدافها، وبالتالي لا يتحمّل مسؤولية فيما يحدث. وباعتراقاته هذه حصلتُ على المعلومات الكافية التي تُسبِّغُ لي القضاء عليه؛ غير أني أردتُ معرفة الأشخاص الذين يتصلون به، ومن يُعطونه أوامر الصُّنع، وما أهداف القنابل المصنوعة أخيراً. أُجريتُ الاستنطاق معه في مستودعٍ صغيرٍ بمكانٍ مُقفّرٍ، ولم أكن أملك سوى حنفية، وأنبوب سقيّ، وكان الرجل جالساً على كرسيّ، وكنتُ قُبالتَه، وصوّب عينيّه في عينيّ، وابتسم ابتسامة تحدٍّ؛ وعندما فهمتُ بأنه لا يريد أن يتكلّم، قرّرتُ اللجوء إلى استعمال الماء، ونبّهتُ رجالي الذين قاموا بإحكام وثاق يديّه خلف ظهره، وأدخلوا الأنبوب في فمه. كان الرجل يحنق، ويقاوم، ولكنه لم يُرد التكلّم، كان يظنّ أنه سيقتل سواء اعترف، أم لم يعترف؛ ولهذا فضّل عدم خيانة أحدٍ. وسألني أحدُ رجالي:

«هل نضع المنديل على وجهه؟» فوافقتُه ؛ وقام آخر بتبليبه حتى يُحجبَ الهواء، وانتظرنا بضع ثوانٍ، وعندما نزعا المنديل كان الرجل قد فارق الحياة. ¹»

1 - الجنرال أوساريس. شهادتي حول التعذيب. ص: 166 - 167. مرجع سابق

9 - موسى قبيلي طالب في مدرسة الأشغال العامّة، عمره 26 عامًا ألقى عليه القبض في باريس في ديسمبر 1958م، يروي ما تعرّض له من تعذيبٍ على يدِ الجلّادين من الشرطة الفرنسية:

«..وفي هذه الغرفة فُيِّدت يداي، وقدماي، ثم رُبِطت راحتي بكاحلي القدمين بعد أن أُجِلِسْتُ القرفصاء؛ أمّا الشرطيُّ ذو الوجه الشبيه بوجه الكلب "البولدوغ"، وقد أدركتُ سريعاً من لهجته، وأحاديثه أنه فرنسيٌّ من تونس، فقد أُولج عارضةً حديدية بين ساقَيّ، وذراعَيّ، ووضع السّفود فوق مسندين خشبيين، موضوعين بدورهما فوق طاولتين مرتفعتين على الأرض بمقدار مترٍ وثُلث، وأطلق الشرطيّون في العارضة الحديدية تياراً كهربائياً، وكان شرطيان آخران أدركتُ أنهما من فرنسيي تونس يمرران القطبين الكهربائيين على جسدي كلّهُ حتّى في الفم، وفوق القلب، وفي الشّرج، وقال أحدهم: "لقد عرفتُ التعذيب النازي، وأنا اليوم أطبّقه"، ولم أتمكّن من الصراخ حيث وضع شرطي في فمي قطعة من الخشب، ثمّ ألحقها بمنديلٍ لزج، مُمتليّ بذراتٍ كثيرة من التّبغ.

دامت الجلسة حتى السادسة صباحاً، وأغمي عليّ سبع مرّات، ومع ذلك لم أتكلّم، وبعد ذلك حُمِلتُ إلى غرفة من غرف الطالق الأرضيّ حيث لقيت "بـ..." مُمدّداً على الأرض يئنّ من الألم، وقد أمر الحراسُ بمنع الطعام والشراب، ومنعنا من النوم. في صباح الأحد الباكر رجع الشرطيون ببيتهم الفرنسيان التونسيان، وتوجّهوا بي إلى ما

يُسَمَّونه بالمختبر، حيث مرّروني على السّفود حتى المساء. ولكنني لم أتكلّم، فُقذف بي عاريا إلى حُجيرة في الدور الثاني، ثمّ أجلسوني فوق الطاولة، بحيث أصبح الجزء الأعلى من جسدي منحنيًا إلى الوراء، معلقًا في الفراغ، وقد مسّ رأسي والكتفان أرض الحُجيرة، ثمّ وضعوا رأسي بين قائمتي كرسيّ تحت العوارض، وبينما كان مساعداه يُجمدان ذراعيّ راح هو يلوي ظهري. ووجدتُ نفسي بعد عودة الوعي مفكوك القيد، عاريًا، وممددًا فوق الأرض، وفي حلقي ومعدتي المحترقة طعمُ التّبغ. ثمّ أمرني المدير المساعد أن أركع على قدميّ؛ ولما كان رأسي منحنيًا ضربني بقدمه ضربة ألقت بي أرضًا، فاغر الفم، وهنا وضع أحدُهم طرف حدائه اللوج بين شفطيّ، وقال لي: «لقد خرجتُ من المرحاض منذ قليل، وسأذيقك طعم القدر الفرنسي».

إنني ما أزال أحمل ندوب الجراح حتى اليوم ساقيّ، وفي الجهتين اليسرى، واليمنى من فخذي الأيسر، وفي منطقة التُّخاع الشوكي عند الخاصرة، وحول الشّرح، إضافةً إلى مواطنِ أعضائي التناسلية، وفي تديي الأيسر، وفي باطن السّبابتين؛ موطن منطقة صُلبي كلها تُؤلمني؛ أمّا إبهامي فقد مات حسُّه موتًا تامًّا.¹ «

10 - محمد الطاهر عزوي المجاهد، السجين الذي عايش، وذاق، ورأى التعذيب له، ولآلاف السجناء أثناء ثورة التحرير، يروي:

1 - الغنغرينا، أو التعذيب في الجزائر. ص: 66.. 69 مرجع سابق

«..مُعتقل" قصر الطير"، القريب من عين ولمان بولاية سطيف خصّصته السلطات الاستعمارية الفرنسية للمجاهدين الأسرى، الحياة فيه حينذاك لا تُطاق، إذ طبّق الجلّادون على الأسرى كلّ أنواع العذاب، وكلّ أنواع التجارب التي طبّقت على الأسرى في الحرب العالمية الثانية، إذ فرضوا عليهم المشي حُفّاءً في عزّ أيام الشتاء في الوادي، وعلى الزّجاج المُكسّر في الوحل؛ كما منعوهم من الشمس في الشتاء، ويُبكّرون بهم جرّياً على الجليد بدون أحذية، ويُجبرونهم على التقيؤ بالقوّة؛ ثمّ يأمرهم بعضهم بشرب القيئ في شهر رمضان نكاية بهم، وخدمة للمسيحية، وتشقيّاً للحقد الصليبي، وانتقاماً منهم في أجسادهم، وتعذيباً لأرواحهم.¹»

11 - بشير خلف مؤلّف هذا الكتاب، شارك في الثورة التحريرية داعماً لها، ثمّ فدائياً في مدينة عنّابة، ألقت السلطات الاستعمارية القبض عليه صبيحة يوم 20 أوت 1960م، يروي ذلك:

«ابتعدتُ عن حيّ محليّ، تحرّكي صار أكثر في حي "لاكولون"، وحي "لاسيقي"، وحي "جبانة اليهود" القريب من مَخرج المدينة نحو طريق قسنطينة. ربطت علاقة مع شخصٍ اتّسم بالغباء، أو ربّما أوهمي كما أوهم غيري بذلك، اتّخذ من بركة حديدية مأوى له بمحاذاة مَخرج المدينة في اتجاه قسنطينة وسكيكدة، صرّثُ أتردّد عليه يوميا، كان يعتاش من قمامة العسكر الغير البعيدة، يجلب منها بقايا الخبز،

1 - محمد الطاهر عزوي. ذكريات المعتقلين. ص: 43

والأجبان، والحلويات، ومما ينفردُ به، وهذا ما قرّبي إليه: السخرية،
والنكت، والضحك، ارتحُتُ إليه، وصرتُ أقضي معه أغلب
الصباحات، وبكلِّ صدقٍ حتى تاريخ اليوم الذي أكتب فيه هذه
السطور لم يساورني شكُّ بأنه كان عميلاً للاستعمار، راودتني شكوكُ
في وقتٍ ما.»

اعتقالُ بشِعْ

في صباح يوم 20 أوت 1960م وأنا كعاديّ معه في برّاكته
منسجماً معه، سمعتُ همساتٍ، ما أن التفتُ نحو مصدرها حتى كانت
فوهات الرشاشات موجهة نحوِي، وأمرتُ أن أقف، ويدي فوق
رأسي. كان عشرات العساكر يُطوّقون المكان، برفقة رجال الأمن
بلباس مدني، والآليات العسكرية غير بعيدة، تلقّفوني بعد أن أشبعوني
ركلا، وضرباً بأعقاب البنادق على كل أعضاء الجسم، وطوّقوا يديّ ثم
رموا بي في سيارة "جيب" عسكرية، بمحاذاتي، وأمامي عساكر
مدجّجون بالسلاح، توجّهوا بي إلى نقطة استنطاق في مدخل المدينة،
غير بعيدٍ عن ضريح سيدي إبراهيم. الركل، والضرب، والشتم،
والكلام البذيء لاحقني إلى أن دخلوا بي إلى غرفة تعذيب، جرّدوني
من ملابسِي، ورموا بي فوق سرير حديديّ، قيدوني فوق السرير،
أحاطوا بي من كل الجهات، شرعوا في التعذيب بأن ربطوا أسلاكاً
كهربائية في أصابع القدمين، ووضعوا أنبوب ماء فوق فمي، بدأت
عملية التعذيب في نفس اللحظة: الكهرباء تَهزّ جسمي، الماء يدخل

بقوة إلى بطني، اللكمات تنهال على وجهي وبطني الذي امتلأ ماءً،
كما اللكمات انهالت على أعضائي التناسلية، والصراخ والسبّ
تواصلًا، الهدف كان استنطاقي بمكان تواجد رئيس الخلية، وذُكر
أعضائها، ومكان تواجدهم. استمرّ ذلك التعذيب قرّب الساعة،
توقفوا ساعة ثم واصلوا دون نتيجة لأني لا أعرف مكان إقامتهم؛ ثم
إننا تعاهدنا على أن نموت تحت التعذيب، ولا نكشف لا على
التنظيم، ولا على مهمة الخلية، ولا على أعضائها.

وجّه مُنتفخٌ.. عينٌ مغلقة

أفقتُ صباح اليوم الموالي 21 أوت، وجدتُ وجهي منتفخًا،
عيني اليمنى مغلقة، والثانية أرى بها بصعوبة وآلام حادة في جسمي،
خاصة ما بين الفخذين، استخلصت أني قضيت الليل مُغمى عليّ من
شدة التعذيب. شرعوا مرّة أخرى في التعذيب، بأن أضافوا إلى
الاستنطاق الرسالتين اللتين وجدوهما عندي مُوجهتين من رئيس الخلية
إلى "عميلين"، وجدت نفسي تجاه تحدّ كبير في حالة ما إذا اعترفتُ بأني
من كتبهما سأفتح باب جهنم على نفسي، ويتحوّل الاستنطاق إلى أني
أنا كاتب الخلية، وأنّ مراسلات رئيسها إلى القيادة، كلها أعلمها،
وهذا كنزٌ للسلطات الاستعمارية، أصررتُ تحت طائلة التعذيب أني
أُمّي لا أقرأ، ولا أكتب، ولا علم لي بمن كتبهما. دوري فقط أن
أوصلهما إلى أصحابهما، بأن أضعهما تحت باي منزلهما بالمدينة، وهذا

ما واصلته فيما بعد أثناء محاكمتي في محكمة الجنایات العسكرية
بمحكمة عناية.

بين أنياب كلب شرس ألماني

بعد ثلاثة أيام من الاستنطاق والتعذيب فُكّ وثاقي من
السريّر، عجزتُ عن الوقوف في البداية، ثم وأنا أحاول وبعد أن
لبستُ ملابس بصعوبة، واستمرارا في إخافتي وبثّ الرعب فيّ أطلقوا
عليّ كلبا شرسا ألمانيا chien doberman هجم عليّ بشراسة،
وغرس أنيابه في جسمي، وما أذكره أنه مزّق سروالي من أعلاه إلى
أسفله، وكذا القميص، وترك جروحا في جسمي، ولولا مسكّه، وإبعاده
لكان المآل أشنع.

نُقلتُ إلى مركز استنطاق تابع للشرطة السرية، بمحاذاة محطة
القطار بالمدينة، وغير بعيد عن الميناء الذي ترسو فيه بالكاد يوميا
السفن العسكرية لإنزال آلاف العساكر، ومئات المجنزرات، والآليات،
والذخائر العسكرية. بدأ معي الاستنطاق من جديد، علما أني ما
تلقيتُ لا علاجًا، حيث وُضعتُ في زنزانة منفردة، تصافّت مع زنانات
أخرى بها سجناء آخرون، صراخهم، عويلهم نتيجة التعذيب تقشعر له
الأبدان، لاحقهم السبّ، والشتم مثلي. زنزانة باها حديديّ، يُفتح إلاّ
حينما أُؤخذُ إلى الاستنطاق، لا أعطية بها ما عدا حصيرة حلفاء بالية
موسخة، ملوثة ببقع دماء بشرية، بالزنزانة مرحاض مكشوف في إحدى
زوايا الغرفة. بعد يوم من تواجدي بالزنزانة، وتحديدا في منتصف النهار

فُتِحَتْ كُوَّةُ قُرْبِ الْبَابِ أَلْقِيَتْ إِلَيَّ مِنْهَا خَبْزَةٌ مَرْفُوقَةٌ بِسَيْلٍ مِنَ السَّبَبِ
وَالشُّتْمِ، كَمَا فَتَحَ مَنْ أَلْقَى إِلَى الْخَبْزَةِ حَنْفِيَّةً خَارِجِيَّةً مُوَصَلَةً بِأَنْبُوبٍ
صَغِيرٍ تَحْتَ الْكُوَّةِ لِمُدَّةٍ دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ بَغِيَّةٍ شُرْبِ جُرْعَاتٍ سَرِيعَةٍ، ثُمَّ
أَغْلَقَ الْحَنْفِيَّةَ، التَّهَمْتُ بَعْدَهَا نِصْفَ الْخَبْزَةِ عَلَى الرِّيقِ، وَأَرْجَأْتُ
النِّصْفَ الْآخَرَ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ، لِأَنَّ الشُّعُورَ بِالْوَقْتِ انْعَدَمَ عِنْدِي فِي
تَلْكَمِ اللَّيَالِي؛ الزَّنْزَانَةُ فِي رِوَاقِ مَظْلَمٍ دُونَ نَافِذَةٍ، دُونَ إِضَاءَةٍ أَحْيَانًا
أَتَفْطَنُ إِلَى أَنَّ يَوْمًا جَدِيدًا هَلَّ مِنْ صَوْتِ حَرَكَةِ الْقَطَارَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ
إِلَّا نَهَارًا، لِأَنَّهَا تَكُونُ هَدَفًا لِتَفْجِيرِ أَسْوَدِ الثُّورَةِ، أَعْرَفُ أَنَّهُ نَهَارٌ لَمَّا
أَسَاقَ إِلَى الْاسْتِنطَاقِ خِلَالَ صَبَاحَاتٍ، أَوْ مَسَاءَاتٍ الْأَسْبُوعِ، وَمَا
كُنْتُ أَعْرِفُ ذَاكَ يَوْمِي الْعَطْلَةَ مِنْ أَسْبَابٍ، وَأَحَادٍ.. خَبْزَةٌ صَغِيرَةٌ
وَاحِدَةٌ، وَدَقِيقَةٌ مِنَ الْمَاءِ فِي الْأَرْبَعِ وَالْعِشْرِينَ سَاعَةً، لِمُدَّةِ عِشْرِينَ
يَوْمًا.. اسْتِنطَاقٌ بَدَأَ بِالرَّعْبِ فِي النَّهَارِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ أَطْلَقُوا عَلَيَّ كَلْبًا
أَلْمَانِيًّا شَرَسًا بِالْكَادِ جِسْمَهُ يَسَاوِي أَوْ يَفُوقُ جِسْمِي، هَجَمَ عَلَيَّ
بِوَحْشِيَّةٍ، كَانُوا فِي ضَحْكَ هَسْتِيرِي، وَلَمَّا سَقَطْتُ عَلَى الْأَرْضِ شَبَّهَ
مَعْمَى عَلَيَّ أَبْعَدُوهُ عَنِّي.

اسْتِنطَاقٌ تَوَلَّاهُ يَهُودٌ

اسْتِنطَاقٌ تَرَاوَحَ فِيهِ الصَّفْعُ، وَالرَّكْلُ، وَالتَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ بِالْمَوْتِ،
وَالتَّرْغِيبُ بِإِطْلَاقِ السَّرَاحِ مِقْبَالَ الْكُشْفِ عَنِ خَلَايَا ثَوْرِيَّةٍ فِي الْمَدِينَةِ،
كَمَا الْكُشْفِ عَنِ تَحْرُكَاتِ رَئِيسِ الْخَلِيَّةِ عَبْدِ السَّلَامِ السَّبْتِي، وَغَيْرِهِ.
وَلَمَّا يَسُّوْا مِنْ ذَلِكَ فَتَحُوا مُحَضَّرًا، وَضَغَطُوا بِكُلِّ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ أَنْ

أقرّ بأبي شاركت في العمليات الفدائية التي وقعت في المدينة بداية من أول سنة تسعة وخمسين، زمن مجيئي إلى حيّ لابلاز دارم، شاركت فيها منفذا الإعدام، أو مشاركا، وكاتبا لرئيس الخلية، ومشاركا بمالي من خلال المحلّ.

احتجاز رهيب في زنزانية

بعد ذاك الاستنطاق الرهيب نُقلتُ إلى ثكنة عسكرية فوق مرتفع جبلي تطلّ على المدينة من جانب البحر، كما تطلّ على حي لابلاز دارم، ووسط المدينة، كان يُطلقُ عليها "القصبة"، وجدتُ نفسي ضمنّ مساجين آخرين في زنزانات متلاصقة عددها ثمانية زنزانات، كل زنزانة بها سجينان..

ذاك الموقع من الثكنة هو مركز عبور للسجناء بعد إكمال الاستنطاق، ربّما بعضهم يُطلق سراحهم، وهم قلّة، والأغلبية من هذا الموقع يُساقون إلى المحكمة الواقعة في الجهة الغربية آخر ساحة "لاكور" الرئيسة في المدينة. وجدتني مع عمّي إبراهيم رحمه الله شيخ في السبعينات من عمره، عُدّب عذابا شديدا سبّب له ضيقاً في التنفس، وصعوبة كبيرة في الجلوس والنوم، وألمًا كبيرا لا يتوقف في الخصيلتين نتيجة التعذيب الوحشي، ممّا سبّب له انتفاخهما. قضى الليالي ذهابًا وإيابًا من باب الزنزانة إلى الجدار المقابل، زنزانة عرضها متران، وطولها ثلاثة مترات مُخصصة لفردين، وذات ليلة أتوا بأعدادٍ أخرى من السجناء أضافوا إلينا سجينًا آخر.. في الزاوية المُحاذية للباب

وُضعتْ علبةٌ خمسِ كيلوغرام معدنيةٍ لقضاء حاجتنا البشرية دون ستارٍ كما هو الحال في الزنزانات الأخرى لإذلال السجناء، إن كان رفيقك يقضي حاجته، ما عليك إلا أن تلتفت إلى ناحية الجدار المقابل، تتغطى لا يوجد غطاء في الزنزانة، حصيرة بالية من الحلفاء؛ ربّما من حسنات هذا المركز، أن السجناء يُخرجون إلى الرّواق الفاصل بين الزنزانات بعرض مترين، وطول الزنزانات الثماني، لمدة نصف ساعة مرّة واحدة، قبل منتصف النهار ذهابا وإيابا لتسريح الأرجل تحت أعين الحُرّاس، في مشيهم وهم يتقابلون يميّون بعضهم بعضاً بالهمس، أو بالإشارة لأن الكلام مَمْنوعٌ، كما أنه في هذه الفسحة يُطلب منهم إخراج علبة فضلات الحاجة البشرية كي يلقوا ما بها في بالوعة في الممرّ. في الساعة السابعة صباحا، كما في منتصف النهار، وفي الساعة السابعة مساء، يأتي العساكر بقهوة وحليب الصباح، ووجبتي الغذاء والعشاء، فيُكلّف سجينٌ تحت رقابة الحُرّاس بالتوزيع على السجناء دون أن يخرجوا بعد فتح الأبواب من قبل الحراس، زنزانة بعد أخرى؛ للأمانة أنّ هذه الوجبات صحيّة وهي نفس الوجبات التي يتناولها العساكر في الثكنة لأنّها من طبخ أيديهم. لما اشتدّ المرض على عمّي إبراهيم نقلوه إلى وجهة أخرى وما التقيتُ به بعد ذلك، حلّ محلّه معتقلٌ آخر ثلاثة أيام، فأخر لمدة يومين، توالى المعتقلون ذهابا وإيابا.

أغلبُ المعتقلين في هذا الموقع الاحتجازي المؤقت منهم من مكث أسبوعاً، ومنهم من مكث أقلّ، ما عدايا بقيت فيه من منتصف شهر سبتمبر حتى يوم صبيحة يوم 12 ديسمبر 1960 لأنهم راهنوا على إلقاء القبض على رئيس خليتي، وأعضائها، وهذا ما تمّ فعلاً في شهر أكتوبر، أُلقي القبض على أعضاء الخلية ورئيسها وخليتين أُخريين في شهر أكتوبر 1960، كوّنهما في المدينة كان البحثُ جارياً على الجميع. وتمّ إلقاء القبض على الكلِّ بما في ذلك ثلاثُ نساء اثنتان متزوجتان، وفتاة في بداية العقد الثالث من العمر.

إلى المحكمة العسكرية

في يوم 11 ديسمبر 1960 نقلونا إلى السجن المدني بجانب المحكمة الواقعة في نهاية ساحة " الكور " من الجهة الغربية، بمجرد وصولنا أخذونا إلى الأدواش للتنظيف، أمرونا بنزع ملابسنا، وصرنا كما ولدتنا أمهاتنا في قاعة كبيرة مقابل بعضنا البعض تحت أنظارهم، المرشاة فوق رؤوسنا ونحن بجانب بعضنا، أو في مقابلة بعضنا في الصفّ المقابل. الحراس بهنجعيتهم، وشراستهم وصراخهم سباً وشتماً دفعونا إلى الوقوف تحت المرشاة، فتح أحدهم الماء البارد جداً، ونحن في شهر ديسمبر عراً، ما تحمّلنا فتزحزحنا، انهالت علينا اللكمات، وقفنا من جديد، فُتح علينا الماء الساخن جداً، حصة عذاب بين الماء البارد جداً، والساخن جداً، وبينهما ضربات العصي، تحمّلتُ مثل غيري هذا العذاب، لأن جسدي ما سقطت عليه قطرة ماء منذ يوم اعتقالي

بتاريخ في 20 أوت 1960 كما أسلفت، إلى يوم 11 ديسمبر 105 أيام، وزعوا علينا ألبسة مَخِيطة في السجن، لكلّ سجين بذلة من نسيج الأغطية المخصصة للعساكر، وقميصٌ.. ما قامت به السلطات الاستعمارية ليس عطفًا علينا، ولا حبًّا فينا؛ إنما من باب إظهارنا في المحكمة يوم الغد 12 ديسمبر في هيئة إنسانية لائقة تُظهِرُ أنها تطبق معاهدات حقوق الإنسان، والاهتمام بالسجناء وفق ما يدعو إليه الصليب الأحمر الدولي، حيث تكون وسائل الإعلام الفرنسية والدولية موجودة في المحكمة، منها وسائل ضدّ الحرب في الجزائر، ومؤيدة للشعب الجزائري في حقّ الاستقلال.

في المحكمة

في صبيحة يوم 12 ديسمبر 1960، يوم المظاهرات العارمة في أغلب مناطق الوطن الجزائري، انتفض الشعب الجزائري، التحم بالثورة وبقيادتها أكثر، ورفض أطروحات الجنرال دوقول، في هذه الأيام بالذات، نكاية في هذا الشعب، قادونا إلى المحكمة العسكرية لمدة ثلاثة أيام، انطلقت مُجريات المحاكمة بداية من الساعة العاشرة صباحا، حتى العاشرة ليلا، مع توقُّفٍ بعد الساعة الواحدة ظهرا لمدة ساعتين، نُقاد إلى السجن المدني لتناول وجبة سريعة. عيّنت هيئة المحكمة لكلّ سجين محاميا للدفاع عنه، فكان محاميّ كهلا فرنسيا. لمّا وقفتُ أمام هيئة المحكمة واجهني رئيسها بعدة تُهمٍ منها أني مجرم قاتلٌ أزهد العديد من الأرواح البريئة، وأني مؤنثٌ "الفلاقة" المجرمين بالجمال

بالعتاد، والدواء، وأني كاتبُ رئيس الخلية الفدائية، وأظهر الرسالتين اللتين وُجِدتا لديّ يوم إلقاء القبض عليّ. نفيتُ كل التّهم، وأصررتُ على أني أجهل ما في الرسالتين لأنني أمّي أجهل الكتابة والقراءة. وكيل الجمهورية أضاف للتهم التي واجهني بها رئيس هيئة المحكمة، بأني اتخذت المحلّ التجاري وكرّاً للجريمة ضدّ فرنسا الكريمة، العادلة، وكذا للتخطيط وتنفيذ الجرائم، وإزهاق الأرواح البريئة، وطالب بعقوبة الإعدام في حقّي.

أمّا مُحامي في البداية أظهر تعسّف هيئة المحكمة في محاكمتي، إذ قانون القضاء الفرنسي عهد ذاك لا يُحاكِم إلا من وصل عمره 21 سنة فما فوق، وأنا كنت حينها في عمر 19 سنة، والتُّهم التي واجهتني بها المحكمة دحضها واحدة بعد الأخرى، طالب ببراءتي، وإطلاق سراحي. كنت متأكدا أنّ هذا من المستحيلات. أصدرت المحكمة أحكاماً قاسية في ساعة متأخرة من يوم 16 ديسمبر 1960: الحكم بالإعدام في حقّ المرحومين الثلاثة: عبد السلام السبتي (رئيس الخلية)، بربيش عبد الحميد، عديم اللقب عبد السلام، وآخرين رأيتهما إلا أيام المحاكمة، الحكم عليّ أنا وعلى المرحوم يوسف بخمسة عاما سجنا، الحكم بعشر سنوات سجنا على ثلاثة آخرين، والحكم على النساء بثلاث سنوات سجنا، وهنّ ثلاثة.

إلى سجن "لامبيس"

بعد يومين حُشِرنا جميعا، ما عدا النساء أُبقين في السجن في ثلاث شاحنات مصفحة، نحن وسجناء آخرين كانوا بالسجن المدني، تحت حراسة عسكرية مشددة إلى سجن "الكُدية" بقسنطينة، أُبقينا فيه ثمانية أيام، ثم نُقلنا إلى سجن تازولت "لامبيس" قُرب باتنة، وجدنا أنفسنا فيه بداية من يوم 28 ديسمبر 1960، أُبقي على من حُكم عليهم بالإعدام في هذا السجن لأيام، ثم نُقلوا إلى فرنسا خشية اغتيالهم من طرف المنظمة السرية O. A. S، وكما هو معلوم أعضاءها من المُعمّرين الغلاة حيث كانوا متواجدين في كل الهيئات، وحتى بين حراس السجن.

أزماتنا وليدة الإنفاء والإعراض عن الحوار

ممّا يُؤسّف له أن العرب بجماعاتهم، قديماً وحديثاً مازالوا يضعون الجدران السميكة بينهم، مستبعدين أي حوار يناقش قضاياهم المشتركة. المُتأمل لتاريخهم البعيد، والقريب، وحتى في أيامنا هذه، والمصائب تصعقهم في كل يوم لا يجد الملاحظ غير العناد، والشحناء يواجهون بها بعضهم البعض، ولا حلّ لما آلوا إليه إلاّ بالحوار الإيجابي. كل التراشقات، والشتم، والاتهامات، والتمادي في التجاهل للمشارك الوطني، والديني، والاجتماعي منعه غياب الحوار المحمود الذي يُشفي ولا يُشقي، يهدئ، ويصقّي الأجواء العلائقية بدل أن يلوثها، إنه الحوار الذي يغذي التدافع، والتآزر، ويمنع الصراع المدّمر للوحدة والرؤية، المشتركة.

الاختلاف.. الحوار.. التوافق

إن الوجود البشري مبنيٌّ على الاختلاف كما البيئة التي يعيش عليها، والاختلاف يُكسب وجودنا التدافع، والتنوع المحفز نحو مراتب السمو، ومن هنا يستقي الحوار أهميته وجدواه، بالاختلاف نستنبت الجديد من الأفكار، والإبداع... بالحوار تتضافر الجهود من أجل فكّ المشكلات، والأزمات المسيئة إلى انسجامنا، وتآزرنا من أجل الرقي المعرفي والعمرائي والسلوكي محلياً، وعربياً. من طبيعة الحوار أنه يفرز

عادة مواقف متباينة، وطروحات مختلفة، وتوجّهات متناقضة، وهذا يكشف لنا عن كينونته المدمجة المؤثرة في يومنا المعيش، وعن مدى ارتكازه كعمود من الأعمدة الرئيسية التي تستند إليها البنية الفكرية، والثقافية لأي مجتمع. لا يختلف اثنان على أهمية الحوار في توطيد العلاقات، وربط جسور التواصل بين الجماعات الكبيرة، والصغيرة بين المجتمعات، وبين الدول. الحوار ضرورة إنسانية، وحضارية. الحوار أساس توحيد الجهود والرؤى، وأساس تصحيح المسارات والأفكار، فلا يمكن الاستغناء عن الحوار بأي حال من الأحوال، ولذا فالحوار مطلوب، وقد حفلت آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة بالكثير من النصوص، والأمثلة التي تبين بحكمة، وعمق جدوى وأهمية الحوار في توطيد العلاقة بين الناس، وقد سجّل القرآن الكريم تحاور كثير من أنبياء الله مع أقوامهم، وللمسلمين، والعرب بخاصة أن يتعلموا كيفية التحوار فيما بينهم أولاً، ثم مع غيرهم من الأمم الأخرى. من دون شكّ أنّ ذلك يجنبنا الكثير من الويلات، والمستنقعات التي ما زلنا نغوص فيها، ويكاد الكثير من الباحثين، والمفكرين أن يجزموا بأنّ جلّ معضلاتنا في العالم العربي منبعها انعدام الحوار الإيجابي المثمر بيننا. لا فوزَ لطرفٍ على آخر..

الحوار ينبغي أن يؤسس على أسس من الموضوعية تبعده عن ساحات المعارك التي لن يفوز فيها أي طرف من المتحاورين، فكل

منهم يحاول نسف الآخر عبر الاتهامات المتبادلة، وعبر الابتعاد عن المطلوبات الواضحة، والضرورية لاستمرار التعايش السلمي المفيد لكل الأطراف. تُعد أزمة الحوار التي نعاني منها في حياتنا المعاصرة نتيجة طبيعية لضعف ثقافة الحوار المتولدة عن تقصير جميع مؤسسات المجتمع في التربية الحوارية، واستشراء بعض التصورات، والمفاهيم المغلوطة، التي أسهمت في تغييب الحوار عن ثقافة المجتمع. وعليه فنحن اليوم بحاجة ماسّة لتفعيل التربية الحوارية، ابتداء بمؤسسة التربية الأولى الأسرة، وانتهاء بمؤسسات الدولة؛ والمجتمع المدني بكل مكوناته، إذ لن تسود فينا ثقافة الحوار، إلا بتربية مستمرة وشاملة على الحوار يتلقاها جميع أفراد المجتمع منذ نعومة أظافرهم، وحتى انقضاء آجالهم.

إنّ أزماتنا، وكيواتنا كلها نتيجة الإقصاء، وعدم تقبّل لبعضنا، مثلما هو الحال في العالم العربي، وأنّ الخير في تقبّل بعضنا لبعض بواسطة التسامح، والتقارب، والتفاهم، والدليل أن مأساتنا الوطنية التي عصفت ببلدنا لمدة 15 سنة، وأذاقتها العلقم لولا الحوار الصادق الذي دعا إليه، وتبناه الطيّبون الصادقون لكانت الضريبة مضاعفة. يبدو أننا إن لم نتدارك أمرنا، ونتعظ من مأساتنا تلك، وغيرها ممّا سبقها، وما بعدها، ونلجأ إلى ما تطالب به أغلبية الشعب الجزائري من تغيير جذري في نظامنا كله، والشروع في الجمهورية الثانية

دون جذور الجمهورية الأولى التي استندت إلى الشرعية الثورية التي انتفت شرعيتها بعد ما يقارب الستين سنة من استقلال البلد.

إن الحوار يجب أن يُنظر إليه كأى نشاط إنساني يمكن أن يهدم، كما يمكنه أن يساهم في البناء بفعالية ونجاعة، فالحوار من أهم عناصر الحياة الاجتماعية، عبره نبّغ الآخرين مشاعرنا، ورؤانا، وأهدافنا، وطموحاتنا ورغباتنا الآنية والآتية، ولا نتصور أي أداة للتواصل، والتفاعل الاجتماعي وحتى السياسي أفضل من الحوار. وكل عائق أمام الحوار الإيجابي يجعل الحوار كائنا شائها عديم الفائدة للأفراد، والجماعات على السواء، وكل محاور لا يؤمن بالتعددية في الرأي، والنظر مآل حوار الانسداد، والتفوق المظلم المفضي إلى المصائب، وإلى الإيمان الأعمى بالأحقية. الحوار بين العرب إن وُجد، وقلّما وُجد، هو حوار مغلق يزيد الأزمة تآزما، ويزيد في كهرية العلاقات بينهم.

نعم للرجعية الدينية الوطنية.. لكن؟

ثلاثة أشهر الصيف، إضافة إلى شهر سبتمبر، والأسبوع الأول من شهر أكتوبر، وخطيب صلاة الجمعة قبل أداء الصلاة في دروسه الأسبوعية، ما انفك يُحررنا، ويغوص في فقه أحكام الوضوء، ونواقضه، حتى أنه تفتن وتلدذ، وهو يُشخص تلك النواقض، خاصة عندما المرء يمسّ ذكره بكفّ يده فقط، أو بأصابعه كلها، أو بأنامل أصابعه فقط، أو ببعضها..؟ كما الغُسل، والحيض.

إمامٌ صنف نفسه الأَعلم..

وكان الإسلام العظيم انكفأ في هذا الموضوع، ويبدو أن صاحب هذه الدروس جهل، ويجهل عموم المصلين، يخاطبهم بهذه الأحكام وكأنهم دخلوا إلى الإسلام تَوًّا، وتأكيداً أنه يجهل مضمون مادة التربية الإسلامية وتعليمها في المراحل التعليمية؛ إذ لو كان يعلم منها إلا القليل لعرف أن الوضوء، وأحكامه تُقدّم إلى المتعلمين ابتداءً من السنة الرابعة الابتدائية بكيفية مبسّطة، ثم تتوسّع سنة بعد سنة. لو فكّر الإمام لعرف أنّ المصلين فيهم المحامي، الطبيب، المهندس، الأستاذ الجامعي، أساتذة مراحل التعليم الأخرى، البقية ممن وصل إلى مرحلة التعليم الثانوي؛ من المصلين من هو خريج المعاهد الإسلامية،

من المصلين من هو متخصص في الشريعة، منهم من تخصصه الدراسات الإسلامية، الدراسات القرآنية، وحتى الشيوخ الكبار منهم بحكم السن، والخبرة لهم دراية بنسب مقبولة في فقه العبادات. الإمام لا يحتكر الحق، كما لا يحتكر التحدث باسم الدين، ينبغي حتما أن يتفتح على المذاهب، والأقوال، والآراء، لا يجمد، ليس صاحب خطاب فوقي؛ بل رجل حوار ونقاش، يتعلم كغيره، هو أولى الناس بالبشاشة، والوجه الطلق، والابتسامة الودية، ومعرفة واقع الناس.. درس خصصه الإمام ولمدة عشرين دقيقة لحيض المرأة، فما اكتفى بالأحكام الفقهية؛ بل شرح حالات الحائض العضوية، النفسية، الأسرية، شخصها حالة، حالة، وكأنه طبيب تخصص نسائي. كما خصص درسين في جمعيتين متواليتين لأحكام الغسل، شخص، أطب، أعاد وأعاد، وتعرض لأعضاء جسم الإنسان ذكرا وأنثى عضوا، عضوا، الظاهر والخفي، و...

قضايا المسلمين في عالم يمور بالأحداث

الإسلام وعظمته، وحضارته.. كما مشاكل المسلمين اليوم التي لا تنتهي، وصراعهم، وضعفهم، وقوتهم، وقضاياهم، تلخصت في فقه الوضوء، ونواقضه، والغسل، والحيض. ليت أن الحاضرين بالمسجد متفاعلون، ويتابعون هذه الدروس المملة، المُخدرة التي ما أن تنتهي، حتى تعود إليهم من جديد أين مضمون " الدين المعاملة" وقضايا المجتمع الجزائري، ومشاكله اليومية التي لا تنتهي، ولن تنتهي: الإسلام

والتماسك الأسري، الإسلام والتكافل الاجتماعي، الإسلام وحقّ الوالدين، الإسلام والحفاظ على المحيط، الإسلام والصحة الفردية والعامّة، الإسلام والحفاظ على الماء، الإسلام والنظافة الفردية، والمحيطية، الإسلام والحفاظ على الطاقة الكهربائية، الإسلام ومحاربة التبذير، الإسلام وطلب العلم، الإسلام والدخول المدرسي، الإسلام والأوبئة، الإسلام والحجر الصحي، الإسلام والأزمات المستجدة، الإسلام والآخر، الإسلام والعلم، الإسلام والتكنولوجيات الحديثة، الإسلام في عالم يمور بالأحداث، الإسلام والاقتصاد، الإسلام والصناعة، الإسلام والتنمية، الإسلام والبحث العلمي، الإسلام والأمن الغذائي، وغيرها، وغيرها من مواضيع الساعة...

الخطاب الديني.. إلى أين؟

أكّد المفكر الجزائري محمد أركون أهمية الاشتغال على الخطاب الديني؛ لأن ذلك من ضروريات فهم الواقع، كما هو من ضروريات التأثير فيه، مُبيّنا أن هذه الأهمية لم تتضح . بجلائها . إلا أواخر القرن العشرين، بينما كان الأمر مختلفا في ثلاثينيات القرن العشرين، إذ كان النقاش في المسائل الدينية أو محاولة إعادة الدين إلى الاضطلاع بدور ثقافي يرمى به في سلة المهملات، في ساحة الليالي، القديم البدائي، كما كان يظهر في شعار: الله فرضية لا جدوى منها. اليوم . كما أكّد أركون . تغيّرت الأوضاع نسبيا وأصبح الثقل البشري والسياسي للأديان يُجبر الباحثين العلميين، والمسؤولين على إعادة

النظر في العلاقات الكائنة بين العامل الديني، والعامل السياسي
والعامل الفلسفي.¹

إن تجديد الخطاب الديني ضرورة فطرية وبشرية؛ لأن هذا
الخطاب الديني الحالي مفككٌ، وفردى؛ بينما يشهد العالم تجمعاتٍ،
وتطوراتٍ هائلة في مجال التقنية، والمعلومات والاختراعات، إنَّ أية
نَهضة، أو تنمية في العالم الإسلامي، وفي بلادنا الجزائر التي ينادي بها
المخلصون من دعاة الإصلاح إن لم تصدر من مفهوم ديني عميقٍ
متجذّرٍ، محكوم عليها بالفشل، فلا بدّ من خطاب ديني واعٍ
ومعاصرٍ، ومنضبط، يستطيع أن يضع هذه النهضة، ويساعد عليها،
ويدفعها لإخراج الأمة من هذا التيه، والدوران الذي تدور فيه حول
نفسها.² إن هذا التجديد الحيّ قراءة واعية واعدة للنفوس، وللآخر
والواقع، وقراءة قادرة على إيجاد الحلول الشرعية المناسبة لمشكلات
الواقع. إنه لا مناص من التجديد، وإذا لم نؤمن بذلك فأمامنا خياران:
1 - الجمود ويعني ذلك الإطاحة بحقّ الحياة، وسحقها في عصر
تكتنفه الحركة الثائرة من كل جهة.

2 - الذوبان، أو الجمود، وذلك معناه الإطاحة بحقّ، الدين
والشريعة، والثقافة، والتراث، وبالتالي بالإنسان الذي هو الجوهر الذي
كرّمه الخالق

1 - محمد أركون معارك من أجل الأنسنة، ص80/79. دار الساقي للطباعة والنشر. 2001.
2 - سليمان العودة: دراسات في الدعوة. موقع إسلام ويب.

هل هناك ضرورة لتجديد الخطاب الديني؟

تجديد الدين لا يعني تغييره أو تبديله، وإنما يعني المحافظة عليه ليكون كما نزل غضاً طرياً، ويأتي هذا التجديد إذا مرّت عليه أحوال، وتغيير حتى صار قديماً، ويأتي هذا التغيير من أحد الأمور التالية:

- إما أن تُطمس بعض معالمه، حتى لا تتضح لمن ينظر فيها.

- وإما أن يُقتطع منه شيء؛ فتنقص بذلك مكوناته.

- وإما أن يُضاف إليه ويزاد فيه، حتى تختلف صورته.

المرحلة الحالية التي يمر بها العالم العربي والإسلامي، من تصاعد موجات الكراهية، والتطرف، والعنف، والإرهاب، والتكفير التي انتشرت دون علم، أو معرفة بطبيعة هذا الدين تحت دعاوى باطلة تتخذ من الإسلام مرجعية لها، فلا ينبغي أن يكون تجديد الخطاب الديني، إضعافاً للدين في حياة المسلمين، بإقصائه، أو بالتقليل من تأثيره، أو بالعبث به جهلاً وتفريطاً وانسياقاً مع الأهواء؛ فهذا الصنيع هو إلى التبيد أقرب منه إلى التجديد؛ وعلى ذلك فإن تجديد الخطاب الديني لا يعني التجديد لأصول الدين وثوابته، فهذه مسائل غير قابلة للتجديد أو التغيير، لأنها أركان يقوم عليها بنيان الإسلام وشريعته؛ "فالتجديد إذن هو عودة للمنابع والأصول عودة كاملة صافية، ودعوة للثبات على الحق، وترك التقليد القائم على

الاتباع والمحاكاة على غير بصيرة، ومن هنا يتبين أن التجديد عملية إصلاحية محافظة، وليس عملية تخريبية منفلثة"¹.

..وماذا عن الخطاب المسجدي؟

تأسف الداعية، المفكر الجزائري محمد الهادي الحسني، لمستوى بعض الأئمة غير الملمّين بأسُس، وتقنيات فنّ الخطابة، والذين تسبّبوا في نفور الناس من حضور حُطَب المساجد، وأرجع أسباب ذلك إلى عدم بذل عدد من الخطباء، والأئمة جهوداً في تحيين معارفهم، وتحسين لغتهم العربية؛ داعياً إلى ضرورة تدارك مثل هذه النقائص التي تؤثر على تحبيب الناس في الدين الإسلامي، والتقايس في فهمه، وأداء شعائره.

في ملتقى فكري نُصِّم بمدينة تيارت حول الخطاب الديني المعاصر يومي 28 و 29 أكتوبر 2019م، بالمركز الإسلامي، أجمع المشاركون خلال أشغال الملتقى على ضرورة العصرية في الخطاب الديني، وخاصّة المسجدي الموجه للأمة وفق معايير التطور التكنولوجي، من شبكات التواصل الاجتماعي والتلفزيون الرقمي، ودعا مجموعة كبيرة من علماء الدين على ضرورة تأقلم خطباء المساجد، والأئمة مع الوضع الراهن، خاصة عندما يتعلق الأمر بشريحة الشباب التي تُعتبر الأهم بالنسبة للخطاب الديني، ودروس الوضع والإرشاد، وطالب عدد من الأساتذة والأئمة، بضرورة التكوين

¹ - جمال نصار. الخطاب الديني بين التجديد والتبديد.. مركز الجزيرة للدراسات. 2015/05/20

المتواصل للأئمة، والخطباء لتغيير سلوك تواصلهم. الخطيب الديني الواعي، كالطبيب الذي بين يديه المرضى الحائرون؛ فإنه يُحسن تشخيص مرضهم، ثم يصف لهم ذلك الدواء الفاعل ويُذكّرهم به أكثر من مرضهم؛ لا أن يجلس معك فيحدّثك عن وصف الداء وأنّ هذا الجسم مريض.. مريض.. مريض!.

لهذا يحسن بالإمام الخطيب إن يبادر إلى المساهمة في معالجة مُشكلات المجتمع، بدل أن يكتفي بإلقاء النصوص الشرعية على مسامع الحضور بداية، ثم يقدم مواعظ تكررت على مسامعهم مراراً، ومراراً. عليه أن يعي بداية هذه المشكلات، فيخطّط لحصرها وتصنيفها، ثم يقوم أمام الناس خطيباً ومُوجّهاً؛ لتنبه الناس إليها، وتشخيصها، وإظهار مخاطرها، وتأثيراتها السلبية، ثم طريقة معالجتها، وتفادي أضرارها.

الإمام الذي نريد

أنا لا أقبل أن يكون في صفوف أئمة مساجدنا إماماً سلفياً، وإماماً حديثاً، ولا إماماً حركياً، وإماماً وهابياً وإماماً صوفياً، ولا أؤمن أن هناك إماماً مالكيًا وإماماً إباضيًا؛ بل أؤمن أن الذي يتقدمنا في محراب المسجد هو إمامٌ جزائريٌّ فقط لا غير..

في بحثٍ مسجّحٍ للخطاب المنبري المسجدي شمل خطب الجمعة المنبرية (30 خطبة) ألقيت في عدد من مساجد ولاية وهران اختيرت بطريقة عشوائية، غطّى المسح الفترة الزمنية ما بين سبتمبر،

وجويلية من سنتين متواليتين. الهدف الأساس من المسح: الإجابة على عدد من الأسئلة أهمها: إلى أي مدى تصبّ مضامين الخطب المنبرية في سياق مقتضيات الخطاب الرسمي حول المواطنة في الجزائر اليوم؟ وما هي الكتابات المرجعية التي يعود إليها الإمام في بنائه لخطابه حول السياسة بشكل عام، وقضايا المواطنة بشكل خاص؟ كيف تتطرق الخطب المنبرية إلى القضايا، والأحداث الوطنية، مسألة حقوق الإنسان بشكل عام وحقوق المرأة بشكل خاص، والمشاركة في الحياة السياسية؟ وما هو خطاب الإمام اليوم حول علاقة الدين بالسياسة في "الفضاء العمومي"؟

الوطنية والمواطنة في الخطاب المسجدي

كان الهدف تحليل طبيعة العلاقة بين الخطاب الديني، والخطاب الرسمي حول الوطنية/ المواطنة. منظمو المسح قاموا بمتابعة خطب الجمعة لشهر نوفمبر على افتراض أن عددا من الخطب تتناول موضوع "الثورة التحريرية"، خطب شهر ديسمبر تتناول "حقوق الإنسان" إضافة إلى مظاهرات 11 ديسمبر 1960، خطب شهر مارس تتناول "حقوق المرأة"، وذكرى 19 مارس تاريخ وقف إطلاق النار بين الجزائر وفرنسا الاستعمارية، ارتباط شهر ماي بمظاهرات الثامن ماي 1945، وشهر جويلية بعيد الاستقلال. أفضت الدراسة إلى ما يلي:

تناولت مجمل تلك الخطب المنبرية مسألة المواطنة في علاقتها بالإسلام سواء في الماضي، أو الحاضر بالإشارة إلى وضع حقوق غير

المسلمين في البلاد العربية - المشرقية بالخصوص- والمسلمين في غير بلاد المسلمين؛ يأتي الاستدلال على تلك الحقوق بالرجوع مباشرة إلى النصوص الدينية المتعلقة بحقوق غير المسلمين، أو ما يطلق عليه في الخطاب الفقهي بمُصطلح "أهل الذمة" إضافة ثنائية الشورى والديمقراطية.. حتى وإن استعان الخطباء بمراجع تراثية فكرية، سياسية لمفكرين إسلاميين، وفقهاء معاصرين، فإنها في الغالب اتّسمت بالمعالجة الوعظية، الأخلاقية للقضايا السياسية معتمدة في ذلك على قواعد، ونصوص عامة، ولا تنحو نحو الطرق العملية الكفيلة بتطبيق تلك القواعد والنصوص.. يطغى الجانب النقلي (قرآن، أحاديث، أقوال مأثورة...) على هذه الخطب حيث تتم مقارنة موضوع الحكم من خلال رؤية تراثية بحتة فتبرز كلمات في خطب الجمعة من مثل: طاعة ولي الأمر، نصيحة الإمام، أهل الحل والعقد، البطانة الصالحة وبطانة السوء، حقوق أهل الذمة، نظام الحسبة وغيرها. خطابٌ لا يضع حدث الثورة كحدث هامٍّ من أجل التحرير الوطني لإقليم معين؛ بل يتناوله في سياق الخطاب الديني حول الصراع بين الحق والباطل، ممّا يجعل الثورة مجرد مثال البدء للخطاب الأخلاقي الديني. وبالتالي فلسنا هنا أمام خطاب تنشئة مواطنة بقدر ما نحن أمام خطاب تنشئة دينية.

الإمام ووسائل الإعلام الحديثة

على الإمام أن يساير العصر، وأن يفهم أن حياة أغلب الناس ارتبطت في يومياتها بوسائل الإعلام الحديثة، وأنها أكثر تأثيراً من مؤسسات المجتمع، ومنها المسجد، وإمامه؛ كما أن اتساع دائرة المُخاطَبين، والسرعة في تبليغهم، خاصة إذا كان هؤلاء المُتلقين يتعاملون مع هذه الوسائل تعاملًا يوميًا اعتياديًا، فإذا سلّمنا بمبدأ: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"، ومستوياتهم المعرفية، فإنه من اللازم أن يجنح الإمام، والخطيب إلى الوسائل الحديثة، مادامت لغةً مفهومة لدى الأغلب الأعم، ووسمةً حياتيةً حديثةً بارزةً عندهم، فرضت نفسها.

تعدّدت وسائل الإعلام، والاتصال، وتعدّدت معها صورُ استغلالها حتى صارت تشتهرُ بأنّها "سلاحٌ ذو حدّين"، ووسائل ترافقنا متحرّكين خارج منازلنا، وفيها ليلاً نهاراً، تماهينا معها، وصارت من مستلزماتنا الحياتية، ولا نرتاح إلّا بها، وتواصلنا مع غيرنا إلّا بها، ك:

- التلفزيون، الإعلام الآلي، الأنترنت، وما به من وسائل التواصل الاجتماعي محلياً، وعالمياً كالفيسبوك، والتويتّر، واليوتوب؛ الهاتف الذكيّ وسهولة حملها، وغزارة برامجها، وتنوعها، وسرعة توظيفها، واستجابته، وتمكّن الجميع من امتلاكه إنثاءً وذكوراً، صغاراً وكباراً.

من الواجب على الإمام أن يُواكبَ مُعطياتِ عصره ومُستجدّاته مهما كان نوعها، كي يسهلَ عليه توجيهُ الناس إلى منافعها، وتحذيرهم

من مَضارِهَا، فإذا كان الإمامُ مِمَّنْ يَفْقُونَ مَوْقِفَ الصِّدِّ هذه المجالاتِ الإعلَامِيَّةِ، خاصَّةً بما تَبَثُّ من سُموْمِ هَدَامَةِ دون أن يَطَّلِعَ على حَبَايَاها، بِحُجَّةِ الالتزامِ والتَوَرُّعِ عن مواطنِ الفَسَادِ، فإنَّ تأثيرَ خطابهِ الذي يُميزُهُ الهُجُومُ عليها وذمُّها، قد يكونُ باهتاً وغيرَ مُجَدِّ، من بابِ أنَّ مُتلقِي الخطابِ قد يكونُ مِمَّنْ يَعْرِفُونَ الجَانِبَ الإيجابيَّ فيها، ويحسُّ بأنَّهُ في موضعِ اتِّهامٍ وشُبْهَةٍ باطلةٍ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُ يُشَاهِدُ التلفازَ، أو يتصفحُ مَوَاقِعَ في الأنترنتِ. (وسائِلُ الإعلَامِ والاتِّصالِ وَكَيْفَ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا الإمامُ. وزارةُ الشؤونِ الدينيَّةِ والأوقافِ). لذا وَجَبَ على الإمامِ أن يَتَّبِعَ أسلوبَ التَرْغيبِ، والتَحْيِيبِ كما التَنبِيهِ إلى المَضَارِّ: (هذا الأمرُ فيه فوائدٌ جيِّدةٌ، مثل كذا وكذا....)، بطريقةِ الاستمالةِ بمدحِ الشيءِ ثم تبيانِ عيوبِهِ، إنَّ الإعلَامَ يُعَرِّفُ عندَ كثيرينَ بأنَّهُ "سلاحٌ ذو حَدَّينِ".

استفادة الإمام من وسائل الإعلام؟

يقولُ اللهُ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، {الرعد: 11}. من الضَّروري أن يكونَ الإمامُ في صَدَارَةِ المُغَيَّرِينَ في المُجْتَمَعِ، لِمَا لَهُ من مكانةٍ واحترامٍ في النفوسِ، ينبغي لَهُ أن يستثمرَها فيما مِنْ شأنِهِ أن يَدْفَعَ إلى التَغْيِيرِ الأحسنِ، بِخطابٍ هادئٍ فعَّالٍ، وبذلك يكونُ مُتفاعلاً مع قضايا مُجْتَمَعِهِ ومُؤثراً فيها، كما عليه أن يَتَّخِذَ جميعَ الوسائلِ التي من شأنِها أن تُبَلِّغَ رسالَتَهُ وتَعَضِّدَها بِالْحُجَجِ البالغاتِ كي تُؤثِّرَ الأثرَ الطَّيِّبَ. قد يعتقِدُ الإمامُ بأنَّ وسائلَ

الإعلام الحديثة لا توفّر له المصدقية المَوْجُودَةَ في أمّهاتِ الكُتُبِ التي يَحُوزُهَا، وهذا صحيحٌ نِسْبِيًّا، لكنّها تُوفّرُ عاملَ الوقتِ وسُرْعَةَ البَحْثِ، وهو أمرٌ مطلوبٌ في عمله، ومع ذلك فبعضُ مَوَاقِعِ الكُتُبِ في الشبْكةِ بها عشراتُ إن لم نقلْ المئاتِ من العناوينِ المختلفةِ حولِ مواضيعِ خطبه ودروسه لعلماءِ الإسلامِ القداماءِ، والمحدثينِ، والمعاصرينِ، فيأخذ منها ما يلائمُ العصرَ، وأحداثه، ومتغيّراته المتسارعة. إذا أدرك الإمامُ هذه الأمورَ وغيرها، فإنّه سيَجِدُ نتائجَ غيرَ تلكَ التي كان يَجِدُها في العادةِ دونَ تجديد، وتغيير، والتي أساسُها التَّوَاصُلُ الجيّدُ بينه وبين قضايا مجتمعه، وتحسيسِ النَّاسِ بها، كي يُزَوجَ لهم بين قضاياهم اليوميّةِ من جهةٍ وقضايا أمّتهم العامّةِ، ليصيروا عارفينَ بها ومَسْئُولِينَ حياها، بعيدًا عن أنانيتهم في تتبّعِ يوميّاتهم البسيطةِ.

وبهذا تعلو همّةُ الفردِ المُسلمِ من الضميرِ الفرديّ إلى الضميرِ الجَمْعِيِّ، الذي يَحْمِلُ همَّ الأُمَّةِ جميعاً. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الإمامَ عندما يستعملُ وسائلَ الإعلامِ ويتعاملُ معها، فإنَّ خطابهُ يكونُ مقبولاً عندَ الشبابِ، الذينَ يعتقدونَ مُسبقاً بأنَّ الإمامَ رجلٌ مُحَافِظٌ لا يُسَاقِرُ العَصْرَنَةَ ولا يرغبُ فيها، فإذا خاطَبَهُم بلُغَةِ عصرهم، ومسّ دواخلهم الحميمية سهّلَ اقْتِيادَهُم إلى الفضيلة. هذا الأمرُ لا يتأتّى على وجهِ صائبٍ؛ إلا إذا أدركَ الإمامُ أولاً بأنَّ خِطابَهُ الاعتياديّ ينبغي أن يتجدّدَ بما يُحَقِّقُ له التأثيرَ المنشودَ، بما يفرضُهُ عَصْرُهُ من تطوُّراتِ

يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ تَفَهُّمُهَا وَمُسَايَرَتُهَا، خَاصَّةً إِذَا وَجَدْنَا الْمُتَلَقِّي يُتَابِعُ
خَطَابَاتٍ دِينِيَّةً مُخْتَلِفَةً، وَأَسَالِيبَ، مُشَوِّقَةً فِي الْإِذَاعَاتِ
وَالْتَلْفِيزُونَاتِ، وَيَتَأَثَّرُ بِهَا، وَيَحْفَظُ مَوَاعِيدَهَا وَأَسْمَاءَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ
يَقْدِمُونَهَا، وَبَعْدَ هَذَا هَلْ يُلَامُ الْمُتَلَقِّي عَلَى الْمَلَلِ الَّذِي قَدْ يَشْعُرُ بِهِ
فِي الْخِطَابِ الْمَسْجِدِيِّ أحياناً، أَوْ عَلَى نَفُورِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ أَصلاً ؟
فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُلَامَ لِأَنَّهُ عِنْدَمَا يَحْضُرُ إِلَى
الْمَسْجِدِ وَيَسْتَمِعُ إِلَى الْإِمَامِ؛ فَإِنَّ عَقْلَهُ الْبَاطِنِي يُمْلِي عَلَيْهِ
مُفَاضَلَةً عَفْوِيَّةً بَيْنَ خِطَابِ التَلْفِيزُونَ، وَخِطَابِ الْإِمَامِ، فِي
الْأَسْلُوبِ، وَاللُّغَةِ، وَالْمَوْضُوعِ الْمَعَالِجِ، وَاللِّبَاسِ، وَالصَّوْتِ، وَالْأَدْلَةِ
الْمُسْتَعْمَلَةِ، وَحِينَهَا لَا يَجِدُ نَفْسَهُ إِلَّا وَقَلْبُهُ مَالٌ إِلَى ذَلِكَ، وَأَنْكَرَ هَذَا
الْإِمَامِ.

.. مع مرجعياتنا الدينية.. لكن

نعم نحن مع المرجعية الدينية الوطنية؛ إنما لسنا مع مرجعية
دينية تنويمية مخدرة - في صدارتها الخطاب المسجدي - تتجاهل عن
عمدٍ، أو غير عمدٍ واقعاً يومياً نعيش فيه قضايا محلية متعدّدة، ووطنية
وعالمية نعاشرها، تؤثر فينا، ونعايشها إيجاباً وسلباً..

المبدع..ومحنة الامتثال؟! !

«الخطر، هذا الشبح العالمي، إن كان قائما،

ليس خطر التماثل، بقدر ما هو خطرُ الامتثال.»

(ريمون آرون..عالم اجتماع فرنسي)

المبدعون الحقيقيون عبُر التاريخ، وفي كل المجتمعات شرقاً وغرباً هم نخبٌ من المفكرين المنتجين للثقافة في كل مجالاتها، المبدعون للجمال في شتى الصور من الكلمة الجميلة، واللحن الشيق، واللحن العذب، واللوحة الأخاذة، ذوو الحُصْب والنماء للفكر الراقى التنويري، والإبداع الجميل، وصُنْع الجمال والجمالية..الذين يقفون دوماً في الصدارة، صدورهم في الواجهة، قاماتهم الفارحة تظلل مجتمعاتهم بنورانيتهم، يبعثون روح النماء والخير والأمل المتجدد في الأفراد والجماعات..

عبُر كل مراحل التاريخ دفعوا الثمن غالياً، مقابل التنوير، والنورانية؛ لكن في تاريخنا المعاصر، وفي أمم تحترم الفكر، والرأي الآخر، وتُثَمِّن الإبداع ومنتجيه.. نال المثقفون بكل أطيافهم، ولا يزالون كل التقدير والاحترام، والتقدير.

في مجتمعاتنا ما تغيّر الحال منذ القديم إلى يومنا هذا، ولا أحسب أن النظرة التقديرية ستحصل إلى يوم الدين؛ فقد كان المبدع فارس القبيلة، ووجهها الناصع، وناطقها الفذ، وقد كان أيضاً الشخص الدوين المغضوب عليه، فنُبت كالحَيوان الأَجْرَب، وُعزل عن القوم، وحُورب حتى في حقّه البيولوجي، إذ قد ضُويق حتى في قوّته اليومي، ولا يزال الحال لم يتغيّر، حيث يفنى جوعاً، أو يموت حسرة.. ولا أحد يرثيه. هذه نظرنا للمبدع.

ذنبُ المبدع .. وغيه بحركية الزمن

ذنبُ المبدع أنه يمتلك فهم الماضي، والوعي بالحياة، واستشفاف مكونات المستقبل، والتبشير بطلائعه.. يمتلك قوة الكلمة، يحوز فرشاة وإزميل الكشف عن الجمال، تُسنده أصالة الرأي، والدفع بالحجة كي ينسف بها كل الأبنية المشوهة المبنية على الرمال المتحركة، إثمُه أنه يعمل على تهديم الجدران الكئيبة، ذنبه أنه بإبداعه يبعث بالجديد.. بالمتحرك.. بالتغيّر.. يجاري سَنَة الحياة في تجدّدها، وحيويتها، يشاركها الإبداع، يتماهى معها، يتفرد عن غيره في إبداعاته، وهم العاجزون..

يوم أطلق الجاحظ كلمته الماثورة منذ قرون، ما أطلقها عفوياً إنما بعد تروٍّ وتجربة ميدانية، وخبرة حياتية معيشة :

«...المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها الأعجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتحرير اللفظ وسهولته وسهولة

المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة وضربٌ من التصوير.»

وذلك إثر استماعه إلى كلام منظوم فيه عظة، وحكمة أعجبت بعض العلماء يومئذ، وأعجبت الجاحظ عينه من ناحية ما اشتمل عليه هذا الكلام من ثراء المعاني، وتنوعها. إلا أنه لم يجعل صاحب هذا الكلام المنظوم شاعرا، لأن الإجادة كانت إلا في المعنى وحده.. والمعاني مطروحة في الطريق أمام كل الناس.. وما أكثرها!

الإبداع نتاج عبقرية

إن المعاني إذا كانت مطروحة في الطريق لا محالة، فإن الذي يلتقطها بلطف ويقدمها لغيره ثمرة ناضجة، نضرة، طيبة الطعم، لذيدة المذاق هو الفنان الأصيل الموهوب. إن الأدب ليس معاني وأفكارا فقط، وليس صورا وتراكيب وحسب، وإنما هو نتاج لعبقرية كامنة في نفس صاحبها، تبدو في تأليف المعاني الممتازة، والعبارة الجيدة، والاهتداء إلى أفكار غير معروفة، وغير متداولة. ومن يقدر على هذا غير الأديب الفذ المبدع الصادق في إبداعه .

غير أن معاناة المبدع الحق وهو يقدم عصارة أفكاره للغير ليست بالأمر الهين، أو بالشيء السهل، خصوصا إن كان المبدع، وكيفما كان إبداعه يحيا بين ظهرائي قوم تسود فيهم الأمية بأوسع بشاعتها، وآخر ما يفكرون فيه: المعرفة والثقافة.. إن معاناة الفنان المبدع وليكن رساما، أو نحاتا.. موسيقيا.. شاعرا.. مسرحيا.. روائيا..

فالأمر سيان.. إن معاناة الفنان في هذه الحالة قد لا تتأتى في كثير من الأحيان نتيجة صعوبة عملية الإبداع فقط، ولكن تكمن المعاناة في المحيط الاجتماعي، والسياسي، وتأثيرها في الفرد المتلقي.

إن الكثير منا يغفل، أو ينسى وهو في غمرة نشوته بقراءة عمل أدبي ما أو التمتع بعمل إبداعي ما، أن كان وراء هذه النشوة، وذلكم التمتع، تقف شخصيةً أدبيةً، ونفسٌ تبعد قد تكون سعيدة، وقد تكون تحترق ألماً، وتتضور جوعاً، وتتمزق عذاباً في سبيل هذا العمل الفني الجميل الذي نسعد به وتتلذذ بتلقيه.

مَجْدُ الإِبْدَاعِ عَصِيٌّ

ولئن كان الطريق إلى المجد محفوفاً بالأشواك، وتعرّضه الأهوال والمخاطر، فإن المجد نفسه إلا جحيماً يضع المبدع في أتون هذا الجحيم . ومن أصدق الذين عبروا عن هذا النوع من المبدعين الفنان الأديب الراحل جبران خليل جبران بقوله :

«لم أدر ما يحسبه الناس مجداً- واحرّ قلباه- جحيماً.. من يبيني فكراً جميلاً بقنطار من الذهب؟ من يأخذ قبضة من جواهر لبرهة من حبّ؟ من يعطيني عينا ترى الجمال، ويأخذ خزانتي ؟ .»
ولعل أحد الفلاسفة الألمان يلتقي مع جبران في ذلك لما يقول:
«الحياة قصصٌ، أجملها ما يكتب بالدماء».

لكن هل يعرف الناس درجة هذه المعاناة، وقيمة الدموع المناسبة.. سيّما في مجتمعنا العربي، وبطبيعة الحال فالجواب بالنفي. ومن

هنا فالمبدع في هذه البلاد على امتداد رقعتها الشاسعة كثيرا ما يقضي نخبه ضحية الجوع البيولوجي، أو يختفي رويدا تحت شراسة معول الفاقة، والاحتياج مودعا الدنيا غير مأسوف عليه، والقليل من هؤلاء المبدعين قد يُرفع شأنهم، وتمدح مآثرهم، وتُحي ذكراهم فيما بعد، أو يُكرّمون بعد رحيلهم عن هذه الدنيا كما هو الحال في بلادنا. والشواهد في ذلك كثيرة....

وقد تطرق إلى هذه المأساة قبل عشرات السنين الفيلسوف الفرنسي الشهير " فولتير " حينما صرخ بحرقه، وألم يستنهض ضمائر المجتمعات حتى تلتفت لعباقرتها، ومفكرتها، وتقدر قيمتهم في حياتهم قبل مماتهم :

« كلمة واحدة رقيقة أسمعها، وأنا حيٌّ، خيرٌ عندي من صفحة كاملة في جريدة كبرى، حينما أكون قد متُّ، ودُفنت .»

هذا من الجانب التقديري والمعنوي، أما إذا تعدى الأمر إلى الجانب المادي، فالمأساة تكون أشدَّ وقعا على نفسية المبدع. وتبعا لذلك فقضية موارد رزق الأدباء، والفنانين، والمفكرين مطروحة اليوم مثلما كانت مطروحة في الماضي البعيد، أو القريب، وتأكيدا هي باقية في البلدان المتخلفة التي تضع المعرفة، وأهلها في آخر اهتماماتها.

الإبداع الأدبي بخاصة.. لا يضمن أدنى القوت!!

إن عدد المفكرين، والمبدعين الذين يعيشون من مردود التأليف الأدبي، والفكري، والموسيقي في العالم المتقدم ليس بالكثير،

وحتى هؤلاء إبداعاتهم لا تحتضنها دور النشر الكبرى إلا إذا تيقنت أنها ستندّر عليها أرباحا طائلة. وفي كل الحالات فإن المبدع، أو الكاتب ما يتقاضاه قليلٌ بالمقارنة مع ما يبقى لدور النشر. وفي البلاد العربية، الكتابة لا تُطعم خبزا، ولا تسدُّ رمق متعاطيها من الكتاب، والمبدعين العرب المعروفين، والمجهولين، ومن يرتزق من مردود قلمه إلا القليل، وغالبا ما تكون لهم دورٌ نشر خاصة بهم كالشاعر الراحل نزار قباني، والشاعرة الكويتية سعاد الصباح، والكاتب الموسوعة عندنا الدكتور أحمد بن نعمان صاحب دار الأمة للنشر، وهذا على سبيل المثال فقط.

وحتى المبدعون العرب الكبار في كل البلاد العربية، والمعروفون بمكانتهم، وتأثيرهم في الفكر العربي المعاصر، والذين رحلوا عن دنيانا كانوا موظفين، أو من رجال التربية، والتعليم، ومن هم أحياء اليوم إما موظفون أو دبلوماسيون، أو متقاعدون يرتزقون من هذه الوظيفة، أو من ذاك العمل؛ ومن يعتقد أنه بقلمه يمكن أن يحيا الحياة الكريمة، بل العادية فقط أخطأ الاعتقاد.

في بلادنا العربية إن كان المبدع يدرك جيدا أن الكتابة لا تطعمه خبزا وفي آن واحد يصبر.. قد لا ينتحر احتجاجا على جوع البطن؛ فإنه قد ينتحر على حرية مصادرة الفكر، وحرية التعبير. وليس بالضرورة أن يكون الانتحار إنهاءً للحياة الفردية للمبدع، وإنما قد

يكون الصمتُ الأبدى والإعراضُ عن القلم، أو الهجرة إلى فضاءات أخرى أكثرَ حرية، وأفضل اعتباراً، وأحسن تنفساً.

المبدع.. ليس بطناً يُحشى فحسب !!

إذا كان البعض من أهل الفكر لا يرى الخطر في الجوع البيولوجي - جوع البطن - لأن الكاتب المفكر...الفنان قد يحيا بالقليل، والبسيط من الغذاء، فإن هناك جوعاً آخر أشرس، وأفتك به إن تعرّض له.. إنه الجوع إلى حرية التفكير، وحرية التعبير..جوعه الدائم لتحقيق رؤاه على أرض الواقع.. جوعه المستمر لزرع الكلمة الهادفة.. حلمه الأبدى في عالم جميل ينعم فيه الجميع بالأمن، والأمان، والكلمة إن كانت صادقة، كانت أحدّ من السيف..وأمضى من السهام الحادة.. والرأي عندنا أن كلا الجوعين خطرٌ على المبدع ويقضيان عليه نهائياً.

إن ظاهرة الفاقة أدركت الكثير من أهل الأدب منذ الأزمنة الغابرة ولا تزال. وهي في الحقيقة ليست لعنة انصبّت على رؤوسهم طالما أنهم احترفوا الأدب، أو احترفهم هو.. واتخذوا القلم أداة لنشر أفكارهم ورؤاهم في الناس.. وعلى الناس. وبنظرة أعمق، إن هناك عوامل محيطية وموضوعية وأخرى ذاتية ترتبط بظاهرة الاحتياج المادي. إن الإنسان كيفما كان، وأينما تواجد.. يحيا الثنائية الملازمة له: البؤس والنعيم.. الرضا والسخط.. الرحمة والقسوة.. الإنسانية والوحشية.. الظلم والعدل.. النفس السمحة.. الطبع الجاف الغليظ

... هذا الإنسان ذو الثنائية في كل شيء.. مجالاً رحباً بدون حدود
لقلم الأديب، وريشة الفنان يستمد منه فنه.. نثره وشعره. ولكن
أبمقدور الفنان.. المبدع كشف خبايا هذا الإنسان المتناقض إذا لم
تُوفّر له الشروط الضرورية المساعدة: عيش كريم.. حرية.. اعتبار
اجتماعي ومعنوي؟ والحرية في مدلولها الشامل هي التحرر من كل ما
يفرضه الغير بدون حق. فالمبدع وجوده مرهون بتوفر الحرية.. وبطبيعة
الحال ليست الحرية المطلقة.. الحرية التي تسيء إلى الآخرين؛ بل الحرية
التي تقف حيث تبدأ حرية الغير. فالإشباع البيولوجي، والإشباع
الكيנוني - إن صححت العبارة - للمبدع كلاهما يُكمل الآخر.

الامتثال.. السّوط الأبدي في وجه المبدع

لكن أهذا يمكن تحقيقه في عصرنا الحاضر؟ لا أحسب أنه ممكن
التحقيق لا ماضياً، ولا حاضراً، ولا مستقبلاً؛ ذلكم أن فكرة "
التمثال " التي أشار إليها عالم الاجتماع الفرنسي ريمون آرون، أقلّ ما
يطالب به المبدع في كل الحقب الزمنية، وكيفما كانت النظم المجتمعية..
الإشكالية أنّ من بيدهم القوة وموازينها لا يقنعون بسيرورة " التمثال "
إذ هم لا يطالبون بذلك بل يفرضون مبدأ " الامتثال " ومن هنا
بدأت، ولا تزال محنة الكاتب، المفكر، المبدع..

الامتثال مفهومه الذوبان في الآخر، معناه انحاء الذاتية المبدعة،
معناه سحق نزعة الحرية، معناه إرغام المبدع على أن يكتفي بما يحفظ
له أنفاسه ككائن بيولوجي، وحسب..

وصية كتاب بعدم نشر أعمالهم بعد رحيلهم

الشيخ المرحوم العلامة محمد الطاهر تليلي، أصرّ على ألا تُطبع أعماله، أو تُنشر وهو حيٌّ.. بالرغم من ذلك تمكّن المرحوم الدكتور بلقاسم سعد الله المرافق له كلما حلّ بمدينة قمار، من طبع كتاب له: (مسائل قرآنية)، وهو حيٌّ وطبع له بعد مماته كتباً أخرى منها ديوانه الشعري: "الدموع السوداء"، "الثابت والمحذوف في القرآن الكريم"، "إتحاف القاري بحياة خليفة بن حسن القماري". تكفّلت شخصياً بكتابة مخطوطه "حياتي" على الحاسوب، ونسّقته، وأعدّته للطبع لتنشره دار الثقافة بالوادي سنة 2017م مشكوراً مديرتها الأستاذ جمال الدين عبادي.. أقيمت احتفائية كبيرة بالدار، ووُزعت نُسخ الكتاب على الحضور مجّاناً في الاحتفائية، وبعدها، ولم تُبع ولا نسخة واحدة.

في سنة 2019م تكفّلت أيضاً بكتابة مخطوطه "المقتطفات المنظومة من مؤلفاتي المعلومة" مقتطفاتٍ شعرية، نسّقته، وأعدّته للطبع، حيث تكفّل الدكتور محمد جبا الله طبيب العيون بالوادي، وصديق المرحوم بالجانب المادي، طبع الكُتيب سنة 2019م، واحتُفي به في فرع المكتبة الرئيسية للمطالعة بقمار، ووُزعت نسخه في ذاك التاريخ لكل الحاضرين، وما بعد ذاك التاريخ، ولم تُبع نسخة واحدة..

وما عدا هذا فصور مخطوطاته الأخرى عند هذا الطرف، أو ذاك،
تأكيداً ستضيع بمرور السنوات.

مؤلفات تنوّعت.. وتعدّدت

حسب ما أتذكّره أُنِي في إحدى زيارتي له في إحدى سنوات
الثمانينات، وضع أمامي مخطوطاته للاطلاع عليها أمامه دون أن
أخذها معي، فكان عددها إن لم تخني الذاكرة 21 مخطوطاً في اللغة،
والأدب، والتاريخ، والدراسات القرآنية، على سبيل الحصر بعض
العناوين:

- 1 . منظومات في مسائل قرآنية" . 2 . مجموعة تشتمل على مسائل في
رسم القرآن وضبطه. 3 . قواعد وكلمات في الثَّابِت والمُحذوف في
القرآن الكريم. 4 . رسائل في رسم الألف في القرآن كما في
المصحف. 5 . التعلّيقات البيانيّة على منظومات مسائل قرآنية. 6 .
قواعد البيان في الثَّابِت والمُحذوف في القرآن على رواية ورش رحمه
الله. 7 . منظومات تربوية للمدارس الابتدائية. 8 . سلّم الوصول إلى
ورقات الأصول. 9 . نظم متن الاستعارات للسَّمرقندي. 10 . ديوان
الدُّمُوع السُّوداء. 11 . شواهد الكلمات العامية من اللُّغة العربيّة
الفصحى. 12 . بدائع الجنان واللِّسان في غريب الألفاظ ومسائل
القرآن. 13 . زهرات لغويّة من الألفاظ الكتابيّة لعبد الرِّحمان
الهمداني. 14 . إتحاف القاري بحياة خليفة بن حسن القماري.
..وصيّة احترامها ورثتهُ

أغلب مخطوطاته أوصى أن تُهدى إلى جامعة العلوم الإسلامية بقسنطينة بعد رحيله في نُسخها الأصلية، تكفّلت هذه الجامعة بعد رحيله بنقلها ذات صيف حارّ، ورياح الشهيلي الجنوبية في أوجها، وكانت الشاحنة التي تنقل المخطوطات غير مغطّاة، في منطقة الحمراية بين الوادي وبسكرة؛ فأطارت الرياح العديد من صفحات المخطوطات، وما كلّف السائق ورفيقه نفسيهما البحث عنها، مضيا وكأنّ الأمر عاديّ. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية لا نشكّ في أنّها اعتنت بهذه المخطوطات المنوّعة فكراً، تاريخاً، أدبا، فقها، مثل غيرها من مخطوطات أخرى لعلماء الجزائر.. لكن هل طبعت بعضها؟ لا أحسب ذلك، ولا أحسب أنّها استطعتها.

شَحّ المال.. فحسِر المُتلقّي

بالمقابل أعرف عديد الكتاب المبدعين، والكاتبات المبدعات لهم عديد المؤلّفات الجاهزة للطبع، سعوا وسعين طبعها بالتقرّب من الهيئات الثقافية، والجمعيات لمساعدتهم، فلم تُلبّ طلباتهم لأنّ تلك الهيئات والجمعيات انعدمت لديها الموارد المالية، خاصّة أن الإدارات المحلية، والمجالس المنتخبة تُفضّل مساعدة الجمعيات الرياضية الشبّانية كي تجنّبها لصالحها في الاستحقاقات الانتخابية، أمّا هيئات الثقافة الرسمية من مديريات الثقافة، ودُور الثقافة، والمكاتب الرئيسية للمطالعة العمومية، فقد تقلّصت ميزانياتها السنوية سيّما أبواب التنشيط الثقافي، ودعم الكُتّاب، والمبدعين منذ أن حلّ الكاتب،

الشاعر، الروائي عز الدين ميهوبي، فكان يبابًا على الثقافة والمثقفين، والمبدعين. أولئك الكُتَّاب، والمبدعون من الجنسين أغلبهم؛ بل جلهم من الطبقة المتوسطة كموظفين، أساتذة مداخلهم لا تمكّنهم من الطبع؛ وأساتذة الجامعات رغم مرتبتهم الأحسن ممن سبقهم يلجؤون إلى ديوان المطبوعات الجامعية كي يطبع لهم دون دفع دينار واحد؛ بل تُباع كتبهم إلى الطلبة، ومن هؤلاء الأساتذة الجامعيين من يتكفل شخصيا بطبع كتبه التي عادة ما تكون في تخصّص الأستاذ، ويضع كتبه هذه التي طبعها لدى مكاتب هنا وهناك في المدينة، والبلدات المجاورة، ويلزم طلبته بشرائها لأنّ مضامينها لها علاقة بتخصصاتهم الدراسية.

حساسية حيال النقد

أعرف عديدي الكُتَّاب، والمبدعين في الأدب كما الفنّانين التشكيليين ممن ألقوا، وأبدعوا في تخصصاتهم، ونشرت لهم المنابر الثقافية كالمجلات الثقافية، والملاحق الأسبوعية، والصفحات الثقافية للصحف اليومية السيّارة، وكسبوا مصداقية كبيرة، وقُراء كثيرين، واحترامًا، وتقديرًا لما ينشرون، إنّما بمجرد أن طبعوا أول عمل لهم، ونُشر في السوق، وتلقّفه القراء كما أيّ مؤلّفٍ يُطبع، ويُنشر، فيُصبح من حقّ القراء إعطاء رأيهم بالقبول، والرّضاء، بالاستحسان؛ كما النقد الأكاديمي من لدن المتخصّصين.

هؤلاء الكُتّاب، والمبدعون لا يتصوّرون، ولا يخطر ببالهم أن يكون عملهم موضع نقدٍ، أو عدم قبولٍ كاملٍ من القراء، عوض أن يتقبلوا، ويسعون إلى تصويب كتاباتهم، والحرص المستمرّ على تجاوز ذواتهم بالإبداع أفضل؛ إّما ينتكسون، ويصابون بالخيبة من جمهور كانوا ينتظرون منه المديح، فيقرّرون التوقّف النهائي عن الكتابة، والإبداع، فينكفئون على أنفسهم؛ خاصّة إن طبعوا على حسابهم الخاصّ؛ والعرض الآخر يرى أنّ القراء، والتّقاد أقلّ من مستواه، وأعماله الفكرية والإبداعية لأجيالٍ أخرى قادمة غير الجيل الحالي، فيستمرّ في التّأليف، والإبداع دون الطّبع، مُوهماً نفسه أنّ تلك الأجيال المستقبلية وحدها من تبحت عن مساره، وأعماله، فتنبّح بحثًا عن دُرره الثمينة.

الرأي الأصوب..

هل يليق أخلاقيا أن نتجاهل رغبة كاتب، وننشر بعد رحيله مخطوطات أوصى بعدم طبعها، ونشرها، لكونه غير راض عنها، أو لا ترقى في رأيه إلى مستوى يؤهلها كي تكون بين أيدي غيره؟ أم ماذا؟ أم نطبعها، وننشرها، ونفيد الباحثين، والطلبة وكلّ المتشوقين للمعرفة بها.. وتكون مُتاحًا للأجيال القادمة باعتبارها من الكنوز الثقافية، وتدخل مستقبلاً ضمن التراث الثقافي الوطني والعالمي.

العطر رفيق الإنسان.. شذى الأزل

تعرّف الإنسان على العطر من نواتج احتراق المُركّبات العضويّة لبعض النباتات، ذات الروائح الطيبة، والعطرة التي استعمالها الإنسان في العديد من الطقوس منذ القدم، ولا يزال يفعل ذلك حتى الوقت الحاضر، لا سيّما في المعابد التي تشير كُتُبُ التاريخ، إلى أنه حُرق فيها منذ العام 2000م قبل الميلاد، أطناناً من البخور، التي عرفها الصينيون، والهندوس، وقدماء المصريين، والعرب، واليونان، والرومان، مبكراً. وللعطر العديد من المرادفات، منها: العبير، الأريج، الشذا؛ وبعضه طبيعي يُستخرج من النباتات، والأزاهير والفواكه، والآخر من إفرازات بعض الحيوانات، إضافة إلى العطور الصنعيّة.

من قديم.. العطور زينة الإنسان

عرف الإنسان العطور منذ فجر التاريخ، واستعملت الأخشاب العطرية، والتوابل في صناعة البخور للمحافل الدينية في مصر، وبابل، وفارس، والصين، والهند، وقد وجد الأثريون قوارير بها عطور في قبر الملك توت عنخ أمون، بقيت محتفظة برائحتها منذ آلاف السنين، وشاعت العطور بإسراف وبذخ عند الإغريق والرومان؛ أما العرب فقد كشفوا أسرار هاته الصناعة وطرق تحضيرها، واخترعوا

جهاز الأنبيق، وانتشرت في المشرق كله حتى عرفت عند سكان أوروبا بالروائح الشرقية، وفي القرن الثاني عشر حمل العائدون من الحرب الصليبية عطور الشرق من فلسطين إلى أوروبا، وسرعان ما انتشرت في كل القارة، واحتلت العطور المكانة الرفيعة.

يغازل العطرُ حاسةَ الشمِّ، كما أنه بات لصيقاً بالحياة اليومية للإنسان، فهو موجود في البيوت، وأمكنة العمل، وفي حقيبة اليد، والسيارة، ويستعمله الإنسان أكثر من مرة في اليوم الواحد، ويزيد منه في مناسبات معينة.

الطِّيبُ والمسكُ رفيقا الإنسان العربي

الطِّيبُ معروف عند العربي قبل الإسلام وبعده، ومشموه عند العرب على أنواع، فمنه المسك والعنبر والكافور والعود والندِّ، ولشدة اهتمام العرب به، أفردوا لكلِّ نوع أسماءً بعينها، فقالوا عن المسك: الأناب والصَّوار "القطعة منه"، والفأرة والنافجة "ما فيه"، واللَّطيمة والفِتاق والشَّدو، وسَمَّوا لون المسك الدكنة، لأنه يضرب إلى الغُبرة، والأصهب لأنه يضرب إلى الحُمرة. وأطلقوا على العود: القُطر، والمندليّ، والشَّداء، والألوة، والألنوج واليلنجوج، والكِباء، والمجمَر، والبخور، والغار، والهضمة، والوقص.

في القرآن الكريم، ورد ذكر المسك في وصف أهل الجنة، يقول عز وجل يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتَمٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿المطففين: 25-26﴾، فقد خُتِمَ الشَّرَابُ برائحة

المسك. وفي السنة النبوية وردت أحاديث كثيرة ارتبطت معانيها بالطيب، والرائحة الطيبة الزكية، ولا سيما المسك فضلاً وتفضيلاً، فاستحق أن يكون سيد أنواع الطيب كافة، فالمسك أطيب الطيب كما وصفه عليه الصلاة والسلام، وخُوف فم الصائم أطيب من المسك .

ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم السائرين على نهج الكتاب والسنة، بما أعد الله لهم في الجنة من نعيم دائم غير زائل، لا يبلى ولا يفنى، فملاط الجنان مسك أذفر، وريح حوض النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، أطيب من المسك، ومجامر أهلها الألوة، ورشحهم مسك، فأبي نعيم أعد للمتقين وأي فضل حُصَّ به عباد الله المؤمنين!

للسل رسول صلى الله عليه وسلم تشبيه بليغ العبارة جميل الرصف، في مُصاحبة الأخيار، وتجنب مرافقة الأشرار، اختار فيه سيدنا وحبينا المصطفى ما يفوح من المسك، وما ينبعث من الكير، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَّادِ، لَا يَعْذَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ تُؤَبِّكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً»، فصاحب المسك إن لم نبتع منه، فإنه يعطينا روائح طيبة.

للعطر مكانة خاصة في حياة كل امرأة ورجل، به يرتبط أريج الذكريات ومنه تفوح روائح الأحلام والأمنيات، كما يرتبط بالأناقة، والظهور البهي أمام الآخر. كما بقي العطر قروناً رفيقاً دُرب الشاعر العربي، ومكوناً أصيلاً من مكونات القصيدة الجمالية. لم تتراجع يوماً

مكانة العطر، بوصفه مكوناً عميقاً من مكونات أكثر اللحظات الشعرية الأثيرة ارتباطاً بوجدان الشاعر والملتقي على السواء.
لا عطر بعد "عروس"

أول من قال هذا المثل امرأة من عذرة، يقال لها: أسماء بنت عبدالله، وكان لها زوج من بني عمها يقال له: "عروس"، فمات عنها، وتزوَّجها رجل من غير قومها يقال له: نوفل، وكان أعسر أبخر دميماً بخيلاً، فلما أراد أن يظعنَ بها، قالت له: لو أذنت لي فرثيتُ ابن عمي وبكيت عند رمسه، فقال: افعلي، فقالت: أبكيك يا عروس الأعراس، يا ثعلباً في أهله وأسداً عند الباس، مع أشياء لا يعلمها الناس، قال: وما تلك الأشياء؟ قالت: كان عن الهمة غير نعّاس، ويُعمل السيف صبيحات الباس، وقالت: يا عروس الأغر الأزهر، الطيب الخيم الكريم المخبر، مع أشياء لا تُذكر، قال: وما تلك الأشياء؟ قالت: كان عيوقاً للخنا والمنكر، طيب النكهة غير أبخر، أيسر غير أعسر، فعرف الزوج أنها تُعرض به، فلما رحل بها، قال: ضُمّي إليك عطرك، وقد نظر إلى قشوة "وعاء" عطرها مطروحة، فقالت: «لا عطر بعد عروس»، فذهبت مثلاً¹.

الطور لفة الوجد وشذا العاطفة

هذا الشاعر العربي عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص، عدّ التعطر من سمات جمال المرأة، فقال في صبيّة:

1 - علي محمد سلام. العطر والطيب في السنة والأدب والتاريخ/ موقع الألوكة الثقافية.

هيفاءً فيها إذا استقبلتها عَجَفٌ
عَجَزاءُ غامضةُ الكعبيْنِ معَطارُ
من الأوانسِ مثلُ الشمسِ لم يَرها
بساحةِ الدارِ لا بعلٍ ولا جارُ
يقول عنتره بن شدّاد واصفا دار عبلة:

قِفْ بِالِدِيارِ وَصِحْ إِلَى بَيْدِهَا
فَعَسَى الدِيَارُ تُجِيبُ مَنْ نَادَهَا
دارُ يَفُوحُ المِسْكُ مِنْ عَرِصَاتِهَا
وَالعُودُ وَالنَدُّ الذَّكِيُّ جَنَاهَا
يقول الأَعْشي:

إذا تقومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصُورَةً
وَالزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمَلُ

وعلى الدرب نفسه يسير ابن هانئ الأندلسي، حين يقول في

عطر محبوبته:

هلما نحبي الأجرع الفرد واللوى
وعوجاً على تلك الرسوم وعرجا
مواطئ هندی في ثرى متنفسٍ
تضوّع من أردانها وتأرجا

بينما اشتقّ ابن معتوق الأندلسي من كل ملمح من ملامح

محبوبته عطراً وكأنه يرش معطراً من هذا الخليط في جو اللقاء، يقول:

خفرت بسيف الغنج ذمّة مغفري
وفرت برُمح القَدِّ دِرْعَ تَصْبُرِي
وجلّت لنا من تحت مسكة خالها
كافور فجرٍ شقَّ ليلَ العنبرِ

أبو نواس، أيضاً، يرسم صورة فواحة العطر لهذه الفاتنة، منج

فيها بين اللون والرائحة حين يقول:

يا قَمَراً أَبْرَزَهُ مَآتَمٌ
يَنْدُبُ شَجَواً بَيْنَ أَتْرابِ
يَيْكِي فَيَذْرِي الدُرَّ مِنْ نَرَجِسِ
وَيَلْطُمُ الوَرْدَ بُعْتَابِ

كما احتلّت رائحة الخزامى مرتبة عالية في أشعار العرب، حتى

جاورت رائحة المسك، فعطروا بها أصفى اللحظات الشعرية
والإنسانية التي سطروها شعراً. فهذا عبيد بن الأبرص يقول:

وَمَلَنَ إِلَيْنَا بِالسَّوَالِفِ وَالْحُلَى
وَبِالْقَوْلِ فِيمَا يَشْتَهِي المَرِحُ الحَالِي
كَأَنَّ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيحِ لَطِيمَةٍ
مِنَ المِسْكِ لَا تُسْطَاعُ بِالتَّمَنِ الغَالِي
وَرِيحِ حُزَامَى فِي مَدَانِبِ رَوْضَةٍ
جَلَا دِمْنَهَا سَارٍ مِنَ المُنْزَنِ هَطَّالِ

وهذا نزار قباني من قصيدته المٌطولة «الوضوء بماء العشق

والياسمين»:

جئتكم ..

من تاريخ الوردِ الدمشقيّة

التي تختصرُ تاريخَ العطر ..

ومن ذاكرة المُتنبّي

التي تختصرُ تاريخَ الشّعْر ..

جئتكم ..

والأضاليا ..

والنرجسِ الطريفُ

التي علّمتني أولَ الرسمِ

جئتكم ..

من ضحكة النساءِ الشامياتِ

التي علّمتني أولَ الموسيقى ...

الربيع عريس العطر

صوّر أحدُ الأدباء الربيع عطارًا فقال:

«إلى أبعد حدود النفتن، وعلى الرغم مما يقضيه من وقت في النقش

ففي الربيع تكتسي الطبيعة بأزهى الألوان، وتشدو الطيور بأعذب

الألحان، وتشدو الرياض بأعطرِ الريحان، ومن عجب أن الربيع لا

يكتفي أن يكون مصورًا بارعًا يملأ الأرض بلوحاته ونقوشه، إنه إلى

جانب هذا كله عطار ماهر متفّن في صناعة العطور لتصوير وفي تأليف النغمات الساحرة، أمكنه أن يجد من الزمان نسخة يبتكر فيها ضرباً من العطور وألواناً يملأ الهواء بأريجها، ويهاجم بها أنوفنا.. رغم أنوفنا، وقد وزع هذه العطور توزيعاً عادلاً بين البراعم والأزهار والأوراق، فلكل زهرة أريجها، ولكل ريحانة شذاها، لا تعتدي واحدة على صاحبتها، ولا تغتصب منها عطرها، وليس يعلم إلا الله خالق الربيع كيف تسقى لهذا العطار أن يبتكر هذا العدد الهائل من العطور، ويخص كل زهرة بعطرها، لا يخطئ ولا ينسى فيعطي الياسمين رائحة الورد، أو يخلط رائحة الآس برائحة القرنفل¹.

يُحكى أن محمد بن طفج من أولاد ملوك فرغانة، وكان كل ملوكها يلقب ب(الإخشيد) وقد حكم مصر والشام (935م - 946م)، وُصفَ بالثراء، وسعة العيش حتى إن "خزانة طيبه حُمِلت في إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملاً، وأنه كان له بدمشق قبة مُشبكة يتطيب فيها فتصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة، ويُذكر أن الملك سعود بن عبد العزيز الأول، ملك السعودية كان يملك مجموعة من خمسمائة نوع من العطر والطيب. كما يُروى أن نابليون بونابرت كان يستهلك ستين لترًا من ماء الكولونيا في الشهر، وكان يُعطر مناديله برائحة الياسمين.

1 - محمد علي سلام. مرجع سابق.

منذ بداية القرن التاسع عشر خُطتُ صناعة العطور خطوات عظيمة في طريق الإنتاج، فأنتجت زيوتٌ جديدةً، وتطور فنُّ الخلط والتقطير، وأدت أبحاث الكيمياء العضوية إلى تخليق آلاف الأنواع من العطور. ونذكرُ بأن سحر الشرق كَمَنَ منذ الأزل في الأعشاب الطبية والعطرية والتوابل، وكان دائماً مصدر جذبٍ لعلماء الغرب، والمغامرين الذين يفدون إليه رغم مشقة البُعد وأهوال الطريق براً وبحراً.

صناعة العطور عالمٌ آخرُ بذاته

يُستخرج زيتُ العطور من أزهار، وأوراق، وثمار بعض النباتات، كالورد، والياسمين، والقرنفل، والفلّ، والبنفسج، والكافور، والنعناع، والليمون، والبرتقال، والنانج، والصنوبر وغيره، وذلك عن طريق التقطير، والاستخلاص، والهرس، والعصر، وعن طريق الغليان أو بالجرف البخار. وطريقة الغليان هي الأقدم والأسهل ولا تزال تستعمل حالياً. وتنتج عن عملية التقطير زيوت ذات نقاوة عالية ورائحة زكية، إذا ما أُحسن استخراجها. وهناك عطور تستخرج من بعض الحيوانات مثل العنبر، الذي هو مادة شمعيةٌ تُصادف طافية في شواطئ البحار الاستوائية على سطح الماء، وهي رمادية اللون مائلة إلى الصفرة، تحوي عروقاً تشبه الرخام، وتتكون في أمعاء حوت العنبر.

أما المسك ذو الرائحة النفاذة، فيُحصل عليه من دُكر أيل المسك الذي يعيش في المرتفعات الممتدة بين سيبيريا وجبال الهمالايا. وتدوم رائحة المسك فترة طويلة، لذلك يُستعمل مُثبِتًا لروائح العطور الطيبة، ويكون المسك الطازج سائلاً كثيفاً يجفّ متحولاً إلى مسحوق حُببي يُذاب في الكحول؛ ثم يستعمل في تحضير العطور. أما الزيوت العطرية الاصطناعية فيُحصل عليها من تراكيب كيميائية تُعطي الرائحة المطلوبة الشبيهة بالروائح الطبيعية.

العطور الراقية تُفري الجزائريين

يُقبل الإنسان الجزائري بجنسيه على اقتناء أرقى أنواع العطور من الماركات العالمية المنتشرة في السوق، حيث أضحى البعض يراها اكسسوارا لا يمكن "الخروج" دونه من البيت، بعدما باتت تلك العطور ذات الروائح الطيبة تُثير إعجاب الفرد، لدرجة تخصيص ميزانية لها لاقتنائها مهما بلغ سعرها. ماركات أصبح المواطن الجزائري يعرفها، بل ويعشقها، فمنها تلك التي تعتمد على التوابل، وأخرى على الورود والأزهار، وأخرى على الفاكهة، وأحدثها على "العود". وهي الماركات التي خلقت معجبين لها، فلكل تفضيله الذي يعكس اختياره، ذوقه وشخصيته. في تحقيق صحفيّ قامت به صحيفة المساء الجزائرية إلى بعض المحلات المختصة في بيع العطور بالجزائر العاصمة بغية معرفة مكانة العطور لدى المواطن الجزائري، بائع محلّ كبيرٍ تخصّص منذ سنوات في بيع مختلف أنواع العطور، وموادّ التجميل قال:

«إنّ الجزائر باتت تواكب العالم وأوروبا، خاصة في مجال العطور، حيث أن المستوردين على اطلاع دائم بالجديد في تلك الأسواق، ممّا يجعلهم يقتنون أحدث العلامات، وآخر ما أنتجته تلك الماركات، فمن المعروف أن أشهرها يعتمد منذ الأزل على تشكيلة مختلفة، أي بمعنى أن له مجموعة من العطور كل واحدة خاصة بحقبة معينة، للترويج المستمر لمنتجاتها، هي السياسة التي تعتمدها أكبر العلامات التجارية لمختلف السلع في العالم سواء الساعات، الملابس، المجوهرات، السيارات أو غيرها. فحتى العطور لها "موضة" ولها معجبون ينتظرون بفارغ الصبر آخر ما أنتجته تلك العلامات.»

بينما قال صاحب ثاني محلّ مختص هو الآخر في بيع "العطور الأصلية:

«أن ثقافة اقتناء عطر أصلي في تزايد مرتفع، حيث يصعب على من اعتاد اقتناء عطر "جميل" أصلي العودة إلى استعمال عطور مقلدة، أو ذات نوعية غير جيدة، هذا ما جعل هذه السوق تتحكم في الزبائن بشكل مثير للدهشة. ولعل طيبة تلك العطور هي ما يشدّ الزبون لاقتنائها رغم ارتفاع أسعارها.»

أكّد صاحب محلّ آخر: «أن الجزائر تستورد مما يزيد عن 15 دولة في مقدمتها فرنسا، ألمانيا وإسبانيا، إلى جانب المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات المتحدة، وتتصدر فرنسا قائمة الدول التي تستورد منها الجزائر العطور، من عطور غير كحولية وأخرى كحولية،

وكذا الماء المعطر غير الكحولي، وماء معطر كحولي، وأوضح المتحدث أن سوق العطور تدخل في منافسة شديدة، البعض يبقى في الروائح التقليدية والآخر في عطور عصرية، في حين يبقى البعض الآخر يمزج بين التقليد، الأصالة والتطورات الجديدة في هذا المجال، مثلما نلاحظه بالنسبة لـ«العود» التقليدي الذي أطلقته مختلف الماركات كعطر جديد في مجموعتها، ومن أشهر الدول المصدرة للعطور؛ فرنسا.»

كما أكد مجموعة من المواطنين الذين مسَّهم الاستطلاع، أن العطور "الفخمة" بماركات عالمية أصبحت تروج لها تلك المحلات الخاصة التي فتحت فروعها في الجزائر، تحت تسميات عديدة، تباع مختلف العلامات في محل واحد. ولعل تلك المساحات التجارية أصبحت تشهد زبائن أوفياء يستفيدون من حسم عند حصولهم على بطاقة "الزبون الوفي". وأشار هؤلاء إلى أن اختيار العطر يختلف باختلاف شخصية وذوق الفرد. فهناك من يحب العطور القوية وآخر العطر المستخلص من الأزهار، ليبقى عشق "العود" آخر ما يجبه الرجل الراقى، لتميزه بالرائحة القوية والفريدة التي تطبع شخصية الفرد القيادي الواثق من نفسه.

أدب السيرة الذاتية

عرض جبور عبدالنور قبل أكثر من ثلاثة عقود في معجمه الأدبي تعريفاً للسيرة الذاتية: «كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجاً عن المذكرات أو اليوميات»¹. هناك من يقول: «التراجم الذاتية أو الشخصية: هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وماجري له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته». ومن يقول: «هو نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي». في ندوة فكرية نظّمت في معرض الكتاب الدولي خلال نوفمبر 2017م، موضوع الندوة: "أدب السيرة الذاتية"، وكان من المدعوين الروائي الجزائري واسيني الأعرج الذي أجاب عن عدد من التساؤلات، منها: هل السيرة الذاتية نسيجٌ لغوي طبع يشبه الرواية؟ أم أنه واقعٌ سرديٌّ أراد له الكاتب أن يصير نصّاً متدفّقاً من الصور المترابطة معاً لتشكّل مسيرة حياة مليئة بالتفاصيل؟

كانت إجاباته:

«السيرة الذاتية للأديب هي نوع إشكاليّ، لأنه لا قارئ محدد له، ولا شواهد عليه، واصفاً إياه بالفضفاض، بقوله: "هذا النوع من الأجناس

¹ - جبور عبدالنور، المعجم الأدبي. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين 1979م

الأدبية لديه خصائص مشتركة بين جميع الكتابات الأخرى، ويمكن لأي كاتب أن يكتب السيرة لكن ليس من السهل أن نطلق عليه لقب أديب، وهنا تكمن نقطة الحسم». وأضاف:

«السيرة الذاتية هي ترميم لثقوب الذاكرة، وأهم ما يكمن فيها هو اعتراف الكاتب منذ البداية بأنه يكتب سيرته الذاتية بدون اختباء أو خوف، لكن الأهم هو الصدق، وأن يسرد الكاتب ما حدث في حياته وكأنه أمام مرآة، وأسوأ ما في السيرة أنك تشعر وأنت تبدأ في كتابتها وكأنك تقف أمام الموت الذي تتلمس خطواته بداخلك وهي تقترب، لكنك تقوم بهذا الفعل الأدي كونك لا تريد أن يكتب آخرون سيرتك»¹.

ملاح السيرة الذاتية

اعتنى النقاد بذكر الفروق الموجودة بين السيرة الذاتية والأجناس الأدبية الأخرى القريبة منها: كالسيرة الغيرية، والتاريخ، والمذكرات، واليوميات، والرواية، وذهب معظمهم إلى إصدار آراء متفقه إلى حد ما بغية الوصول إلى ملامح فنية محددة لهذا الجنس الأدبي؛ فيرى النقاد والدارسون أن السيرة الذاتية تختلف عن السيرة الغيرية، لأن الأولى ذاتية يكون كاتبها غارقاً في "الأنا" بحيث ينقل نقلاً مباشراً من داخل الذات بالاعتماد على التذكر القوي لذكرياته، بينما يلجأ الكاتب في الثانية إلى النقل عن طريق الوثائق والمدونات،

1 - واسيني الأعرج. "نقوش" أدب السيرة الذاتية. صحيفة الغد الأردنية.

والمشاهدات، والملاحظات بغض النظر عن ذاته، ما يجعله موضوعيًا في كتابة السيرة وإنجازها.

كاتب السيرة الغيرية في كثير من الأحيان لا يمكنه أن يصف أحاسيس شخصيه وانفعالاتها ولكن كاتب السيرة الذاتية أكثر مقدرة على سبر أغوار ذاته وكشف ما يجول فيها، فهو يقف موقف الشاهد والقاضي، بينما يقف كاتب السيرة الذاتية الغيرية موقف الشاهد فحسب، نظرًا لاستقاء مادته من العالم المحيط به، وبهذا يمكن القول إن كاتب السيرة الذاتية يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج، أما كاتب السيرة الغيرية فإنه يقدم الشخصية من الخارج إلى الداخل. هذا وهناك تطابق بين السارد، والشخصية الرئيسية، والمبدع في السيرة الذاتية؛ ولكن السيرة الغيرية لا يمكن فيها أن يتطابق المبدع مع الشخصية الرئيسية. أما موقف السيرة بنوعيهما الذاتية والغيرية من التاريخ، فإنها في بعض الأحيان تقترب من التاريخ إلى درجة يعدها بعض الباحثين لونهاً من ألوان التاريخ ولا غرابة لأنها نشأت في حضانة التاريخ، ولكن السيرة الغيرية ألصق بالتاريخ لأن موادها مستمدة من الوثائق التاريخية بخلاف السيرة الذاتية التي تتجه إلى سبر أغوار الإنسان. فالسيرة الذاتية تبتعد عن التاريخ لأن الراوي يعتمد على الذاكرة لإيجاد الأحداث، وإن ظل عاجزًا عن استرجاع الذكريات يلجأ إلى الخيال الذي يعد تشويهاً للتاريخ وتزويراً له. أما المذكرات تختلف عن السيرة الذاتية لأن مادتها أوسع مدى منها إذ تركز المذكرات على

سرد الأحداث العامة، والتاريخية دون التعليق على الحياة الشخصية لكاتب المذكرات. واليوميات مع أنها «أكثر قرباً من السيرة الذاتية»، ولكنها تختلف عنها باعتبار أحداثها متقطعة غير مرتبة، وافتقارها إلى المنظور الحكائي في القص. وهناك مسافة زمنية بين لحظة الكتابة، ولحظة الحدث بين الجنسين، إذ المسافة الزمنية التي تفصل بين زمن الكتابة، وزمن التجربة تكون في السيرة الذاتية أوسع منها في اليوميات، كما أن الإحالة المرجعية في اليوميات تمتاز بالدقة نظراً لقرب لحظة التدوين من لحظة التجربة.

فأما الترجمة الذاتية لها القدرة أن تميل نحو الرواية وتتخذ قالب الروائي لتُوجد جنساً جديداً يسمى "برواية السيرة الذاتية" أو "السيرة الذاتية الروائية" وهذا الأمر جعل الرواية «أكثر الأشكال الفنية قرباً من السيرة الذاتية».

متى تكتب السيرة الذاتية

لا يري النقاد والدارسون لصاحب السيرة الذاتية أن يبدأ بكتابة سيرته في عمر محدد وسن معينة بل يقدمون الأمثلة للذين بدأوا في وقت مبكر، ومن هذا المنطلق يقول إحسان عباس:

«وليس لدى الكتاب من عمر محدود يقفون عنده لكتابة سيرهم، فإن نيتشة كتب سيرته وهو في الأربعين، وكتبها سلامة موسى حين بلغ الستين؛ وأحمد أمين حين تجاوز هذه السن أيضاً؛ ولكن لا ريب في أن الإسراع إلى كتابة الترجمة الذاتية، في سن مبكرة، يفوت على كاتبها

أموراً كثيرة، فقد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطور خطير في حياته، وقد يكتبها قبل أن تقف مبادئه في الحياة واضحة جلية لعينيه. وهناك خطر آخر: وهو أنه يحشد في سيرته تجارب كان من الممكن أن يفيد منها في بناء عدة قصص، وفي إيجاد عدة شخصيات، وفي نظم عدد من القصائد أو استغلالها في أي فن أدبي آخر؛ وهذا ما وقع فيه الدكتور طه حسين في "الأيام"، فإنه قد "جمّد" تجاربه دفعه واحده».

البارودي قدّم تجربة إحصائية للسير الذاتية في الأدب العربي المعاصر، ويرى أن «أكثر من 62 % من كتاب السيرة الذاتية العربية أصدرها مؤلفاتهم في بداية الشيخوخة أو في نهايتها و25 % من هؤلاء الكتاب صاغوا سيرهم الذاتية في أواسط العمر». فإن البارودي يعتقد بشكل غير مباشر أن كتابة السيرة في أواسط العمر، وفي السنّ المبكرة أمر محدود لأن معظم السير الذاتية التي كتبت في الأدب العربي الحديث إثارة للجدل هي تلك التي كتبت في أواسط العمر، ويذكر "الأيام" لطه حسين تأييداً لهذا القول.

هل يتحرّج الكاتب العربي من حكاية سيرته؟

لماذا ينفّر الكاتب الجزائري، والعربي عموماً من كتابة سيرته الذاتية، ومذكراته، فنادرًا ما يكتب كاتب عربي سيرته بصدق «الشرط الضروري لكتابة سيرة ذاتية حقيقية»، وبأمانة، وبحميمية واضحة، وخالصة للحياة، والفن، والأدب، فهل كتابة المذكرات، والسير الذاتية مرحلة مفصلية، وضرورية في حياة الكاتب، بحيث لا يجب أن

يتملص من كتابتها، وتأريخها، أم هي لا حدث، ولا تعدو أن تكون محطة مهملة، غير مهمة، وليس من ضرورة لكتابتها أو التأريخ لها فنيا وأديبياً؟.

وإذا كانت «السيرة» تعني فنّ ترجمة الحياة لشخص ما، و«السيرة الذاتية» بمعنى آخر، هي سيرة شخص يرويها بنفسه، فلماذا نجد أغلب كتابنا لا يرغبون في رواية سيرتهم، ويعزفون عنها، وأكثرهم يتخفى تحت جلد شخصيات رواياته وقصصه؟

الكاتب الجزائري يخجل من أن يروي سيرة حياته؟

لماذا كُتبت السيرة الذاتية قليلة جداً في الجزائر، بل تكاد تكون منعدمة؟، هل لأن هذا الفن، أو هذا النوع من البوح الأدبي الذاتي معرض دوماً للانتقادات، والتأويلات التي تُوجّه ضدّ الكاتب وسيرته؟

الإعلامية والناشطة الثقافية بصحيفة النصر الجزائرية أعدت ملفاً خاصاً بالسيرة الذاتية¹، استكثبت في الموضوع بعض المثقفين الجزائريين:

1 - الكاتب والناقد الأكاديمي مخلوف عامر:

« إنّ المذكرات غالباً ما ارتبطت بالمجال السياسي، والديبلوماسية، وبالمناضلين، وصنّاع القرار. كما في «كفاحي» لهتلر» و«حياة كفاح» لأحمد توفيق المدني و«مذكرات شارل ديغول». وهي عناوين مشحونة

¹ - نؤارة الأحرش، الكُزاس الثقافي " الأسبوعي لصحيفة النصر الجزائرية: 18 - 08 - 2014،

بتضحّم الأنا بما لا يخفى، ومثلها ما راج في السنوات الأخيرة بالجزائر: مذكرات الرئيس الشاذلي، وخالد نزار، وعلي كافي، وعلي هارون، وغيرهم. فأما الكاتب فلا يرى نفسه في هذا المستوى من صناعة الأحداث، فيحجم عن كتابتها تواضعاً منه، أو لأنه لم يتقدّم به العمر، أو لم يبلغ درجة من الشهرة تُحفّزه على كتابتها، أو لأن الأديب يدرك بأن حياته متضمّنة أصلاً في إنتاجه الأدبي، وفي حواراته فلا يرى ضرورة لأن يُفرد لها مؤلفاً؛ بل يرى من واجب القارئ أن يعرفه من خلال الكتابة، فهي مرآته المفضّلة. فأما سيرته فهي مرآته الأخرى، التي لا شكّ يعلوها بعض الصدأ. وحتى عندما يكتب الأديب سيرته، فإنها لا تمتدُّ إلى كل نواحي حياته بقدر ما تنصبُّ على إضاءة جوانب من تجربته يراها مفيدة للآخرين. كما في «تجربتي الشعرية» ل: «عبد الوهاب البياتي»، أو «هواجس في التجربة الروائية» ل: «حنا مينة».

فلا يمكن أن ننتظر من كاتب أن يبوح بكل أسراره إذا كتب. فالغالب عبر العصور أن الكاتب نرجسي ميّال إلى المجاملات، فلا يمكن أن يتّسع خاطره ويتجرّأ على ذكر ما يحدش صورته التي لا يريدتها إلا لامعة برّاقة، فضلاً عن أنه مُعرّض للنسيان. ولو أن «زهور ونيسي» تقول: «إن ما أريد قوله، أقوله بكل صدق وشفافية، ودون رتوش». وهي إذ أقدمت على كتابة سيرتها «زهور ونيسي»، عبر الزهور والأشواك»، فلأن حياتها لم تبقَ في حدود الممارسة الأدبية، بل تقلّدت

مسؤوليات، والتقت بأسماء كبيرة تُغري بأن تكون في سجل حياتها وإرثاً
لأسرتها وهو حق مشروع. وقد حصل التردّد في تسميتها: مذكرات؟
أو يوميات؟ أو اعترافات؟ أو سيرة روائية؟.

المرحوم «عمار بلحسن» عندما أصابه المرض الحبيث وطال عليه
كتب يومياته بعنوان «كتابات متورّمة، يوميات الوجع، آفاق الأمل».

2 - أمين الزاوي الكاتب، الروائي، الأكاديمي

رؤيته عكس مخلوف عامر، حيث يعزو غياب السيرة الذاتية في
الجزائر، كما في العالم العربي، إلى القمع المجتمعي، وسيّف الثقافة الدينية
المناهضة للاعتراف:

«.. متى تكون لنا شجاعة روسو، أو هنري ميللر، أو سيمون دو
بوفوار، أو أندري جيد، وغيرهم كثير في الثقافة الأوروبية والأمريكية،
حتى يكتب أدباؤنا سيرهم الذاتية بكل صدق وشجاعة؟ وهل
بالإمكان ذلك في ظل ما يحيط بالكتابة، والكاتب في العالم العربي
والمغربي من قمع مباشر، ورمزي، ديني، وأخلاقي، وعاداتي؟.

الكاتب العربي، أو المغربي الذي تربّى داخل ثقافة مقموعة
قائمة على الكبت، والصمت، والسكوت، والتلميح، والخوف ليس
باستطاعته دلق لسانه لقول مسار حياته كما عاشها. نحن أبناء ثقافة
دينية إسلامية مناهضة للاعتراف، لا نعرف؛ بل نعارض ثقافة
الاعتراف التي هي جزء أساسي في الثقافة المسيحية، نحن أبناء ثقافة
«الدس» و«التقية» و«إخفاء الجريمة»، وحتى مسيحيو العرب من

الكتاب الذين عاشوا داخل المجتمعات العربية الشرقية التي يضغط فيها الدين الإسلامي لم يتجرؤوا على كتابة السيرة الذاتية بمفهومها الاعترافي الكنسي.

في ثقافتنا المهيمنة هناك عناصر تسكن اللاوعي، وهي المستيقظة باستمرار تمارس الرقابة بكل أنواعها الأخلاقية، والدينية، والسياسية، وهي التي تمنع الكتابة الحرة للسيرة الذاتية. نحن أبناء ثقافة: «استر ما ستر ري»، نحن أبناء ثقافة: «إذا بُليتتم فاستتروا»، نحن أبناء ثقافة: «غضّ الطرف»، نحن أبناء: «عفا الله عما سلف»، نحن أبناء: «دير كيما جارك وإلا غير باب دارك».

كل هذه القيم الثقافية التي نحملها في ضميرنا اللاوعي تُمارس عملية فرملة الحقيقي والصدق فينا؛ وبالتالي تدفع الكتابة السيروية نحو مرض «الطهرانية الكاذبة» تدفع بها نحو عملية «تنظيف»، كما يحدث مع المجرم حين «ينظف مكان الجريمة»، إنه وفي عملية تنظيف «المكان/الكتابة من أثر الجريمة».

يقوم الكاتب بتنظيف الكتابة من صدقية الحياة، وواقعها، ويمنحها بالمقابل الموت، والنفاق الديني، والسياسي. السيرة الذاتية الصادقة تحتاج، وتتطلب ثقافة احترام «الحرية الفردية» ونحن في المجتمعات العربية، والمغربية الإسلامية نعيش ثقافة «القطيع»، الصوت الواحد ملغى، أو ينظر إليه نظرة ازدراء أو نكران. حين كتب الروائي المغربي محمد شكري روايته السيروية «الحبز الحافي»، وهي جزء بسيط

من حياة الكاتب، وأعتقد أنها نصّ ليس فيه ما قد يחדش الإطار العام للثقافة السائدة، قامت القيامة ضد الروائي، وظلّت الرواية ممنوعة ومحاربة في المجتمع الثقافي، وفي الجامعات العربية إلى أن تمّ تحريرها بشجاعة من وزارة الثقافة المغربية حين نشرت الأعمال الكاملة للكاتب بعد وفاته، وعلى الرغم من أن «الخبز الحافي» سيرة ذاتية روائية اختلط فيها الواقعي بالخيالي، أو بالمتخيل؛ إلا أنها لم تسلم من سيف الفقيه الذي يسيطر على الأدب والثقافة. حين كتب سهيل إدريس مذكراته، ونشر الجزء الأول منها بعنوان «ذكريات الأدب والحب»، وتحدث فيها بنوع من الشجاعة في بعض فصولها خاصة تلك المتصلة بالأسرة، وبالأخص ما ارتبط بشخصية الأب الذي كان لواطيا مثليا، هذا الحال أثار ثورة العائلة، وسنجد أسرة سهيل إدريس تتدخل لمنع نشر الجزء الثاني والأجزاء الأخرى. إذا كان هذا حال ومآل السيرة الذاتية لسهيل إدريس وهو أحد الرموز المركزية في الثقافة العربية فما واقع كتاب السيرة الآخرين. هذا يؤكد لنا بأن الآخر/الأسرة/الجار/ المؤسسة تعيش الحياة نيابة عن الكاتب العربي والمغربي.

الكتابة في جوهرها صنو الحرية، والسيرة الذاتية هي أكثر النصوص ارتباطا ومقياسا لهذه الحرية، وهي حقل ألغام مفتوح في مجتمع لا يؤمن بالحرية، ولا يمنح للفرد مقاليد أيامه وحرية سلوكه. إن المجتمعات الثقافية والأدبية التي تغيب فيها «السيرة الذاتية» هي

مجتمعات تهيمن فيها ثقافة النفاق. إن غالبية من كتبوا سيرهم الذاتية «هي في غالبيتها مذكرات وليست سير ذاتية».

السيرة الذاتية عند أدباء الغرب

يقول د. حسن فتح الباب: «إن السيرة الذاتية عند أدباء الغرب كثيراً ما تكون اعترافات يُميطون فيها اللثام عن مساوئهم التي تصل إلى حد الخطايا لا الأخطاء وحدها، ولا يتورعون عن الكشف عن مبادئهم الجنسية، ويحضرني هنا مثال صارخ لذلك هي اعترافات القديس أوغسطين، وكذلك السيرة الذاتية للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (اعترافات فتى العصر)؛ أما في الأدب العربي فلا نجد كاتباً سجل ما ارتكبه من آثام، باستثناء الكاتب المغربي محمد شكري في كتابه (الخبز الحافي) ذلك لأن أدباءنا يراعون التقاليد الاجتماعية، والدينية خشية نبذهم من الرأي العام الجمعي، فـ "طه حسين" في (الأيام) لم يفصح عن علاقته بالمرأة، ود. أحمد أمين في (حياتي)، ود. عبد الرحمن بدوي الذي برأ نفسه في مذكراته من كل العيوب، وألصق عيوباً كثيرة بالآخرين؛ بل إن سلامة موسى - رغم تحرره وإيمانه بالمُثل الغربية - لم يتناول في مذكراته ما وقع فيه من أخطاء، وفي رأبي إنه ينبغي على الأديب الذي يتصدى لكتابة سيرته الذاتية أن يكون صريحاً، وإلا كان مُزوّراً مثل الكثير من رجال السياسة الذين كتبوا مذكراتهم، فجنوا على التاريخ وأحاطوا أنفسهم بهالة من الأكاذيب.»¹

1 - د. حسن فتح الباب. السيرة الذاتية هل هو أدب اعترافي؟ مجلة فكر.

حدود حمراء..

يرى الناقد والمترجم د. رمسيس عوض أن الكاتب العربي - مهما توخى الصراحة - محكوم بقيم المجتمع وعاداته وأعرافه، حتى لويس عوض الذي تجرأ وتجاوز هذه الحدود، لم يتجاوزها إلى آخر المدى كما يفعل الغربيون، ففي الغرب لا يجدون أي غضاضة في أن يكشفوا عن خبيثة أنفسهم، بل ويفضحوا أنفسهم، لأن الثقافة الغربية لا تجد غضاضة في مثل هذه الصراحة، ومن النادر أن نجد أدباء غربيين يحاولون إخفاء أسرار حياتهم وما قد يشوبها من شذوذ. « ويضيف عوض قائلاً: « لعل أبشع أنواع الاعتراف بالذنوب والخطايا، ما نجده في أدب جان جينين، إذ يشعر القارئ بأنه يحاول أن يجعله يتقزز من كتبه، الأمر نفسه بالنسبة للكثير من كتاب الغرب الذين تُعد اعترافاتهم نوعاً من التمرد على أخلاقيات الطبقة الوسطى وما فيها من زيف وادعاء.¹»

يقول الناقد العراقي عبدالله إبراهيم: «أدب الاعتراف موجود، وفي مقدمته السيرة الذاتية، يتلقى إمّا بوصفه جملة أسرار، وإما على أنه مدونة فضائح ينبغي التستر عليها، فسوء الظن يتربص بالكتاب والقراء على حدّ سواء، ولا غرابة في أن نجد ندرة فيه "في أدب الاعتراف" في الأدب العربي قديمه، وحديثه، فلا يقبل الكاتب البوح بالجوانب الشخصية، فالخوف يعمق رغبته في الصمت، فيتجنب

1 - السيرة الذاتية هل هو أدب اعترافي؟ مجلة فكر الثقافية. العدد 22

الكاتب ذكر الوقائع الصريحة، ويطمر ذلك في طياته تزييفاً للتاريخ الشخصي، ويجعل من خداع الذات سلوكاً مقبولاً، فتنوارى الوقائع المهمة في حياة الكاتب، وهذا يخالف وظيفة أدب الاعتراف وهي استبطان المناطق المخفية من حياة الأشخاص.»

ويُقرّ إبراهيم بأن أدب الاعتراف مازال مبعداً عن السياق الرسمي للأدب العربي، وفي الكثير من الأحيان يوصم المعترف بأنه شخص غدر بمجتمعه، وتنكر له بأن فضل اختياراً فردياً تاركاً الجماعة خارج اهتمامه، أو أنه فضح البطانة الخفية المسكوت عنها.

كما يضيف «أدب الاعتراف محطّ شبهة وموضوع ارتياب، لأن الجمهور لم يتمرس بقبول الحقائق، فيرى في جرأة الكاتب على كشف المستور سلوكاً غير مقبول، وإفراطاً في فضح المجهول، فالاعتراف محاط بالكثير من ضروب الحذر في مجتمعات تقليدية تتخيل أنها بلا أخطاء، فتبالغ في ذكر نعم الله عليها، وكأنها هبات خصّت بها دون سواها، وتتحاشى ذكر عيوبها، وتتوهم أنها تطهّرت من الآثام التي واظبت على اقترافها مجتمعات أخرى، فتدفع المخاوف الكثير من الكتاب إلى اختلاق تواريخ استرضائية لمجتمعاتهم، وابتكار صور نقية لذواتهم، متجنبين كشف المناطق السرية في تجاربهم، فصمتوا عما ينبغي عليهم قوله أو زيّفوا فيه، وربما أنكروا وقوعه، يريدون بذلك الحفاظ على الصور الشفافة لهم ولمجتمعاتهم¹».

1 - الناقد العراقي عبدالله إبراهيم. صحيفة العرب اللندنية 08 / 04 / 2017

الأديب الجزائري واسيني الأعرج يذهب إلى أبعد من ذلك: «على الكاتب الذي يخوض في كتابة سيرته أن يتحمل المسؤولية كاملة عن هذا النوع من الكتابة، كَوْن السيرة في ظروف ما يمكن لها أن تقتل صاحبها، وهذا ما حصل مع عدد من الأدباء الذين ارتطموا في واقع الحال بحقيقة مجتمعاتهم، فالمجتمعات العربية لا حرّية للرجل فيها فكيف المرأة؟ ومنّ يريد أن يكتب سيرته عليه أن يعيش في مجتمع يراعي الحرية بأبسط تجلياتها».¹

السيرة الذاتية.. حكاية مسار

إنّ المسارَ الفكريّ والإبداعيّ لأيّ كاتبٍ لا يختلف البتّة عن مسارات الآخرين.. كلُّ شخصٍ سويٍّ في الكون له مسارٌ به تحدّدت عن طريقه كينونته، ومكانته، وأفعاله في الحياة؛ إلاّ أن مسارات العباقرة والمفكرين، والكتّاب تتعدّى فردانيتهم إلى الآخرين، وتنعكس عليهم، وفيهم؛ وإنني لا أرى اختلافاً جوهرياً بين مسارات هؤلاء، وبين سيرهم الذاتية التي قد يروونها بأنفسهم، أو يخبرونها على الورق، وتيمّتها الصدق، والصراحة.

ما السيرة الذاتية..

هل السيرة الذاتية حكّي استرجاعيّ نثريّ، يتولّى كتابتها شخصٌ واقعيّ، مُركّزاً على وجوده الخاص، وحياته الفردية؟ كما يقول الباحث الفرنسي، والمرجع العالمي في دراسة السيرة الذاتية فيليب لوجون،

¹ - واسيني الأعرج. مرجع سابق.

إذ يُعرّف في نصه المرجعي (L'autobiographie) السيرة الذاتية بأنها سرّد استيعادي نثري يقوم به شخصٌ واقعيٌّ عن وجوده الخاص، حينما يركّزُ على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة. ويفصّل لوجون تعريفه قائلاً:

«يعتمد هذا التحديد على عناصرٍ تتعلقُ بوضع المؤلف وتطابقه مع الراوي، وموقف الراوي، وتطابقه مع الشخصية الرئيسية، ومنظور النص: سرّد استيعادي نثري، والموضوع المعالج: حياة فرد، أو تاريخ شخصية. وعليه فالسيرة الذاتية تفترض التطابق الحقيقي بين شخصية المؤلف وشخصية الراوي.»، أم هي كل نصٌّ مكتوب، سواء أكان عملاً أدبياً أم دراسة فلسفية، يُعبّرُ من خلاله الكاتب عن حياته الفردية؟ أم أن السيرة الذاتية عملية إعادة بناء أدبية لحياة إنسان، يتولى نفسه القيام بها، أم أنها المسار الحيوي الذي عاشه الفرد الكاتب في سياقٍ تسلسليٍّ من التنوع الوجودي والحياتي المُختزن؟

يقول الناقد والأديب الفلسطيني المرحوم إحسان عباس: « إن كاتب السيرة الذاتية قريبٌ إلى قلوب الناس، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يُوجد رابطة ما بينهم وبينه، متحدثاً عن دخائل نفسه، وتجارب حياته حديثاً يلقي آذاناً واعية، لأنه يثيرُ في الناس رغبة في الكشف عن عالم يجهلونه ». ويضيف عباس: « كل سيرة إنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور

النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني فلا بد أن يكتبها¹».

إن أسمى ما في السيرة الذاتية أنها ترسم حياة صاحبها، وتُكتب ليُعرفَ بها الإنسانُ نفسه، ويزداد منها قريباً؛ ويعرضها على القراء بطبيعة الحال من زاوية نظره هو، ويحاول في عرضه أن يكون أميناً صادقاً، ويتجرّد ما أمكن من العاطفة التي تشدّه؛ لأن ما نسميه بـ"الأنا" ليس شيئاً واحداً، بل متعدداً، ليس كلاً منسجماً متجانساً، "الأنا" متغيّرة تبعاً للمتغيّرات المُختلفة التي تطرأ على الفرد جسداً، أو نفساً، أو فكراً، أو ثقافة، أو اجتماعاً، أو معيشة.

السيرة الذاتية بوعي كاتبها وتوحيه محاولة تعبير صادق تكشف عن تمفصلات مهمّة في مسار هذا الكاتب، أو ذاك، عن فترة، أو فترات من حياته الفكرية، ومسارات قلمه، أو الظروف التي رافقته إيجاباً، أو سلباً وساعدته في مسيرته على أن يتبوأ مكانه ككاتب، أو مبدع، أو تغطيةٍ لمساره الأدبي والفكري إلى حين تقاعده الإبداعي، وإن كنتُ أستبعد أن يتقاعد المبدع، أو الكاتب الحقّ. ولعلّ التساؤل الذي قد يردُّ إلى ذهن القارئ: هل السيرة الذاتية يحكي فيها صاحبها عمّا مارسه في حياته في كلّ أطوارها من جميلٍ وقبيحٍ، عمّا هو إنمّ وما هو غير ذلك، عمّا هو مُباحٌ شرعاً، وما هو مُحرمٌ، عمّا هو مُمارسٌ

1 - إحسان عباس. غربة الراعي/ الإصدار الثاني 2006 دار الشروق للنشر والتوزيع.

اجتماعيا، ومفروضٌ أخلاقيا؛ باعتباره عضواً من الجماعة، وباعتباره فرداً له غرائزه، ونزعاته الخاصة، وضعفه البشريُّ تجاه الغواية.

البوْحُ.. حتى إشعار آخر

رأبي الشخصي، كما هو أيضاً ردُّ عن التساؤلِ السابق: الاعتراف ممنوعٌ حتى إشعار آخر، هذا الإشعارُ قد يطول مؤعدهُ، وقد يقصر سيمًا في عالمنا العربي؛ ذلكم أن الاعتراف بالمفهوم الغربي الذي بدأه الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" كأدبٍ للاعتراف أن يكون بطعمٍ عربي، وجزائريٍّ خاصّة اليوم، يقتضي من صاحب السيرة ذلك الفعل الجريء، ولحظات من التردد، والارتباك والحيرة، ترتعد فيها الأصابع وهي تخطُّ الجمل الأولى في رحلة استكشاف حقيقة الذات التي يُراد لها أن تتعرّى أمام الآخر.

من هنا يغدو أدبُ الاعتراف مغامرة محفوفة بالقييل والقال؛ لأنّ من المفروض في صاحبه أن يتميز بمنسوبٍ عالٍ من الجرأة والجراسة، وتسمية الأسماء بمسماياتها الحقيقية، ما دامت وظيفة فنّ الاعتراف، في الأصل كما تُقرُّها تقاليدُ المسيحية، تتمثّل في التطهير عن طريق الاعتراف.

الأدب السّاحر.. الضحك على أوجاع الحياة

السُّخرية من أعرق أسلحة البشر، وألطفها فهي سلاح الفقير على الغني، سلاح الضعيف على القوي، سلاح المظلوم على الظالم، سلاح المطحون على الطاحن، سلاح الثاني على الأول، لذا فالسخرية سلاح الأكثرية؛ إلا أنه كلما زادت مساحة الحرية قلت مساحة السخرية حيث أن الحرية تتغذى بنقصاتها؛ فكلما نقصت الحرية زادت الحاجة إلى الأدب السّاحر. يشير أغلب الباحثين، والتّقاد إلى أنه ليس هناك تاريخ مُحدّد للأدب السّاحر، أو شهادة ميلاد "لنصّ السّاحر".. فعندما ارتفع السّوط الأول في وجه الإنسان: "السوط الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي، الديني" ولدت السخرية، وولدت المقاومة بالضحكة، ومن ثمّ كان الانتصار للضحكين... علماً أن أقدم النصوص السّاحرة كان نصّاً فرعونياً يعود للألف الثالثة قبل الميلاد يتحدث عن فلاح بسيط يصطدم بحواجز السلطة المادية والمعنوية..

البداية.. نصّ بابليّ

إلا أن أشهر النصوص السّاحرة تاريخياً، النصّ البابليّ الشهير الذي يعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، ويتضمن حواراً بين سيّد وعبده، حيث يذكر النصّ بؤح السيد لعبده بكل ما يفكر به، بما في

ذلك تناقض أقواله بين جملة وأخرى، والعبد يبرّر لسيّده كل تناقضات حديثه موافقاً على كل ما يقول، حتى قال السيّد لعبده:

- أفكّر أن أقتلك، فقال العبد:

- تستطيع يا سيدي أن تقتلني ببساطة، ولكنك ستموت من بعدي جوعاً وعطشاً، فأنت لا تُجيد شيئاً سوى إصدار الأوامر، وآخر أوامرك القاتلة: قتل مَنْ يخدمك.

الخلطة السرية..: الأدب الساخر هو الخلطة السرية بين اللغة، والمفردة، والحكاية الشعبية، واصطياد المفارقة في المشهد سواء أكان هذا الأدب نكتة شفوية، أو كاريكاتيراً، أو قصة ساخرة، أو نصّاً ساخرًا. كما أنّ النصّ الساخر يكون بياناً سريّاً بين الكاتب، والقارئ، بين الهمّ والضحكة، بين الوجد وصاحبه، بين القلم والممحة كرسائل العشاق سرية، وخجولة وبينية، يكون البوح الهادئ فيها بين حمرة الجرح، وحمرة الشفاه، بين الحرف والحرف، بين الغرّة والشال.. فالسخرية قهوة الكادحين... والضحك دخانهم المجاني.

..يُغني عن مقالة كاملة: الأدب الساخر أدب عالمي لا يخلو منه تراث أمة حية؛ فهو يسجل أحداث العصر تسجيلًا أمينًا، النافذة التي تُطلّ منه الشعوب على أنماط الحياة، من خلاله يُرصد الواقع الإنساني بأدق تفاصيله... أدب السخرية لا يقلّ في أهميته عن الألوان من الكتابات الأدبية الجادة، فهو يُغني في بعض الأحيان عن مقالة كاملة، أو قصيدة كاملة، فالأدب الساخر أرقي ألوان الفكاهة، خاصة

المصبوغ منه بالصبغة السياسية؛ لذا فقد وجده الكُتّاب أداة ملائمة، ووسيلة صالحة للنقد، والتهمك، والتقريع فيبدو في مظهره كوميديّ المشهد، وفي تأثيره مضحكة الواقع، هو من أشكال النقد الواعي الممزوج بالإحساس الفطري المتجذر في أعماق الشعب المهموم، والمُسْتضعف.

فإنّ الإضحاك بالكلمة: فنُّ السخرية، وإنّ صُنِّف ضمن أدب الفكاهة لاشتماله عنصر الإضحاك، إلا إنه يمكننا إدراجه ضمن أرقى أشكال التعبير الأدبي؛ خاصة لما يحمله في طياته من مواقف انتقادية تظهر إحساسنا بالمفارقة الدلالية المرفقة بانفعال الضحك، وهذا ما عبّر عنه الأديب الفلسطيني الراحل غسان كنفاني بقوله:

«إن السخرية ليست تنكيتا ساذجا على مظاهر الأشياء، ولكنها تشبه نوعا خاصاً من التحليل العميق. إن الفارق بين صاحب النكتة، وال كاتب الساخر يشبه الفارق بين الحنطور والطائرة، وإذا لم يكن لل كاتب الساخر نظرية فكرية فإنه يضحى مهرجاً¹».

أقوى من الكلمات

أدب المُفارقة: الأدب الساخر رسالته أقوى من الكلمات الجادة، ويصل لغايته بطريقة أسهل وأيسر، ويتناقله الناس بناء على إعجابهم بجماله وذكائه ومهارته وخفته، فهو مركب بالغ التأثير في

1 - سلام نجم الدين الشرابي. امرأة عنيفة.. احذر الاقتراب! مقالات ساخرة و مقالات أخرى ص12 / ط1 / 2008. السعودية.

إيصال الأفكار وتوجيه المجتمعات، كما يستطيع صاحبه اصطيد المفارقة التي تثير الضحك بأسلوب التلميح لا التصريح، سواء كان ذلك عن طريق النكتة الشفوية أو الكاريكاتير، أو القصة الساخرة، ومنها الفن المسرحي، والدراما، والسينما في العصر الحديث وغير ذلك كثير. وتحتوي السخرية على ألم مُمضٍ، فهي قمة الألم، فكما أن قمة الحزن تتحول إلى غناء، فإن قمة الألم تتحول إلى سخرية، وقدما قالت العرب: "شر البلية ما يضحك".

صوّر ساخرة متماهية مع فنون أخرى: حفل التراث العربي بالعديد من الصور الساخرة، مع أنها لم تبرز في شكل أدبي قائم بذاته، حيث كانت مرتبطة بالفنون الأخرى خاصة في الشعر، وبوسعنا أن نلاحظ الصلة العميقة بين فن السخرية وفن الهجاء، ونعتقد أن فن الهجاء الذي أبدع فيه شعرنا العربي القديم، يجسد ذروة فنية من ذرى السخرية الأدبية الذكية... وإذا كان الفرنسيون يتباهون بأن شاعرهم الكبير فيكتور هوغو قد ترك لهم أربعة آلاف بيت في الهجاء، فإن شاعرنا الكبير بشار بن برد ترك لنا اثني عشر ألف بيت في الهجاء المرّ، والسخرية الضاحكة الحزينة، وقد خلد الناس في ذاكرتهم سخرية بشار ومنها قوله:

ربابة ربّة البيت تصبّ الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

ومن القامات الشعرية التي نذكرها الحُطَيْئَةُ، الذي كان يسخر من نفسه حين لا يجد أحدا يهجوّه، وحين يكون الحديث عن فن السخرية بعيدا عن الهجاء تبرز صورة الشاعر الساخر ابن الرومي، الذي تخصص في التقاط المفارقات في وصف الأشخاص، والأشكال حتى قيل عنه إنه رسام الكاريكاتير في الشعر القديم. كما نشطت حركة النشر بمختلف أشكالها؛ ولاسيما القصص الفكاهي الذي أصبح السمة الغالبة في العصر العباسي، ويُعدّ أبو العلاء المعري رائدا في هذا المجال، حيث قدم نموذجا أرقى لفن السخرية ببعده الفلسفي، وقد مزج السخرية الضاحكة بالألم العظيم في رسالة "الغفران".

ولعل من أكثر النصوص الأدبية الساخرة شهرة عالمية نص "ألف ليلة وليلة"، وما أُضيف إليه من قصص ساخرة ونوادر مضحكة، كما نجد نصا سياسيا ساخرا بامتياز هو حكايات "كليلة ودمنة" التي يرويها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم لابن المقفع، الذي وجد في هذه السخرية عن طريق قصص الحيوان وسيلة للتعبير السياسي، وقد عرفت كل آداب العالم هذا النحو من القصّ الساخر على لسان الحيوان. ونجد في موسوعات الجاحظ نماذج مُثلى لفن السخرية في الأدب القديم، وكتاب "البخلاء" للجاحظ أبرز هذه النماذج، وكذلك نذكر كتبا كثيرة شهيرة في أدبنا العربي القديم مثل كتاب 'الإمتاع والمؤانسة' للتوحيدي، وكتاب "الأُمالي" لأبي علي القالي "والعقد

الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، "والكشكول" للعالمي، "والمستطرف من كل مستطرف" للأبشيهي.

الأدب السياسي الساخر

ظهر فنُّ السخرية السياسية في جميع الآداب العالمية، فنجد ملهارة "ارسطوفاني" تسخر من المجتمع الإغريقي في القرن الخامس الميلادي. وتعتبر فترة أواخر القرن السابع عشر من أعظم فترات السخرية الأدبية إثراء في الأدب الانكليزي، فقد كتب غالبية كتاب ذلك العصر مثل الكسندر بوب في كتاب بعنوان "دنسياد"، الذي هاجم فيه الشعراء، والكتاب الذين أساءوا استعمال اللغة الانكليزية، والكاتب الفرنسي موباسان، الذي كان يقطن منطقة "بيكال"، وكان كل همّه رصد تحركات، وتصرفات المرأة الفرنسية في سذاجة تفكيرها، وإقدامها على حركات، وسلوكيات كانت تدعوه إلى أن يستلّ قلمه ليكتب نماذج الإبداعية الرائعة في قصص ساخرة لا تخلو من صبغة الإضحاك.

أدبٌ يتكى على الاختلاف والحرية

إن ازدهار جنس الأدب الساخر في الأدب العربي مرتبط ارتباطا وثيقا بأجواء الكتابة المنفتحة على التنوع، والاختلاف، وحرية الإبداع، وأنه كلما ضاقت هذه المساحة تحول فن السخرية إلى سخرية سوداء، وأصبح هذا النوع من الأدب يُمثل للبعض أسلوبا تعبيريا، ولغة رفض مختزلة في العقل الباطن للإنسان العربي، فهي

بذات الوقت تكشف عن إحباط نفسي كبير، ومواجهة سلبية للواقع؛ لكنها تعتبر متنفسا للمقهورين، والمقموعين جراء ما تقوم به الأنظمة العربية القمعية بأجهزتها وسجونها من ظلم واستبداد، متكئة على سلطتها الدينية المحسوبة على الحكام، ولعل الشاعر نزار قباني كان صادقا في نقل هذا الواقع بقوله: "معتقلون داخل النص الذي يكتبه حكامنا... معتقلون داخل الدين كما فسره إمامنا..."، فالكاتب العربي يذوق مرّ الخيبات، والخذلان، والانكسار العربي؛ لأن سياسة القهر، وتكميم الأفواه والمحسوبة صقلت الكاتب العربي الذي راح يكتب سخريته بألوان حزنه وألمه.

السخرية ذروة الألم

المرحوم محمد الماغوط الكاتب، السوري صدق حينما سُئل ذات مرة عن ماهية السخرية؟ فأجاب: « إن السخرية هي ذروة الألم»، وقد كان لهذا الوضع المتأزم وقّع خاص في نفس المثقف العربي الذي يعيش حياته مهملًا، ممّا دفع العديد من الكتاب إلى هذا النوع من الأدب احتيالا على الرقيب، أو السلطة، وبما يُشكّل متنفسا للكاتب، والقارئ على حد سواء...

الكتابة الساخرة في الجزائر.. غائبة أم مفيدة؟:

كان يُمكن أن تساهم الثورة الرقمية الجديدة في الدفع بالكتابة الساخرة في الجزائر إلى الأمام، بعد أن شهدت تطورا ملفتا أعقبه تراجع عقب إقرار التعددية السياسية، وظهور الصحافة المُستقلة في

مطلع تسعينيات القرن الماضي؛ غير أن هذا اللون من الكتابة بقي يراوح مكانه، رغم الرصيد التاريخي الكبير في هذا المجال، حيث إن ما اعتُبر أولُ عملٍ روائي في تاريخ الإنسانية -وهو "الحمار الذهبي"- كتبه لوكيوس أبوليوس ابن منطقة سوق أهراس بالجزائر في القرن الثاني للميلاد، وهو من الأدب العالمي الساخر. وشهدت بداية تسعينيات القرن الماضي قفزة كبيرة للكتابة الساخرة بظهور مجموعة من الصحف، لعل أشهرها جريدة "الصح آفة" التي حققت انتشارا واسعا، وكانت ترفض نشر الإعلانات التجارية مكتفية بعائدات مبيعاتها. وطال انتقاد "الصح آفة" أعلى هرم السلطة آنذاك، لكن السلطات أوقفتها بعد إلغاء المسار الانتخابي سنة 1992، مثلما اشتهرت صحيفة "المنشار" باللغة الفرنسية التي اختفت بعد ذلك. ثم ظهرت من جديد هذه الأخيرة حتى شهر ماي 2020 ليُعلن مسيرؤها عن توقيفها من تلقاء أنفسهم.

بين الأدبي والسياسي

الكاتب الصحفي سعيد بن زرقة، واحدٌ من أهمّ الأدباء الساخرين في الجزائر، وصدرت له مجموعة من الكتب في هذا المجال، آخرها مجموعته القصصية "قلة أدب" عن منشورات فيسيرا، وهو يؤكد أن "السخرية في الجزائر مغيبة بشكل لافت"، ويضيف بن زرقة: «لا أثر لها في القنوات، ولا في الصحافة المكتوبة، ولا هي موجودة في المسارح، وأنّ أغلب ما نطلع عليه، ونشاهده هو عبارة عن أخبار

سوداوية، ومشاهد درامية، فالساخر إن لم تكن له نظرية، أو رؤية فهو مهرج».. ورغم إقراره بأن الجزائر أنجبت كتّابا ساخرين مهمين، فإنه يرى أن "السخرية لا تنتعش إلا في جوٍّ من الحرية، وفي مجتمع ديمقراطي، ووسط شعب يقبل النقد"، وهي "شروط غير متوفرة"، يضيف بن زرقة.¹

وتبدو رؤية الروائي والكاتب الساخر كمال قرور أقل سوداوية لواقع هذا النوع من الكتاب، إذ يرى أن «الكاتب الساخر قد يكون مزودا بحاسة أخرى لا يملكها بقية الكتّاب، تشبه قرون الاستشعار، وتجعله أكثر من غيره مستشعرا للخطر المحدق بالمجتمع، لذلك نجده ساخطا بطبعه ورافضا للواقع والسائد، ومن أشرس مقاومي الاستبداد، وهو لذلك يصنع من لغته خطابا هزليا كاريكاتوريا ليحطم به أنف القوة المستبدة المكبلة لحرية الإنسان»².

الطريق إلى السجن

في ذلك الجو الصعب الذي عاشته الجزائر، حاول الروائي الراحل مصطفى نظور رفقة صديقه الروائي محمد زيتلي كسر حاجز الخوف، فأسس منتصف تسعينيات القرن الماضي أسبوعية "مسمار". ويستعيد محمد زيتلي تلك المرحلة، وقبلها مع بداية تأزم الوضع في الجزائر منتصف الثمانينيات مع انهيار أسعار النفط آنذاك، فيقول: «

1 - الخير شوار. الكتابة الساخرة في الجزائر.. غائبة أم مغيبة؟ الجزيرة نت.

2 - الخير شوار. المرجع السابق.

في هذا الوقت وجدت نفسي أسترجع حمار توفيق الحكيم، وأحمد رضا حوحو، ليكون وسيلتي للتعبير عن تناقضات عميقة لوضع لا يمكن التعبير عنه سوى بالسخرية منه وعليه»، ويضيف زيتلي « قبل هذا كنتُ قد كتبت بعض النصوص الساخرة، ونشرت كتابي الثاني بعد كتاب: "عودة حمار الحكيم"، ويحمل عنوان: "اللصوص المحترمون"، ويتضمّن مواقف مما جرى بأسلوب ساخر ما كنت لأقدر على التعبير عنها بغير ذلك الأسلوب».

وكشف زيتلي:

«لقد قادتني كتاباتي الإعلامية الساخرة في جريدتي "مسمار" إلى السجن، لأن المرحلة التي مرت بها الجزائر لا تحتمل السخرية، فهو أسلوب صعبٌ للكتابة، وصعبٌ للتقبُّل رغم حبّ القراء والناس له»¹.

هل تراجع الأدب الساخر في الجزائر؟

طُرِحَ هذا السؤال يراه البعض عبثًا؛ لأنّ الأدب الساخر في الجزائر ظهر في استحياء في الربع الأخير من القرن العشرين، وكتابه أقلّ من عدد أصابع اليد الواحدة؛ في الموضوع خصّصت الشاعرة، والإعلامية الثقافية نؤارة لحرش ملفًا خاصًا "كُرّاس الثقافة" بصحيفة النصر بتاريخ: 16 فبراير 2015م، استكثبت نؤارة لحرش مجموعة من الكتاب الأدباء للإجابة عن: « تُطرح أسئلةٌ مختلفةٌ بخصوص هذا

¹ - الخير شوار. الجزيرة. نت/ 17 . 06 . 2015

الفن، فهل اختفى أدب السخرية؟، أو بمعنى آخر الأدب الساخر، من المشهد الأدبي/الثقافي الجزائري والعربي عموماً؟، هل فقد مكانته في ريبورتوار الإبداعات الأدبية، أم مازال موجوداً وحاضراً وإن بدرجة أقل. وإن اختفى، ما هي الأسباب التي أدت إلى اختفائه وتراجعته أو ندرته؟ هل انسحب الأدباء من هذا الفن، ولم يعد يعينهم أن يعبروا أو يعالجوا موضوعات الواقع، والحياة بالسخرية، والكاريكاتيرية، والتندر، والتفكك، أم أنه لم يختفِ إنما فقط قلَّ، ومن جهة أخرى، قلَّ الذين يكتبونه ويكرسون إنتاجهم الأدبي له؟. أيضاً كيف ينظر الكتاب الآن لهذا الأدب، وكيف يرون سقفه، وسياقته الأدبية والفنية؟.

يُمكن إجمال آراء من كتبوا في الآتي:

الظاهرة في السنوات الأخيرة لم تختف تماماً؛ بل قلَّت، فالأدب العربي كغيره من الآداب، لم يَحُلْ من السخرية، بدءاً بشعر الهجاء إلى المؤلفات النثرية مثل: «المقامات وبخلاء الجاحظ، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي» وغيرها، واستمرّ تواجدها في الأدب الحديث. فإذا قلَّت، فإن ذلك مرده إلى جملة من الأسباب منها: أن الأدب العربي الحديث ارتبط بحركات التحرر، ثم بالتوجه الاشتراكي ما جعله أميل إلى الالتزام الصارم الذي قد ينأى بالكاتب الأديب عن الفكاهة والمزاح. مثلما استنكر بعضهم أن ينشغل الشعراء بالغزل في وقت يريز فيه المواطنون تحت وطأة الجهل والمرض والاستغلال.

كانت السخرية في القديم من فُسْحِ التسلية والترفيه، كما كانت من الأساليب غير المباشرة في نقد المجتمع والسلطة، بينما ظهرت في هذا العصر وسائل شتى وأكثر تطوراً في السينما، والتلفزة، والكاريكاتور، وغيرها من وسائل التواصل التي جعلت الناس يزهّدون في الإقبال على قراءة الأدب، ناهيك عن أن يستغلّوه للسخرية. إن السخرية في الأدب تقتضي مهارة نادرة في القدرة على التلاعب اللفظي، كما كان المدح بما يشبه الدم، أو الدم في معرض المدح، وهي ملكة لا يتمتّع بها كل الأدباء؛ إذ الأديب الساخر هو الذي لا يكتفي بإتقان اللغة، وإنما تكون لديه القدرة، ودرجة عالية من الذكاء على مفاجأة القارئ بقلب الوضعيات، أن يخرق النمطية فيجعل المؤلف يبدو غير مؤلف، لذلك يستحقّ عمله أن يُدرج في صميم الإبداع.

فأما في الأدب الجزائري، فإن رواية «الحمار الذهبي» لأبوليوس السّوق أهراسي في القرن الثاني الميلادي، تُعدُّ من البدايات الواضحة في هذا الاتجاه. ولم تغب السخرية من الأدب الشعبي أبداً. كما امتدت إلى الأدب الحديث والمعاصر خاصة في النشاط الأدبي لحركة الإصلاح. حيث عمد بعضهم إلى السخرية من المستعمر الفرنسي وممنّ يقلّدونه من الأتباع. كما في كتابات «أحمد رضا حوحو»، أو كقول «الأمين العمودي» فيمنّ تزوج أجنبية: «حيّوا الحكيم ولا تنسوا قرينته/فهو سليمان والمدمام بلقيس. له غلام أطل الله مدته/تنازعت

العرب فيه والفرنسييس. لا تعذلوهم إذا ما خان أمته/فنصفه صالح،
والنصف مورييس».

في الأدب الجزائري قد تكون السخرية ميزة عامة لدى كاتب
ما، مثلاً: «السعيد بوطاجين، عمار يزلي». ولكن لا تخلو منها
الكتابة الأدبية شعراً ونثراً. فإذا هي لم تأت في شكل عبارات، وصور
مبتكرة، فقد يُورد الكاتب نكتة، أو طرفة، أو تعليقاً للتعبير عن
موقف من السلطة، أو عن أية ظاهرة اجتماعية مثيرة. وإنها، وإن هي
لم تُفرد لها مؤلفات مستقلة، مثل: «عودة حمار الحكيم» ل: «محمد
زيتلي»، إلا أن السخرية ستظل ماثلة في الإنتاج الأدبي بمستويات
متفاوتة، لأنه من طبع الإنسان أن يضحك ويمزح سواء بهدف
التسلية الخالصة، أو لغاية يريد لها أن تتحقق بغلاف مُشوِّق غير
مباشر، وهي في الوقت ذاته تُمثِّل اختباراً لذكاء القارئ، ومدى قدرته
على التيقن الدلالة الخفية وراء المداورة والتلميح. السعيد بن زرقه
الكاتب الساخر الذي أصدر عدّة أعمال في هذا الفن له آراء جديدة
بالاهتمام في هذا الفن؛ ففي محاضرة له بمدينة تيسمسيلت في شهر
مارس 2014م، فقد عرّف ابن زرقه الأدب الساخر بالاستخفاف،
والتذليل مع النقد والضحك، أما التهكم فهو الهدم المباشر بلغة
ساخرة هدفها تحطيم الآخر، كاشفاً أن العديد من الكتابات الصحفية
كعمود الإعلامى «سعيد بوعقبة» في جريدة «الخبر» كتابات تهكمية
ساخرة تحاول النيل من الخصم بطريقة مباشرة لا علاقة لها بالأدب

الساخر الذي يتميز بالحبكة، والرسم لظاهرة اجتماعية وإبراز، صور فنية من شأنها بناء الشخصية لا الهدم والإحباط، معتبرا أن ثمرة السخرية المتمعة الحقيقية التي لا تخلو من النقد، وأن القارئ الجزائري لا يجرؤ على الضحك إلا في الكواليس لأسباب أرجعها إلى عدم الوصول إلى سقف الحرية التامة، مما أحدث نوعاً من النفور من الكتابة في هذا النوع الأدبي، وأن الجزائر تفتقد لثقافة السخرية حيث لا توجد سخرية، وضحك وإنما توجد محتشدات للمجانين. مشيراً إلى العديد من نصوص الأدب الساخر على غرار كتاب "الحمار الذهبي" لأبوليوس، حيث وظفت هذه الرواية الأولى في تاريخ الأدب الروائي لغة ساخرة من خلال تحوُّل إنسان إلى حمار؛ أما في الأدب الجزائري نجد "منامات الوهراني"، "صور سلوكية" للكاتب رضا حوحو، "شعيب الخديم" للشاعر الفيروزي، الكاتب عزوز بكار من خلال "ولد الشعبة" باللغة الفرنسية. الكاتب، الإعلامي محمد بوغزارة الذي رافق، وعاش الأدباء والكتاب الجزائريين منذ سبعينيات القرن الماضي، يُذكر المتلقّي القارئ، ويُلقت نظره إلى أدبيين كبيرين متميّزين في الأدب الساخر بالجزائر برزا في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

«عرفتُ في مساري المهني، وعلاقاتي الإنسانية اثنين من أدباء الجزائر تميزا بأهمّهما كانا من أبرع الناس في إبراز فنّ الفكاهة، والأدب الساخر بالجزائر.

1 - أبو القاسم خمار: الشاعر المرهف أبو القاسم خمار أطال الله عمره، فقد اشتهر هذا الشاعر بإطلاق النكتة حتى على نفسه، ومن ذلك أنه كان يكتب صفحة متميزة أثناء توليه مجلة «ألوان»، وهي واحدة من أرقى المجلات الثقافية التي عرفتها الساحة الثقافية بالجزائر خلال السبعينيات، كان عنوان تلك الصفحة: «مذكرات نسائي»، يصور فيها الكاتب نفسه على أنه نسائي، في حين أن ذاكرة خمار كانت قوية تتذكر أبسط الأشياء التي وقعت منذ فترة.

2 - الأديب الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي رحمه الله. كان هذا الأديب والشاعر الملهم الذي توفي في 2005 يُقدّم برنامجا ساخرا يوميا على أمواج القناة الأولى للإذاعة بعنوان «ألوان». وقد ترك السائحي عددا من الدواوين الشعرية والأعمال الأدبية من بينها ديوان «ألوان بلا تلوين» . .

كان السائحي الكبير كما يوصف بأنه يطلق النكتة حتى على اسمه عندما يقول: « إن بعض الأسماء فيها إجحاف، فكيف يكون اسمي الأخضر، وأنا يابس مثل العود، وكيف يُسمّى فلان الطاهر، وهو لا ينتمي للطهر في شيء، وكيف يُسمّى هذا عفيف، وهو أبعد ما يكون عن العفاف، وكيف يُسمّى الآخر جمال، أو جميل، وهو قبيح المنظر. وقد روى لي الصديق الراحل الشاعر المرهف عمر البرناوي رحمه الله خلال سبعينيات القرن الماضي واحدة من مآثورات الشيخ السائحي رحمه الله. فقد حدث أن توفيت صبيبة كانت ما تزال تحبُّ

بعد لأحد أصدقاء البرناوي والشاعر الكبير الراحل محمد الأخضر السائحي رحمه الله، والشاعر الكبير محمد أبو القاسم خمار. وبمجرد أن سمع الثلاثة بالخبر حتى قرروا زيارة صديقهم لتعزيتِهِ في وفاة ابنته الصغيرة. وفي الطريق طلب عمر البرناوي من الشاعر السائحي أن يمتنع عن ترديد أية نكتةٍ بحضور الرجلِ المَكْلُومِ بسبب موتِ ابنته الوحيدة ،وراح السائحي يُطمئنُهُم ، ويقول لهم بأن المَقَامَ لا يسمحُ بقول النُكْتِ، خاصةً أن والد الصبية كان يحدثهم دوماً بأنه يجبها كثيراً، لأنها كانت تصنع لهم الفرح في البيت العائلي .وخلال وجود الثلاثة ببيت والد الصبية، سأل الشاعر السائحي والد الصبية عن سبب الوفاة .وراح الرجل يحكي والدموع تنهمرُ من عينيه بأنَّ والدته، أي جدةَ الصبية تركت سبحتها فوق مائدة الأكل، فإذا بالنت تأخذُ تلك السبحة لتلعب بها، وبعد أن مزقت خيط تلك السبحة ابتلعت حبةً منها، وبقيت تلك الحبةُ عالقة ببلعوم الصبية، ممَّا أدى إلى وفاتها قبل وصولها للمستشفى. وعندها راح السائحي يقول لوالد البنت: هل بقيتُ لديك حَبَاتٌ من تلك السبحة ؟ فسأله الرجل مستغرباً، لماذا ؟ فقال السائحي لوالد البنت: أنا لذي دزينة أطفال أي 12 طفلاً، وإنني أريد أن أقوم بنفس التجربة للتغلب على صَحْبِهِم!! وعندها انفجر والد البنت بالضحك من نكتة الشاعر السائحي¹.

¹ - محمد بوعرارة. النكتة في زمن الأزمات والكورونا. صحيفة الشعب:13 ماي 2020م

3 - الكاتب الصحفي سعيد بن زرقة، واحدٌ من أهمّ الأدباء الساخرين في الجزائر. صدرت له عديد الأعمال في الأدب الساخر. تصوّر خاطئ كان، ولا يزال من الشائع عنا نحن الجزائريين لدى بعض إخواننا في المشرق خصوصاً أننا متمزتون، وأنا نميل إلى العنف بدلا من المرح، وأن الجزائري لا يعرف النكتة إطلاقاً خاصة النكتة السياسية، بحيث أن بعض المشاركة يعتقدون أن النكتة خاصة مصرية. صحيح أن الجزائري مسكون بالروح الثورية، ومسكون بالصرامة والجدية، ولكنه مسكون أيضا بالمرح، وبالنكتة الجميلة، وعدم التهور لَمّا يتعلق الأمر بمستقبل الوطن.

نصوص من الأدب الساخر

1 - كان المُدرّب يُعطي دروساً تطبيقية في مادّة القتال، سأل أحد الجنود: ما هي الخطوات التي تتبّعها إذا هجم عليك واحدٌ من أفراد العدو، ويده سكينٌ؟ فأجابه الجنديّ: أتخذ خطواتٍ واسعةً، وأركض إلى الخلف.

2 - دخل أحدُ المفلسين مطعمًا، وقال لصاحب المطعم: ناولني عشاء، وإن رفضتَ فسأفعل مثلما فعل والدي، فخاف صاحبُ المطعم، وقدم له عشاءً فاخرًا؛ وبعد أن أكل المفلسُ وشبع سألَه صاحبُ المطعم: قل لي برّتك، ماذا فعل والدك؟ فضحك المفلس: ذهب إلى فراشه، ونام بدون عشاء.

3 - جاء البخيل يرى الدّار المعروضة للبيع، وراح يدور في غرفها، وبين لحظة وأخرى يمرّ متسوّلًّ بالبواب، فقال البخيل لصاحبها: " فيها عيبٌ" قال: وما هو؟ قال: " كثرة المتسوّلين في هذه الجهة"، فقال صاحب الدّار: " ما دمت لا تعطيهم شيئاً، فلا وجود لهذا العيب."

4 - توقّفت السيارة العتيقة أمام إحدى محطّات البنزين في توليدو بإسبانيا، وكانت السيارة في حالة يُرثى لها، ثم طلب السائق الكهل الذي يقودها من عامل المحطّة أن يضع فيها بنزيناً بدولار واحد، فسأله العامل مندهشاً: " لماذا لا تملأ خزانها كاملاً؟"، فأجابه السائق: " المسافة بيني وبين مدريد 70 كيلومتراً، وربّما لا تستطيع السيارة أن تتحمّل كلّ هذه المسافة."

5 - أحد الدعاة في حصّة متلفزة له. أطرها ديكورٌ تفنّن التقنيون في إبداعه. إضاءة أبرزت الداعية ملكاً على أريكةٍ عاليةٍ وثيرة. حرّم الداعية التصوير بكل أنواعه. هاتفه أحد المتتبعين للحصّة.

يا شيخ:

- صورتك اليوم جميلة في الحصّة..ملكٌ على عرشه.(ق.ق.ب. خلف)

6 - وقف في الصفّ الطويل أمام مكتب مراقبة جوازات السفر. وصل دوره. طلب منه الشرطي وضع كلّ ما في جيوبه.. وسترته. في الصندوق. طلب منه أيضاً وضع الحذاء والجورب. حرقه الشرطي

بنظرة غضب. تجمّد في مكانه. الصفّ وراءه يتحرّك بنرفزة. تقدّم
كي يجتاز بؤابة المراقبة الإلكترونية:
- انزع حزام السروال.. صرخ فيه الشرطي.
- نزعته منذ عشرين سنة.. أوشك أن أنزع السروال.
(ق.ق.ب.خلف)

أدبُ السجون.. توثيقُ الإنسان لبشاعة جرائم أخيه الإنسان

"دخل أسيرٌ لمكتبة السجن سائلاً عن كتاب، فأجابه السجان:
الكتاب ممنوع وغير متوفر، لكن مؤلفه في الزنزانة رقم 110!!"

"هل يمكن أن ترمم إرادة إنسان لم تغد تربطه بالحياة رابطة؟ أنا ذاك الإنسان؛
لا لست إنساناً، السجن في أيامه الأولى حاول أن يقتل جسدي. لم أكن أتصور
أني احتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت. كانت إرادتي هي وحدها التي تتلقى
الضربات، وتردّها نظراتٍ غاضبة، وصفاتاً؛ وظللت كذلك، لم أرهب، لم أترجع.
الماء البارد؟! ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام؟ ليكن التهديد بالقتل،
والرصاص حولي تثار؟ ليكن. كانت إرادتي هي التي تقاوم؛ والآن.. ماذا بقي
في، أو مني؟"

"أخطر ما في السجن أن تفقد احترامك لذاتك، لأنك إن فعلت صارت رقبتك بيد
جأدك، وصرت تتقبل منه الصفة في وجه الكرامة على أنها قبلة في خد
الرضى"

يُعنى أدبُ السجون بتصوير الحياة خلف القضبان وخارجها؛
كما يناقش الظلم الذي يتعرض له السجناء، والأسباب التي أودت
بهم إلى السجن. السؤال المفتوح حول هذا الأدب أهو أدبُ كتبه،
ويكتبه سجناء؟ أم أبطاله سجناء؟ أم عالم السجن محوره، وموضوعه،
ومادته؟ فالمتتبع للأدب عربياً، وعالمياً سيجد دون ريب أنّ هناك

كتابات عديدة عن هذا الأدب كُتبت ممن لم يُعتقلوا، أو يُسجنوا يوماً واحداً، كما الكثيرون من السجناء كتبوا الرواية، أو الشعر، أو القصة القصيرة وراء القضبان، دون تجربةٍ سابقةٍ، ودون دراية بالكتابة وفتها وأبدعوا.

"أدبُ السجون" ملازمٌ للقمع الذي رافق الطبيعة البشرية، فحضر في كلِّ اللغات، وفي كل الحقب والأزمان، وتطوعت أصوات عاشت تجارب الاعتقال، أو رويت لها، أو حتى من نسج خيالها، لنقل تجارب ما وراء القضبان إلى الجمهور في قوالب فكرية وأدبية متنوعة، وحتى فنونٍ تشكيلية. شكّل السجنُ عبر التاريخ أحدَ الهواجس التي شغلت الإنسان عبر التاريخ، إذ لا تكاد تخلو ثقافة أيِّ شعبٍ من هذه الظاهرة.¹

يُطلق أدبُ السجون على أي عمل أدبي، يسرد قصة شخص، أو جماعةٍ قضى، أو قضا مدةً زمنية طالت، أو قصرت محجوراً في مكانٍ ضدَّ إرادته، دون أدنى اعتبار لزمان الكتابة، أو جنسها؛ فلا ضير أن تُكتب على شكل يوميات أثناء الاعتقال، أو تُحررَ بعد مغادرة المعتقل زنزانته ومعاينة الحرية، ما دامت ملتزمة الشرط الموضوعي للتصنيف، المرتبط بتصوير مناحي الحياة خلف القضبان، وجميع الأحداث البشعة داخل السجن، وأصناف الظلم والبطش والمعاناة؛

¹ - محمد طيفوري. أدب السجون .. توثيق الإنسان جرانم الإنسان. الصحيفة الاقتصادية الدولية. 5 مارس 2020

مادية كانت أو معنوية، التي تعرّض، أو يتعرّض لها نزلاء السجن.. في تعريفه لـ "أدب السجن"، يعده الروائي مصطفى لغتيري؛ صاحب رواية "ابن السماء":

«تلك الكتابة التي تلامس تجربة الاعتقال السياسي إبداعيا. فهي بذلك تتخذ من الكتابة وسيلة لتصنيفية الحساب مع تجربة إنسانية، ووجودية ونفسية مريرة، قد يكون المرء قد عاشها فعليا، أو سمع عن تفاصيلها من أحد السجناء، أو هي فقط عبارة عن تجربة متخيلة لها ما يدعمها في الواقع، ممّا حدث لكثير من السجناء، وتناقضه الألسنة أو وسائل الإعلام.. إنّه أدب يُحاول توثيق أبشع جرائم الإنسان تجاه الإنسان»¹

أدبُ غايته كشفُ الهول والفضاعة

الغاية من أدبِ السّجون هو كشفُ هؤل، وفجاعة، وفضاعة ما يعيشه الأفراد في الأقبية والمعتقلات، فأخطر ما في السجن أن تُفقد احترامك لذاتك. تاريخيا، يصعب تحديد العمل المؤسس لـ"أدب السجن"، صعوبة الحديث عن أول سجين في التاريخ، ومن اخترع السجن؟ وكيف كان شكلُ السجن الأول؟ وهل كانت تجربة السجن الأولى فردية أم جماعية؟..

¹ - محمد طيفوري. مرجع سابق.

بعض المصادر التاريخية تُحدّد بداية الكتابة في "أدب السجون"، مع بوثيوس الفيلسوف والسياسي الروماني¹، في كتابه "عزاء الفيلسوف"، الذي يُرَجَّح أنه كُتِبَ أثناء وجوده في السجن، انتظاراً لتنفيذ حكم الإعدام فيه ؛ تبقى الكتابة عن تجارب السجون قديمة جداً، قدم فعل الاعتقال، وفكرة السجن ذاتها. يكتشف القارئ لأي عمل إبداعيٍّ ينتمي إلى هذا النوع من الأدب من أنه أدبٌ إنسانيٌّ، نضاليٌّ، انسلَّ من رحمِ الوجعِ اليومي، والمعاناةِ النفسية، والقهرِ الذاتي، حيث تمتزج مشاعر المكابرة، وعزّة النفس بأحاسيس الذلِّ، والإحباط، والانكسار، ويختلط الألم بالأمل في فضاء السجن، حيث لا يموت الإنسان من الجوع، أو من الحرِّ، أو البرد، أو الضرب، أو الأمراض أو الحشرات؛ لكنه قد يموت من طول الانتظار. معتقلات تكاد سماتها تكون متشابهة، ينطبق عليها المثل القائل "الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود".

على غرار باقي الشعوب والأمم، كان حصاد العرب في أدب السجون وافراً، عبّر تاريخ يمتدُّ إلى عصر الشاعر أبي فراس الحمداني، ويرجح أن يكون حتى قبله، حين كتب "روميّاته" في سجون الروم، لكن فورة هذا الصنف الأدبي لم تزدهر إلا في القرن الماضي، مع مجيء الاستعمار، وما تلاه من احتدام للصراع على السلطة في عديد من

¹ - آ سيفيرنيوس بوثيوس فيلسوف وسياسي روماني "480 - 525" اشتهر بكتابه "عزاء الفيلسوف"

الدول العربية، أفضى هذا الأمر إلى ارتفاع منسوب الدسائس والمؤامرات، فيما بين الأطراف المتصارعة "الأنظمة / المعارضة"، ما عجل بفتح الباب على مصراعيه للاعتقال السياسي. في رفوف الخزانة العربية عينات من "أدب السجون"، لا محالة سيعاني القارئ كثيرا أثناء قراءتها، لقدرة أصحابها الفريدة؛ على استعمال اللغة والعناية بالأسلوب، وتوظيف التركيب لجرّ القارئ إلى معايشة التجربة معهم وراء قضبان الزنزانة.

في الأدب العالمي: تاريخُ الأدبِ العالميِّ حافلٌ بالعديد من الأعمال الأدبية التي تندرج تحت أدبِ السجون، ابتداء من العصور القديمة، وحتى الزمن الراهن سواء في الغرب أو الشرق. ففي الادب الامريكي نرى الشاعر (آزارباوند) قد أودع السجن لتعاطفه مع موسليني. في سجنه كتب ديوانه الشعري وأسماه (بيزا) ... امتازت مجاميعه الشعرية ببراعة الأسلوب، والصور، والمشاهد البالغة الحساسية. كتب مفهومه للحياة وهو ينتقل بين قبوات السجون، واعتُبرت تجربته مدرسة من المدارس التجديدية في عهده؛ وفي الأدب الانكليزي كان "جون بنيان" واعظا دينيا قبل دخوله السجن، وفي سجنه كتب الجزء الاول من رائعته "رحلة الحاج"، قصة رمزية تتكلم عن المدينة السماوية التي لا شرَّ، ولا ظلم فيها، ثم أتم روايته بعد خروجه من السجن، واعتُبرت نموذجا للروايات الفلسفية، ومنهجًا من مناهج الكتابة حينها؛ وفي الادب الروسي كتب شلاموف مجموعته القصصية، وأسمائها: (قصص

من كاليم)، وكانت سبب شهرته في روسيا حيث كتبها في معسكرات الاعتقال في مقاطعة "كاليم" ناقدا التجربة الشيوعية، ونشرت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي؛ وفي الادب الفرنسي يُحكي أن جان جينيه أُودع في السجن لضبطه يسرق، بداية احترافه للسرقة فحوكم، وُودع في السجن مدّة 28 عاما، فأصبح عدوا للمجتمع ممّا أرشده سجنه هذا الى طريق الادب، فأنشد أول قصيده كان عنوانها "عقوبة الإعدام"، وتلتها قصائد أخرى أهلتته بعد خروجه من السجن إلى أن يكون ضمن الشعراء الفرنسيين البارزين، تُدرس تجربته الشعرية في المعاهد والكليات الادبية الفرنسية.

كما كانت السجون واغلةً في تاريخ العرب منبثقة من حياتهم السياسية والاجتماعية، كذلك كان أثرها بعيداً متأصلاً في لغتهم، وصور أدبهم، فمنذ الجاهلية، وعصور المناذرة، وأيام الغسانيين انفتت الشعراء إلى السجون، وجاء على ألسن المساجين منهم كثيرٌ من الشعر الرائع في وصفِ السجون، وتصويرِ أوضاعها، ومكارهاها؛ ولعلّ للتأثر البالغ الذي يصدر عنه الشعراء، والأدباء وهم بين جدران سجونهم نتيجة للأحوال المرهقة، الأثر الكبير في أيقاظ ملكاتهم، وشحن قرائحهم الحال الذي جعل من السجون عاملاً قوياً في تركيز الأدب، وإعلاء مقاييسه؛ فاتّسم أدب المساجين بطابع القوة، وتميّز بمظاهر

الحياة، وارتفعت فيه المقاييس، فكان في الذروة فيما تناول من سوانح،
وتأملات وصور¹.

قال طرفة بن العبد يلوم أصحابه على خذلانهم إياه²:

أَسْلَمَنِي قَوْمِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِسَوَاءٍ حَلَّتْ بِهِمْ فَادِحَهُ
كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَئُهُ لَا تَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَهُ
كُلُّهُمْ أَرَوْعٌ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحِهِ

عنتر بن شداد وقع أسيراً في أرض المناذرة بعد ما خاض غمار
حرب عوان طلباً للنوق العسافيرية التي قطعها عليه عمه كما يظهر
ذلك من القصيدة التي قالها وهو في سجن المنذر³:

ترى علمت عييلة ما ألقى من الأهوال في أرض العراق
طغاني بالربا والمكر عمي وجار علي في طلب الصداق
فخضتُ بمهجتي بحر المنايا وسرت إلى العراق بلا رفاق
وسقت النوق والرعيان وحدي وعدت أحرّ من نار اشتياقي
وما أبعدت حتى ثار خلفي غبار سنابك الخيل العناق

وعدي بن زيد العبادي من بني تميم موطنه الحيرة، تعلم الكتابة
والكلام حتى كان أفهم الناس بهما، وأفصحهم بالعربية، وقال الشعر،
وتعلم الرمي بالنشاب، ثم اتصل بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة،
ونادمه طويلاً، حتى وشى به بعض أعدائه عند النعمان، فقبض عليه،

1 - محمد صالح رشيد الحافظ. أدب السجون. الحوار المتمدن-العدد: 3799 - 25 / 07 / 2012

2 - طرفة بن العبد. الديوان

3 - عنتر بن شداد. الديوان

وحبسه في السجن، وما زال يشدد عليه فيه، وعدي يتوسل إليه بأرق الشعر إلى أن هلك في محبسه بعد أن سجّل له تاريخ الأدب في هذا السجن قصائد مملأى بالعواطف الإنسانية، والبكاء المُرّ،¹ من أوجع هذه القصائد قوله

أبلغا عامرا، وأبلغ أخاه
في حديد الفسطاس، يرقبني الحا
في حديد مضاعف، وغلول
فاركبوا في الحرام فكوا أخاكم
أنبي موثق شديد وثاقي
رس، والمرء كل شيء يلاقي
وثياب منضحات خلاق
أن عيراً قد جهزت لانطلاقي
أبو محجن الثقفي جاهلي إسلامي، كان فارساً شريفاً من ذوي
البأس، مُولعاً بالشراب، أُقيم عليه الحد مراراً، ونفاه الخليفة عمر بن
الخطاب رضي الله عنه إلى جزيرة في البحر " قصر العذيب"، وبعث معه
رجلاً، فهرب منه، ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسية، وهو يحارب
الفرس، فحبسه سعد في أسفل القصر. فحبا حتى صعد إلى سعد
يستشفعه، ويسأله أن يُخلّي عنه ليخرج، فزجره سعد، وردّه فانحدر
راجعاً يرْسف في قيوده وهو يقول:

كفى حزناً أن تلتقي الخيل بالقنا
إذا قمت غناني الحديد وغلقت
وقد كنت ذا مالٍ كثير وإخوةٍ
وأترك مشدوداً علي وثاقي
مصارع دوني قد تصم المناديا
فقد تركوني واحداً لا أخا ليا

1 - عدي بن زيد العبادي. مجلة الرسالة/العدد 978/شعراء

خبيب بن عدي الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا وأسر في سنة ثلاث من الهجرة، وأسره المشركون مع زيد بن الدثنة، فانطلقوا بهما إلى مكة، فباعوهما فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر فمكث أسيراً عندهم أياماً؛ ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا من الحرم ليقتلوه، فقال لهم دعوني أصلي ركعتين، فكان أول من صلى ركعتين عند القتل، ثم قال اللهم أحصهم عدداً، وقال¹:

قَبَائِلُهُمْ وَاسْتَجَبُوا كُلَّ مَجْمَعِ	لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَالْيَوْمِ
عَلِيٍّ لَأَيِّ فِي وَثَاقِي بِمَضْبَعِ	وَكَلَّهُمْ مُبْدِي الْعَدَاوَةِ جَاهِدُ
وَقُورِيَّتُ مَنْ جِدَعٍ طَوِيلٍ مُمْنَعِ	وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ
وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي	إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُزْرَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي
فَقَدْ بَضَعُوا حَلْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي	فَذَا الْعَرْشِ صَبْرَتِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي
وَقَدْ هَمَلَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْرَعِ	وَقَدْ حَيَّرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتَ دُونَهُ
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي	فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا

ومن الواقع العربي الحديث، والمعاصر، الكثير من المثقفين ممن أودعوا السجون منهم الدكتورة نوال السعداوي لشجاعتها في نقد سياسة السادات، فكتبت في السجن روايتها: "مذكراتي في سجن النساء"، "امراتان في امرأة"، " امرأة عند نقطة الصفر"، كلها عرّت شخصيات سياسية من معتقداتها، وكذلك أفرزت السجينات من اللاتي يحملن عادات، وتقاليد؛ وإلى من هن يحملن أفكاراً سياسية ناقدة، ومؤثرة. فريدة النقاش المبدعة التي كتبت روايتها " قضبان

1 - قصيدة لخبيب بن عدي رضي الله عنه. هينة الشام الإسلامية

وورود"، وقد عبرت هذه الرواية عن تأثير السجن على المبدع؛ كما يشاركها الكاتب الراحل مصطفى طيبة، وفتحي عبد الفتاح اللذان كتبا مذكراتهما داخل السجن، حيث صاغوا يومياتهم في السجن على النمط الغربي وأسماها: "رسائل سجين سياسي الى حبيبته"، إذ شرحا واقع السجن بأسلوب أدبي رائع، أيضا ما فعله الدكتور عبد العظيم أنيس الذي أرسل برقيات حبٍ إبداعيةٍ الى زوجته من وراء القضبان؛ ولعل تجربة نجيب سرور الذي تجول في المعتقلات في سبعينات القرن الماضي، فقد كتب رباعياته متأثرا بالشاعر أبو العلاء المعري في إحدى المستشفيات العقلية في مدينة الاسكندرية، حيث مرّ بأزمة نفسية. كما تخرج من السجون الاسرائيلية كبار الابداء، والكتاب الفلسطينيين، فقد سطروا في كتاباتهم ملحمة الشعب الفلسطيني.¹

الأدب الفلسطيني أدبُ السجون والغربة

الكتابات الاعتقالية الفلسطينية تمتاز عمّا سواها من النتاجات العربية والعالمية، بأنها الأغنى والأكثر شمولية وزخما من حيث الكم والكيف بين تجارب الشعوب وحركات التحرر، ويعود ذلك إلى ارتباطها بالقضية الفلسطينية وتحرير فلسطين، وطبيعة الاحتلال الإسرائيلي حيث الأطول في التاريخ، ولم يبق شعب من شعوب العالم تحت الاحتلال غير الشعب الفلسطيني. ومن أشهر رواد الأدب

¹ - محسن عبد الكريم. هل السجون عامل من عوامل الابداع ؟ المجلة الثقافية الجزائرية .

الفلسطيني: غسان كنفاني، ومحمود درويش، وفدوى طوقان وآخرون..
وآخرون..

توثيق المعاناة الشخصية

رغم قرار منع الورقة والقلم، وإجراءات التفتيش الفجائية لملاحقة من يُخبئها، ومعاينة حاملها؛ إلا أن الأسرى ابتكروا وسائل غاية في السرية لحمايتها، والكتابة عليها، ومن ثمّ تهربها، وقد كتب الأسرى في البدايات، على ورق الكرتون، وورق لفّ البرتقال، وورق عُلب الحليب، وورق لفّ الزبدة بعد غسلها وتجفيفها، استطاع عددٌ من الأسرى إصدار كُتُبٍ تحمل ألهمهم وهمّهم، ومن هذه الكتب ما صدر، وطُبِع خلال فترة وجود الأسير في السجن، ومنها ما طُبِع بعد خروجه. من هذه الكتب¹:

1- "حكاية صابر" لمحمود عيسى 2 - "ألف يوم في زنزانة انفرادي
لمروان البرغوثي 3 - "محاكمة شهيد" وكتاب "عكس التيار" لوليد
خالد

4 - "مهندس على الطريق" لعبد الله البرغوثي. 5- رواية عمر القاسم
لأحمد قاسم. 6 - " قيود حرة" لثامر عبدالغني سباعنة 7 - حكاية
الدم زاهر جبارين. 8 - "الزنزانة رقم 706" لجبريل الرجوب. 9 -
"الأسرى.. حقوقهم، واجباتهم، أحكامهم" لناصر عبد الجواد. 10-

1 - سباعنة ثامر. الاعتقال وأدب السجون في فلسطين. قاب قوسين /صحيفة ثقافية.

"ساعات ما قبل الفجر" لمحمد خليل عليان. 11- "الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية" للأسيرة أياذ الرياحي. 12 - "ستائر العتمة" لوليد الهودلي

13 - "أحلام بالحرية" لعائشة عودة 14 - "ترانيم من خلف القضبان" لعبد الفتاح حمائل. 15 - "أسفار العتمة" لياسر ابو بكر. 16- "صهر الوعي" وكتاب 17 -"يوميات المقاومة في مخيم جنين" لوليد دقة 18 - "نور السجن لا نار السجن" لعمر محمد غانم. 19- "نداء من وراء القضبان"، و 20 -"عناق الأصابع" لعادل وزوز. 21 - "الأسرى أولاً" لخالد سعيد. 22 - "يوميات أسير محكوم مدى الحياة" لمؤيد شكري حماد. 23 - "رمل الأفعى"، و 24 - "أحلام ابن النبي"، و 25 - "فضاء الأغنيات"، و 26 - "زمن الصعود"، 27- "ورغوة السؤال"، وقصص متناثرة في 28 -"كشكول الذهب"، و 29 - "عباءة الورد"، و 30 - "سرديات الجنون" للتوكل طه. 31 - "حرب العصابات بين النظرية العلمية والتطبيق الفلسطيني" لمحمد ناجي صبحه. 32 - رواية "المسكوبية" لأسامة العيسة. 33 - "عندما يزهر البرتقال" لعمار الزبن

34 "الاعتقال والمعتقلون بين الاعتراف والصمود" لحسام خضر 35 - "أيام مشينة خلف القضبان" لمحمد أحمد أبو لبن.
روايات فلسطينية مميزة كتبت في سجون الاحتلال

أبرز خمس روايات كُتبت بمداد الوجد في السجون، وخرجت منه
تقريباً عبر الكبسولات، لترى النور قبل تحرير كتابه¹:

1 - رواية "حكاية صابر"، هي حكاية «محمود عيسى» ذلك الأسير
الفلسطيني وراء القضبان منذ عام 1993 والمحكوم بالسجن المؤبد
ثلاث مرات بالإضافة إلى ستة وأربعين سنة أخرى. حيث يعرض
الأسير عيسى حكايته في شخصية «صابر» الذي يُعبر عن شعب
بأكمله، مرت مراحل نموه بانكسارٍ كبير من الميلاد في النكسة، وما
تلاها من فساد ونهب للثروات والتاريخ والأصالة.

2 - "أمير الظل.. مهندس على الطريق" لعبدالله برغوثي. حكاية الألم
التي تجرّعها الأسير «عبدالله البرغوثي» في ظلمة الزنازين، حيث نظم
حروف مشاهدها في 165 صفحة، الأسير المحكوم عليه بالمؤبد 67
مرة. يبدأ روايته بالرد على رسالة ابنته الكبرى «تالا» التي شهدت
لحظة اعتقاله عام 2003، تلك الرسالة التي خلت من أي حروف
وعلامات إلا الاستفهام: «من أنت؟، ولماذا أنت؟»، تسأل عن ذلك
الأب الذي تركها في السيارة لحظة اعتقاله، وسافر خلف القضبان
دون أن يُحدد موعداً للرجوع. ويبدو أن صعوبة السؤال ووجع الإجابة
جعلته يخط روايته «أمير الظل: مهندس على الطريق» في ترنيمة أشبه
إلى السيرة الذاتية، كتبها في ظلمة العزل الانفرادي، تلك الزنزانة

1 - أصرف محسن . 5 روايات فلسطينية كُتبت في سجون الاحتلال الإسرائيلي. 15 - 11 - 2017
موقع إضاءات. <https://www.ida2at.com>

الشبيهة بالحد الفاصل بين الحياة والموت، ليعرّف بذاته ويمنح ابنته تالا إجابة، علّها تُعينها على لجم خوفها وتمنحها فرصة لترى والدها؛ الممنوع عليها زيارته ورؤيته إلا في بعض صور التقطها في رحلاته وأسفاره الطويلة والبعيدة قبل أن يؤسر من قوات الاحتلال الإسرائيلية.

3 - "ستائر العتمة" للأسير وليد الهودلي من سجنه في عسقلان عام 2001، فيما صدرت طبعتها الأولى بعد عامين؛ الأول كانت فيه مخفية لم يعرف بها أحد سوى الكاتب، والثاني بقيت خلاله تحت النشر.

يحكي الهودلي في روايته عن تجربة التحقيق والاعتقال وظروف السجن، ويستعرض أساليب التعذيب التي يواجهها الأسرى الفلسطينيون على يد المحققين الإسرائيليين، أملاً في سحب اعترافاتهم؛ بدءاً من عُرف العصافير التي يتم فيها خداع الأسير، وصولاً إلى عمليات الشبح المتواصلة، والتي تتم عبر تقييد الأسير على كرسي لساعات طويلة يكون فيها مربوط اليدين والقدمين إلى الخلف.

4 - "الرباعية الوطنية"، وصفها البعض بـ «رباعية العشق»؛ لأنها تُذكر بأدب الأدباء الثوار ممن خاضوا تجارب الثورة والنضال، وذاقوا وبال المعاناة، وآلام التعذيب والحرمان، سُميت بالرباعية كونها تضم أربع روايات: «عاشق من جنين»، و«الشتات»، و«قلبي والمُخيم»، و«لن يموت الحُلم». كتب تفاصيل مشاهدا الأسير المُحرر عام 2005،

رأفت حمدونة، داخل أقبية سجن نفحة، وعمد إلى تسريبها سرًا لئنشر بعد ذلك وترى النور في طبعتين.

5 - " ستائر العتمة " «أيتها النفس التواقفة للرحيل على ذلك الجناح الميمون، اسكني، فالدروب دونك مسدودة، والجسد تثقله الأغلال، وإذا كنت لا تستطيعين، فتحرري منه، وعيشي الخيال وتسلي مع الأطياف؛ أطياف من عشقوا فصدقوا فصدقهم الله.» تلك أولى الأسطر في الرواية التي اختار فيها الأسير المحرر في 2011م شعبان حسونة، أن يُحاكي حياة الاستشهادي بمشاهد مكتوبة غنية في تفاصيلها بالتشويق والإثارة والعاطفة والتأصيل لفكرة المقاومة لاسترداد الحق المسلوب.

هذه الرواية بالإضافة إلى رواية «ظل الغيمة السوداء» كانتا السبب في منح كاتبهما الأسير شعبان حسونة عضوية اتحاد الكتاب الفلسطينيين عام 2005، فرغم أن الأسر اختلس من عمره 22 عامًا داخل الغرف الرمادية إلا أنه استطاع أن يُلوّنها بكتاباتهِ التصويرية القائمة على الشفافية والخيال الواسع. وعلى مدى سنوات الأسر كان يُسرب كتاباته خلصةً بعيدًا عن أعين السجانين في كبسولات ورقية كل واحدة منها لا تكبر عن حجم نصف كفّ اليد، وكان قد سرّب روايته «ظل الغيمة السوداء» في عشر كبسولات بخط دقيق جدًا، عاجلت قضية السقوط في وحل العمالة مع الاحتلال، وناقشت بعض المفاهيم الخاطئة التي تُفحم أسرة العميل في ذنبه.

كتابات مستلهمة من المعاناة الشخصية

في العصر الحديث استلهم معظم الأدباء في هذا النوع من الأدب، أعمالاً من تجارب شخصية كتبوها إما خلال تواجدهم في السجن، أو بعد إطلاق سراحهم، وفي بعض الأحيان من خلال سرد تجربة سجين لأحد الروائيين الذي يقوم بتوثيق التجربة بصيغة أدبية.

ففي أدبنا العربي الحديث مئات الأحداث التي تصلح أن يتناولها الكتاب والشعراء في نتاجاتهم، واستطاع بعض هذه الأعمال أن يجد المنفذ للطبع والنشر، وبعضها عُدت من الممنوعات، فصودرت من بيوت الأدباء أو المطابع أو من دور النشر والعرض!!.

وقد كتب العديد من الروائيين العرب في أدب السجون، منهم: 1- رواية " نيعاتيف، من ذاكرة المعتقلات السياسيات لروزا ياسين حسن. رواية توثيقية، تكشف فصولها عن معاناة المعتقلات السياسيات داخل السجون السورية خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، وتفضح قمع النظام السوري في تعامله مع المعارضة النسائية بشقيها الشيوعي، والإسلامي كأبرز اتجاهين للمعارضة النسائية بسورية. كما تُعري أيضاً ضمن هذا العمل مآسي إنسانية عديدة يكشف عنها النصُّ الأدبيُّ في أكثر من موضع من الرواية.

2 - رواية " القوقعة" لمصطفى خليفة، رواية جسد فيها قصة سجنه، وتعذيبه طوال 13 عاماً في السجون السورية، بعدما تم القبض عليه في مطار سوريا في أثناء عودته من فرنسا، وظل طوال هذه السنين،

يُعذَّب بكافة أنواع وأشكال ومفاهيم التعذيب، النفسية والجسدية، دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه. مصطفى خليفة مخرج سينمائي قبل أن يكون كاتباً، وهذا جليٌّ في كتابته حيث صوّر مشاهد التعذيب، كما لو كان يروي فيلماً، لذلك من الصعب جدًّا خروج هذه المشاهد المصوّرة ببراعة من مخيلتك.

3- رواية " شرف" للروائي المصري لصنع الله إبراهيم. رواية "شرف" رواية سوداوية، تناقش أسرار، وخبايا السجون المصرية بفسادها وطغيانها، وما يدور داخلها من ظلم، وافتراءات، كما تسلط الضوء أيضاً على ما يعانیه الاقتصاد، والمجتمع المصري من كوارث. الرواية مليئة بالأحداث التاريخية، والاقتصادية، والسياسية.

4 - رواية " شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف. أول رواية عربية تنتمي لأدب السجون، وبفضلها تجرأ الكتاب على التطرق لهذا النوع من الأدب، حيث تلتها عديدٌ من الروايات التي تُصنّف تحت أدب السجون. تناقش الرواية الاعتقال السياسي، والقمع في الدول العربية دون تحديد أسماء أو مدن.

5 - رواية "خمس دقائق وحسب.. تسع سنوات في سجون سورية"، هبة الدباغ تحكي الرواية معاناة الكاتبة داخل السجون السورية، ويجسد عنوان الرواية ليلة القبض عليها، عندما طلب منها رئيس المخابرات أن تحضر معه للتحقيق 5 دقائق وحسب، فعادت إلى بيتها بعد 9 سنوات.

الرواية لا تسلط الضوء على التعذيب داخل السجون بقدر ما تركز على السجين نفسه، وحالته النفسية، وعلاقته بمن حوله. لم تكن هبة الدباغ متهمة بشيء، فقط كل ما في الأمر أن أخاها كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، فتم القبض عليها لاستدراجه، وبعد خروجها من السجن لم تجد أحداً من عائلتها، فقد تمّ إعدامهم جميعاً بمجزرة حماة 1982، الرواية تحمل أملاً كبيراً، والكثير من المآسي التي تتعرض لها الكاتبة.

6 - رواية " ترممات " الزنانة رقم 10 لأحمد المرزوقي، رواية يحكي فيها الكاتب عن معاناته طوال 18 عامًا داخل سجن "ترممات" لتورطه في محاولة انقلاب 1971 ضد ملك المغرب الحسن الثاني، فشلت المحاولة، وتمت محاكمته عسكرياً، وترحيله إلى سجن "ترممات"، وهناك تلقى أشد أنواع العذاب.

7 - رواية " تلك العتمة الباهرة" للطاهر بن جلّون، تتحدث عن معتقل "ترممات"، تروى مأساة أحد السجناء الذين تورطوا في انقلاب الصخيرات بالمغرب، وهو السجين عزيز بنين، الذي قضى عامين في السجون المغربية، ثم نُقل إلى جحيم "ترممات" ليقضي فيه 18 عامًا.

8 - رواية " أيام من حياتي" لزينب الغزالي، رواية من أقدم الروايات المصنفة تحت أدب السجون، بطلُ الرواية هذه امرأة، وهى زينب الغزالي السياسية المنتمية لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، تدور

أحداث الرواية خلال مدة حكم جمال عبدالناصر، حيث تسلط الضوء على التضييق الممارس تجاه الإسلاميين آنذاك، ثم تنتقل الأحداث إلى داخل السجن، حيث قضت زينب الغزالي 6 سنوات من الألم.

9 - رواية " السجينة" لمليكة أوفقيير، مليكة ابنة الجنرال أوفقيير، التي عاشت حياتها في القصور، لتجد نفسها فجأة، وبدون سابق إنذار قابعة بين أربعة جدران هي وعائلتها، تروي مليكة محاولة والدها الانقلاب على الملك الحسن الثاني، وكيف تجرعت العذاب طيلة 15 عامًا، هي وعائلتها جرّاء هذه المحاولة التي باءت بالفشل. الرواية مأساوية بالدرجة الأولى، وأسلوب السرد مؤلم، لن تتخيل أن هذه الأحداث حقيقية لشدة قسوتها، إنها حياة السجن التي تفوق كل التوقعات.

10 - الكتاب " بين السجن والمنفى" لأحمد عبد الغفور عطار. كتاب يروي قصة اعتقال العطار تسعة أشهر عام 1936 قضاه في سجن القرن في مكة المكرمة، ثم في سجن المصمك في الرياض بسبب وشاية. وحين ثبتت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وهي الكتابة ضد المملكة في الصحف المصرية حينذاك، أمر الملك عبدالعزيز آل سعود بإطلاق سراحه وتقديره.¹

¹ - المحرر الثقافي. 10 كتب عربية تروي حكايات السجن. مجلة فكر الثقافية. 25 - 11 -

قال الناقد المصري محمود أمين العالم عن الرواية العربية في أدب السجون، إنها: « تدرج رواية السجون أساساً في إطار الرواية الدرامية حيث يشكل المعتقل في حد ذاته الحدث، في حالة الفعل والحركة ؛ إنه الحياة في ذروة احتدام الصراع بين الحدود القصوى لمكوناتها في مكان ضيق تنحصر فيه العلاقة بين الضحية ومجاهدة جلادها؛ كما تتنوع تقنيات رواية السجن بين التداخيات، والانتقال بين الزمان، والمكان الداخلي والخارجي¹».

في الأدب العالمي...

وفي الأدب العالمي نماذج كثيرة يمكن تصنيفها بأدب السجون، فقد استلهم الروائي الاسباني² ميغيل سيرفانتس (1547- 1616) روايته الشهيرة "دون كيشوت" التي نشرت عام 1605 من الفترة التي قضاها سجيناً، بعد اعتقاله عام 1575 مع فريق السفينة التي كانت تنقل فريقاً من الجيش الاسباني إلى برشلونة. أمضى سيرفانتس خمس سنوات كأسير، أو بالأحرى كعبد، مع أربع محاولات فاشلة للهروب. ولم يُطلق سراحه إلا بعد دفع عائلته، وهيئة دينية لفدية كبيرة؛ وإلى جانب روايته الشهيرة التي تُعتبر من أهم الروايات ل بدايات الأدب الحديث

1 - رشا المالح. رواية السجن تتمرد على الكلاسيكية. صحيفة البيان الكويتية. 13 فبراير 2011

2 - ميغيل دي سرفانتس. رواية دون كيشوت. مكتبة طليطلة لتحميل الكتب

كما سطر الروائي، السجين الفار الفرنسي هنري شاربير (1906 - 1973) تجربته في السجن من خلال روايته "الفراشة"، حيث أتهم شاربير بجريمة قتل أحد السماسرة، وأدين على الرغم من براءته، ولُفقت التهمة بشاهد زور، وأُصدر الحكم عليه بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة في 26 أكتوبر 1931م، وبعد سجنه لفترة مؤقتة، تمّ نقله إلى سجن مستعمرة غويانا الفرنسية. وفي عام 1970م أشعل شاربير النار في العالم، حينما نشر روايته "الفراشة" التي تحكي تجربته الحياتية على مدى 13 عاما، ابتداء من 1932م وحتى 1945م وصور فيها البؤس، والمعاملة اللاإنسانية للنظام الفرنسي بشأن المحكوم عليهم، وقد حقق روايته فور نشره نجاحًا واسعًا وبيعت منها ملايين النسخ، وتربعت على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، وتحولت الرواية إلى فيلم سينمائي رائع بعنوان: "صايد الفراشة"¹. وأمضى الشاعر، والروائي الصيني زانغ كزليانغ الذي ولد عام 1936م، اثنين وعشرين سنة من حياته في السجون، ومعسكرات إعادة التأهيل خلال حكم الزعيم ماو تسي تونغ. وبدأ بكتابة، ونشر قصائده حينما كان في الثالثة عشرة من عمره، وقد ساهمت دراسته للفن والأدب في الأربعينات، والخمسينات في تكوين أساسي صلب ساعده في الصمود خلال سنوات الأسر في المعسكرات. تُغطي أحداث روايته: "نصف الرجل امرأة" المرحلة الأخيرة من الثورة الثقافية التي تنتهي بمقتل

1 - هنري شاربير. رواية الفراشة. منتديات الساخر

الثائر زوابنلاي في يناير، وتبدأ أحداثها في ربيع عام 1966، حين كانت الثورة الثقافية تستعدُّ للانطلاقِ بهدفها في تغييب إرادة الإنسان لصالح السلطات. وكتب الروائي النيجيري كين سارو ويوا 1941 - 1995 خلال وجوده في السجن في خضمّ الحرب الأهلية ما بين 1967 إلى 1970 روايته "الفتى سوزا"، يحكي فيها قصة فتى قرويٍّ ساذجٍ تمّ تعيينه في الجيش خلال الحرب الأهلية، كما تطرّق في روايته إلى الفساد السياسي، والحكام، والنظام العسكري.

كما صوّر الروائي الجنوب أفريقي أليكس لاغوما 1925 - 1985 في روايته "في ضباب نهاية الموسم"¹ التي كتبها خلال تواجده في السجن، سيرته الذاتية إلى جانب حياة أفراد المقاومة السرية في مدينة كيب تاون ضد التمييز العنصري، الذين كانوا يخاطرون بحياتهم لأجل حريتهم كل يوم، وقد نشر الرواية عام 1972. ويُمكن عدُّ الرواية التي نشرها الدكتور نجمان ياسين في جريدة الحدباء في حلقات تحت عنوان "موسيقى سوداء" من أدب السجن بامتياز لأنها تسجل بالوثائق والأدلة فترة عصيبة عاشها بطلُ الرواية، وغيره من العراقيين داخل معتقلٍ للمحتل الأمريكي، وتكاد أحداث الرواية لا تخرج من فضاء ضيق، أبعاده لا تتجاوز غرفة الاعتقال، وغرفة التحقيق/ التعذيب، وممرّ خارجي ضيقٍ مظلم!؛ إلا أن هذا الفضاء كان أحياناً يُخترق إطاره المكاني والزمني بصور، وخيالات ومشاعر أليمة؛ وخاصة

1 - أليكس لاغوما.. في ضباب نهاية الموسم. الموسوعة العربية

حين تزداد ممارسات السجنائين قسوة، وإذلالاً لقيم الرجولة، والمواطنة، والإنسانية التي يعتزّ بها كل إنسانٍ حُرِّ. المقطع التالي يُظهِرُ عما يشعر به المثقف العربي المسجون حين تنال منه قوة أجنبية غاشمة محتلة¹:

«ماذا يفعلون بنا يا إلهي؟! يصرون على أن نظل يقظين، ويمنعون النوم عنا لئلا ندركه، إذا نمنا منعونا، تأتينا اللطمات، والصرخات؛ فالنوم ممنوع.. يمنحوننا بعد أن نصير خرقة هشّة، ثم يوقظوننا بخشونة ويصرخون: انهض، انهض.. ومن لا ينهض! يُركل ويصبون عليه المياه القذرة الباردة. كم مرة أدركني الإشفاق، والفرق وأنا في قلب هذا الظلام المرعب! وكم مرة تملكني الدهول، والنعاس وأنا أتقلب في دائرة التيه والضياح!... كانوا قد أفقدوني بالتدريج الإحساس بالأيام، وبأني مرميٌّ خارج الزمن.»

هكذا يعد أدب السجون من أصدق أنواع الكتابة وأعذبها، سواءً كان ذلك على مستوى السرد، أو على مستوى الشعر، وذلك لأنه وليد تجربة حيّة وصادقة، فالإبداع يولد من رحم المعاناة؛ لذا فإن قراءة مذكّرات السجين وحدها كافيةٌ للمتعة والعبرة معاً، كيف لا وقد أُضيف على تلك المذكّرات الصبغة الروائيّة التي تُخرجها من كونها سيرة ذاتيّة إلى أن تكون أحداثاً تُروى خارج أسوار السجون.

1 - شابٌّ عربيٌّ كان طالباً ثانويّاً، يقيم في إيرلندا، زار بلده أثناء العطلة الصيفية وكان في زيارة عائلية في أوت 2013، وساقه مصيره

1 - محمد صالح رشيد الحافظ. أدب السجون. الحوار المتمذّن. العدد: 3799 - 25 - 07 - 2012

إلى الاعتقال أثناء تصويره احتجاجاً. وفي رسالة مرعبة تم تهربها من محبسه، وصف ألوان التعذيب التي يعانيها المعتقلون في السجن: «.. من التعليق على ألواح خشبية، وأطواق حديدية، والصلب في ممرات عنابر السجن، والتعذيب الجنسي، وإجبارهم على مشاهدة زملائهم، وهم يُعذَّبون قبل أن يذوقوا من الكأس نفسها. أستيقت كل صباح على صرخات السجناء وهم يعذبون، وصدى القضبان التي تُلهب أجسادهم، وكانوا يضربوني بمواسير السباكة البلاستيكية، ويكيلون لي الصفعات، واللكمات، والرُّكل والسَّخْل، والصدِّق الكهربائي، والضرب بكعب الرشاشات. كانوا يضربونا بالمكانس، ويعلقون البعض كالذبيحة على لوح خشبي. ومن أشكال التعذيب الأخرى أنهم يغطون السجناء بالعسل، ويربطوهم في الأشجار لتهاجمهم الحشرات، ويعذبون آخرين، ويجعلونك تشاهد ذلك، ويدفنون البعض في القمامة، ولا يُسمح لهم بالحركة، ويضعون أذرع البعض على أحد الأرصفة، ونسمع انكسارها وهم يركلوها بأقدامهم¹».

2 - عندما يفقد السجن الإرادة؛ بل الشعور بأهمية الحياة:

«.. هل يمكن أن تُرَمِّمَ إرادة إنسانٍ لم تُعد تربطه بالحياة رابطة؟ أنا ذاك الإنسان. لا لستُ إنساناً. السَّجْن في أيامه الأولى حاول أن يقتل جسدي. لم أكن أتصوّر أنني أحتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت.

كانت إرادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتُرُدُّها نظراتٍ غاضبةً وصمتًا. وظللتُ كذلك. لم أرهب، لم أترجع. الماء البارد؟! ليكن. التعليقُ لمدةِ سبعةِ أيامٍ؟ ليكن. التهديدُ بالقتلِ والرصاصِ حولي تناثر؟ ليكن. كانت إرادتي هي التي تُقاوم. والآن.. ماذا بقي فيّ أو مَنّي؟ أخطرُ ما في السجنِ أن تفقدَ احترامك لذاتك، لأنك إن فعلتَ صارت رقبَتُك بيدِ جلادِك، وصرتَ تتقبَّلُ منه الصفعةَ في وجهِ الكرامةِ على أنها قبلةٌ في خدِّ الرضى.

ليس بدهاءةً أن يكتبَ السَّجين عن سجنه كما يتخيَّل البعض. وليس واجبًا عليه أن يروي حكايات السجن فضحًا للسجان. فالسجن بعد أن يمضي يتحوَّل إلى حكاية تافهة بالمقارنة مع حياة السَّجين.¹»

3 - سجين عربي يروي العذاب الذي عاشه، وكابده:

«عن فترة التنفُّس التي تُمنح للسجناء لكن ضمن شروطٍ لا تبعد عنهم أثر الرُّعب والتعذيب، حيث من الممكن أن يتعرَّضوا للضرب من قبل السَّجانين، في أيَّة لحظة. في نشاط التنفُّس هذا، الذي يُفترض أن يكون فترة راحة للسجناء، يُجبرون على الجلوس على رُكبهم قبالة الحائط. الظهرُ مُنحِن، الرأس بين الساقين، ومُغمَّضو الأعين. خروج ودخول المساجين إلى الزنزانة، يسرون معاً مُطرقِي الرؤوس إلى الأرض، ممسكين بأيدي بعضهم البعض، يتعرَّضون للسياط دون سببٍ عند

1 - هبة خميس. الباحثون. 01 / اوت 2018م

الدخول والخروج، وذلك بغاية تجريدهم من إنسانيتهم. يقول أحد المعتقلين: "ما كنت أخشاه أكثر، هو جلسة حلاقة الشعر الاسبوعية. كانوا يجبروننا على حلاقة الرموش، يُمرّرون آلة الحلاقة على الرموش. وفي الليل، كان من المؤلم إغماض العينين، لأن شعرات الرموش تقسى، وتتداخل لتؤلم العينين. يلي يوم الحلاقة أيام بلا نوم، لأن إطباق الجفون بعد الحلاقة يصبح مؤلماً. كان عليّ النوم بعينين مفتوحتين" يقول ذاك المعتقل:

«...صعبٌ خمس سنوات في الحبس الإفرادي، مسكوناً بهواجس الأصوات التي تصل إلى غرفة احتجازي المنعزلة. أرتعد وحيداً في زنزاتي، أجلس بوضعية الجنين على أمل التخلص من هواجسي ومخاوفي. لم يكن لديّ من أتواصل معه، فوجدتُ نفسي مضطراً لأجعل من النمل، والصراصير، والذباب الذي يزور زنزاتي أصدقاء لي. كنتُ أرغب التأكّد من إمكانية التواصل بيني وبين الآخرين، كنت أتساءل هل ما زال بإمكانني التعبير عن نفسي؟ هل ما يزال بإمكان الآخرين فهم ما أقول؟»¹

4 - الأسير الفلسطيني، المُفرج عنه بعد 14 عاماً داخل سجون الاحتلال الإسرائيلي، شرح بالتفصيل الوسائل المستخدمة في تعذيب السجناء الفلسطينيين:

1 - داليا النهري. معتقلون يروون الجحيم الذي عاشوه. رصيف 06 - raseef22.com اجوان. 2019م

«تتمثل في العنف الجسدي، والحرمان من النوم، والراحة لفترات طويلة؛ إضافة إلى تغطية رؤوسهم بالأكياس السمكية؛ مما يُشكّل صعوبة في التنفس، وبثّ موسيقى، وأصوات صاخبة مزعجة، لعدم تمكين الأسرى من النوم، وغالبا ما يتمّ استخدام أساليب الشبح، والهزّ العنيف، التي في معظم الاحوال تؤدي إلى إحداث عاهات مستديمة أو الوفاة. طريقة الشبح هي إجبار المعتقل على الوقوف باستخدام رجل واحدة، ورفع كلتا اليدين الي أعلى، ولمدة طويلة وأحيانا أخرى يتم تقييد القدمين بإحكام، ووضعهما على كرسيّ، وعند ذلك يبدأ الضابط اليهودي في استخدام العنف الجسدي ضد المعتقل، أما طريقة الهز العنيف، فهي أكثر خطورة، وعنفا حيث يتمّ جذب المعتقل من منطقة الصدر بقوة، ورفعهُ إلى الأمام، والخلف، وإلى جهة اليمين، واليسار بقوة، وتستمر هذه الحركات الدائرية ضد المعتقلين لمدة تتراوح ما بين 5 - 10 دقائق؛ وهكذا تستمر عملية التعذيب على مراحل لعدة مرات إلى ان تُنتزع من المعتقل اعترافات، أو تتدهور صحته، وغالبا ما يفقد المعتقل وعيه نظرا لتدفق الدم بقوة من جسده، وهذه الطريقة تؤدي إلى حرمانه من التنفس، وتُسبب له آلام مبرّحة، وعاهات مستديمة، وكما وفائته. من طرق التعذيب تركيز الضوء القوي المنبعث من مصباح كهربائي على وجه المعتقل؛ إضافةً

إلى إجبار المعتقل على الجلوس لفترات طويلة على مقعد صغير، أو كرسي اطفال، مما يُسببُ للمعتقل آلاما في المفاصل، والظهر.¹»

5 - يروي الجزائري صابر الأحمر الذي سُجن خطأ نحو ثمانية اعوام في عدة معتقلات أمريكية، ومنها معتقل غوانتانامو. تم توقيف صابر الأحمر المُتحرر من قسنطينة بعد شهر من اعتداءات 11 سبتمبر 2001 والذي كان أستاذا للغة العربية في سراييفو، فقد سلّمه البوسنيون إلى الأميركيين مع خمسة جزائريين آخرين للاشتباه بتدبيرهم اعتداء على سفارة الولايات المتحدة في سراييفو:

«سنوات التعذيب بدون ذنب، التي تركت "بقعة سوداء في قلبه. فقد وُضعت لي أدوية في الطعام" لمنعي من النوم، كما أشعلوا أضواء النيون على مدى اربع وعشرين ساعة في زنزانة معدنية بطول مترين وعرض 1,5 متر مع "موسيقى أفلام جنسية بأعلى صوت، ونزع الملابس عن المعتقلين لعشرين يوما مع تشغيل المكيف بقوة. قرابة ثماني سنوات متنقلا من معسكر الى معسكر في "اقفاص مثل الدجاج" ثم "منفردا" في زنزانات ازدادت ضيقا. في المعسكر الأخير معسكر غوانتانامو الأشد قساوة، لما جاؤوا بي إليه قال لي أحد الحراس:

- « إنسَ العالم والحياة المدنية، انس كل شيء. هنا أنت في النار الأمريكية...»

1 - ... وقائع معاناة الأسرى في سجون الاحتلال. صحيفة البيان. صحيفة البيان الإماراتية. 27 / 12 / 1998 م

في ذاك المعسكر يخضع السجن "لبرنامج خاص من التعذيب"، فيحرم من النوم، والطعام خلال أيام عدة متتالية مع إخضاعه بشكل متواصل لضجيج محرك يُوضع وراء الباب؛ لكن الحراس، وتلقّى تعليمات صارمة: "لا تمس، لا تتحرك، لا تتكلم، هذا ممنوع". كما خضعت لتعذيب "بالكهرباء في الساقين، كما كانت قارورة غاز يفتحها الحارس خمس عشرة ثانية لأستنشق منها يوميا كل 20 دقيقة خلال أشهر. ويُمكنوننا من الخروج مرة كل خمسة عشر يوما إلى الهواء الطلق في أقفاص بطول، وعرض ثلاثة أمتار.

– « كنت معزولا تماما، ولم أر الشمس طوال سنة ونصف. عشتُ في زنزانة ضيقة أُقيمت داخل مساحة مغلقة بطول وعرض خمسة أمتار. وأُجبرْتُ على البقاء جالسا على مقعد بدون ظهر خلال 18 ساعة.¹»

1 - ... سجين سابق يروي "سنوات التعذيب" التي عاشها في غوانتانامو. الاقتصادية. جريدة العرب الاقتصادية الدولية. 09 جانفي 2012م

الأدب الرقّمي التفاعلي

منذ حوالي عقدين ظهر في الساحة الأدبية إنتاج أدبي يُقرأ على شاشة الكمبيوتر، ومن خصائصه أنه يقوم بدمج الوسائط الإلكترونية المتعددة، نصية، وصوتية، وصورية، وحركية في الكتابة في فضاء يسمح للقارئ بالتحكم فيه، وقد سُمّي هذا الإنتاج بالأدب الإلكتروني، أو الأدب الرقّمي؛ كما يُنعتُ بالأدب التفاعلي.

إنّ الانحراط في هذا الأدب الجديد مطلب حضاري بامتياز، وليس نزوة أو موضة. والمسألة محسومة معرفياً، وثقافياً، وأنتروبولوجياً، فبالعودة إلى مختلف الأشكال التعبيرية القديمة والحديثة، نلاحظ أنّها وحدها التي عبرت عن قدرتها على احتضان معنى وجود الإنسان في كل مرحلة تاريخية.¹ يعد العصر الذي نعيشه عصراً رقمياً بامتياز، نظراً للثورة الهائلة التي أحدثتها تكنولوجيا المعلومات والتواصل في شتى المجالات، مما انعكس على مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، هذه الأخيرة أصبح من الضروري عليها مواكبة هذا التطور لتلبي حاجات الإنسان الفكرية والتعبيرية، فبدأت تظهر في الساحة الأدبية عدة بوادر من لدن مجموعة من الكتاب والباحثين

1 - د. ياسر خضير البياتي. الأدب الرقّمي.. أدب المستقبل . صحيفة العرب. 30

والنقاد، تهم بعض الأجناس الأدبية كالشعر والمسرح والرواية تنظيراً وممارسة ونقداً، من أجل تجديد الوعي بالنقد والإبداع. أثرت هذه العلاقة على مختلف مكونات العملية الإبداعية، وعلى منطقتي اشتغالها، وجعلتها تنتقل من حقبة ما قبل الإنترنت إلى حقبة ما بعد الإنترنت، بعدما أثمرت نوعاً جديداً من النصوص يقوم على الترابط ويفتح على وسائط متفاعلة، فأصبحنا نتحدث عن النص الورقي في مقابل النص الرقمي، والمبدع الورقي في مقابل المبدع الرقمي، وعن القارئ الورقي في مقابل القارئ الرقمي، وهذا ما يجعلنا نقول إن تغير الأداة الحاملة للنص أدى إلى حدوث تغيير على مستوى مكونات العملية الإبداعية.¹

الأدب الرقمي التفاعلي

يُعدُّ الأدب الرقمي التفاعلي من مجموعة الإبداعات التي تولدت مع توظيف الحاسوب، والتكنولوجيات الحديثة، وهو "جنسٌ أدبيٌّ جديدٌ ظهر على الساحة الأدبية، يقدم أدباً جديداً يجمع بين الأدبية والتكنولوجية. ولا يمكن لهذا النوع من الكتابة الأدبية أن يتأتى لمُتلقيه إلا عبر الوسيط الإلكتروني، من خلال الشاشة الزرقاء المتصلة بشبكة الانترنت العالمية، ويكتسب هذا النوع من الكتابة الأدبية

1 - د. ياسر خضير البياتي. الأدب الرقمي.. أدب المستقبل . صحيفة العرب. 30

صفة التفاعلية بناء على المساحة التي يمنحها للمتلقّي، والتي يجب أن تعادل أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص.

الناقدة الإماراتية فاطمة البريكي ترى أن النصوص الرقمية التفاعلية تتميز عن النصوص التقليدية الورقية بالآتي:

1- أن الأدب التفاعلي يقدم نصًا مفتوحًا، نصًا بلا حدود، إذ يمكن أن يُنشئ المبدع، أيًا كان نوع إبداعه، نصًا، ويُلقِي به في أحد المواقع على الشبكة، ويترك للقراء والمستخدمين حرية إكمال النص كما يشاؤون..

2- أن الأدب التفاعلي يمنح المتلقّي (القارئ)، أو المستخدم فرصة الإحساس بأنه مالكٌ لكل ما يقدم على الشبكة، أي أنه يُعَلِي من شأن المتلقّي الذي أهمل لسنين طويلة من قبل النقاد والمهتمين بالنص الأدبي، والذين اهتموا أولاً بالمبدع، ثم بالنص، والتفتوا مؤخرًا إلى المتلقّي..

3- لا يعترف الأدب التفاعلي بالمبدع الوحيد للنص، وهذا مترتب على جعله جميع المتلقّين والمستخدمين للنص التفاعلي مشاركين فيه، ومالكين لحق الإضافة والتعديل في النص الأصلي.

4- البدايات غير محددة في بعض نصوص (الأدب التفاعلي)، إذ يمكن للمتلقّي أن يختار نقطة البدء التي يرغب بأن يبدأ دخول عالم النص من خلالها، ويكون هذا باختيار المبدع الذي ينشئ النص أولاً، إذ يبني نصه على أساس ألا تكون له بداية واحدة، والاختلاف في

اختيار البدايات من متلقٍ لآخر يجب أن يؤدي إلى اختلاف سيرورة الأحداث (في النص الروائي، أو المسرحي، على سبيل المثال) من متلقٍ إلى آخر أيضاً، وكذلك فيما يمكن أن يصل إليه كل متلقٍ من نتائج..

5- النهايات غير موحّدة في معظم نصوص الأدب التفاعلي، فتعدّد المسارات يعني تعدد الخيارات المتاحة أمام المتلقي/ المستخدم، وهذا يؤدي إلى أن يسير كل منهم في اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي يسير فيه الآخر، ويترتب على ذلك اختلاف المراحل التي سيمر بها كل منهم، مما يعني اختلاف النهايات، أو على الأقل، الظروف المؤدية إلى تلك النهايات وإن تشابهت أو توحدت.

6- يتيح الأدب التفاعلي للمتلقين/ المستخدمين فرصة الحوار الحي والمباشر، وذلك من خلال المواقع ذاتها التي تقدم النص التفاعلي، رواية كان، أو قصيدة، أو مسرحية، إذ بإمكان هؤلاء المتلقين/ المستخدمين أن يتناقشوا حول النص، وحول التطورات التي حدثت في قراءة كل منهم له، والتي تختلف غالباً عن قراءة الآخرين.

7- إنّ جميع المزايا تتضافر لتتيح هذه الميزة وهي أن درجة التفاعلية في الأدب التفاعلي، تزيد كثيراً عنها في الأدب التقليدي المقدم على الوسيط الورقي.

8- في الأدب التفاعلي تتعدد صورُ التفاعل، بسبب تعدد الصور التي يُقدّم بها النص الأدبي نفسه إلى المتلقي/ المستخدم.¹

ويعرفه الناقد المغربي سعيد يقطين بأنه:

« مجموع الإبداعات، والأدب من أبرزها التي تولّدت مع توظيف الحاسوب، ولم تكن موجودة قبل ذلك، أو تطورت من أشكال قديمة؛ ولكنها اتخذت مع الحاسوب صوراً جديدة في الإنتاج والتلقي² »

المُبدع الورقي.. المُبدع الرقمي: المبدع الورقي لا يصل إلى جمهوره، إلا عبر مجموعة من المؤسسات تُمثّل دور السلطة، والوسيط بينه وبين قرائه كدور النشر، المؤسسات الأكاديمية، والثقافية والنقاد.. في حين نجد المبدع الرقمي يصل إلى جمهوره دون أية سلطة من تلك السلطات التي يمرّ عبرها المبدع الورقي، نظراً للإمكانيات الهائلة التي تُتيحها شبكة الإنترنت، بحيث يمكن لأي شخص أن يصبح مبدعاً رقمياً ينشر أعماله، فيتفاعل معها القراء في أي مكان، مباشرة بعد اتصالها بشبكة الإنترنت.

فضاء المبدع الرقمي رُحْبٌ: يتميز المبدع الرقمي بتعدّد المؤلفين الذين يساعدهونه في الإخراج، وأيضاً بتعدد القراء الذين يتفاعلون مع نصه، من خلال مشاركاتهم عبر المساحات التي يتركها لهم لبناء النص،

1 - فاطمة البريكي، مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص49

2 — سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص10

وإعادة إنتاجه من جديد، ويتّضح هذا الأمر جلياً مع أغلب نصوص الإبداع التفاعلي الرقمي، في المقابل نجد المبدع الورقي غير متعدد، لأنه هو صاحب النص، وهو الذي يكتبه دون مساعدة أو مشاركة أحد. إن التعددية التي يتّسم بها المبدع الرقمي على مستوى الإنتاج والتلقي، جعلته يؤثر بشكل مباشر على طبيعة المتلقي، الذي أصبح بدوره مبدعاً عبر مشاركته في بناء النص وإعادة إنتاجه. يتميز النص الورقي بوصفه أحادي العلامة، حيث إن إنتاجه لا يتطلب سوى المعرفة بقواعد الكتابة وتقنياتها؛ عكس النص الرقمي الذي يتسم بتعدّد العلامات، فهو يمزج بين الكتابة، والصوت، والحركة، والصورة، والمشهد السينمائي والرسم.. وتتطلب عملية إنتاجه، إضافة إلى المعرفة بقواعد الكتابة وتقنياتها، معرفةً بالمعلومات، (كيفية معالجة المعلومات عن طريق الحاسوب، كالنصوص، الصور، الفيديو، الأرقام، الجداول، المخططات، الرسوم،...)، وما يصاحبها من برمجيات، علاوة على ذلك نجد النصّ الرقميّ مُعدّاً سلفاً للتلقّي على جهاز الحاسوب عبر اتصاله بشبكة الإنترنت.

النصّ الإلكتروني يتميز برحابة الفضاء المحيط به مقارنة بالنص الورقي، الذي قد يواجه الإقصاء، ظلماً في أحيان كثيرة، بسبب وجود الرقيب، أو بيروقراطية جهاز النشر، أو سوء تقدير دار النشر.. إلخ، أمّا إلكترونياً، نجد جميع الأعمال فضاءً رحباً للتداول، وبالتالي، قد

ينجح كاتب ما في إعلان نفسه كاتبا انطلاقا من الشبكة، فتجدُ أعماله طريقها للنشر الورقي بعد ذلك.

يتميز الأدب الرقمي بسهولة تداوله عبر شبكة الإنترنت، التنقل بعدد كبير من الكتب الرقمية إلى أي مكان بواسطة قرص مدمج، أو تخزينه في ملفات داخل شاشة الحاسوب المحمول. أما الأدب الورقي فيصعب تداوله بسهولة عبر مختلف بقاع العالم، نظرا للإجراءات التي تتخذها كل دولة على حدة، كما يصعب معه حمل عدد كبير من الكتب والتنقل بها عبر حدود جغرافية واسعة لكونها تأخذ هيئة أجسام مادية.

مؤلف النصّ الرقمي: يعتمد المؤلف الرقمي إلى التأليف بين مجموعة من العلامات، والإمكانات الكثيرة والمتعددة، ويعتمد على مهارات عدة تجمع مهارة الكتابة، والتأليف، والتخيّل، وتكوين علمي تجعله عالما بثقافة المعلوماتية، ولغة البرامج المعلوماتية، والتقنية الرقمية. بهذا المخزون يستثمر المؤلف الرقمي وسائط التكنولوجيا، وتقنيات النص المترابط، والوسائط المتعددة ليؤلف بين مجموعة من المواد تتمثل في اللغة، الصوت، الصورة، الوثائق، لغة البرامج المعلوماتية لبيدع نصا تخييلياً غير خطي، ولكن هذا النص الرقمي غير مكتمل ولا يتحقق وجوده إلا بمتلقٍ يمتلك مفاتيح تمكنه من ولوج النص الرقمي، وتفعيل النظام الموجود على الشاشة، وتحويل عناصره إلى مجموعة من العلامات الترميزية عند عملية تنشيط الرابط من قبل المتلقي؛ أي

قارئ النص، لذا لا بد أن يتحرر المؤلف من وهم النص المكتمل، لأن هناك من شاركه في خلق النص وتأليفه من عالم بثقافة المعلومات، ولغة البرامج المعلوماتية، والتقنية الرقمية؛ وهناك متلقٍ لن يكتمل النص ويتحقق إلا بوجوده. وبذلك يفتح الأدب الرقمي الباب مشرعاً أمام تعدد المؤلفين لا حصرهم في الثلاثة المذكورين فقط؛ وإنما قد يزيد العدد بزيادة عدد المتلقين للنص الرقمي.

تفاعل المتلقي الرقمي: تُعدُّ درجة التفاعل التي يحققها القارئ الرقمي مع النصوص الرقمية عالية جداً، حيث تُوظف عدة وسائط متعددة متفاعلة (نصوص، صور، أصوات، حركات، مشاهد سينمائية...) تُمكنه من التفاعل معها، والإبحار داخلها، بواسطة تنشيط الروابط المختلفة التي تربط بين تلك الوسائط، إضافة إلى المساحات المهمة التي يتركها المبدع الرقمي للقارئ الرقمي من أجل الاقتراح أو الإضافة أو التعديل وما إلى ذلك. بينما تقلُّ درجة تفاعل القارئ الورقي مع النصوص الورقية بسبب نظامها الخطي الذي تفرضه عليه، إذ لا يمكنه أن يقترح، أو يعدل هذه النصوص الورقية، لأن ذلك يشوه مظهرها، إضافة إلى محدودية الوسائط المتفاعلة التي توظفها، ممّا يجعلها تتسم بالجمود، ولا تتمتع بالحرية، والحيوية التي تتميز بها النصوص الرقمية ذات النمط اللاخطي.

النصّ المؤلّف: المادّة الأولى التي تظهر على الشاشة بشكل مباشر يحددها المؤلّف وفق نظام معين يجمع فيه مختلف المكونات، والعناصر

المتمثلة في اللغة، الصوت، الصورة، الألوان، البرامج، المعلوماتية، الروابط، وهذه المواد تبقى أولية، أو مادة خامًا لا تمثل النص في صورته المقروءة التي لن تظهر إلا بتفعيل المتلقي لما يريد من الروابط التي تظهر له على الشاشة. على الرغم من أهمية هذه المواد جميعها إلا أن اللغة، والكلمة تبقى هي الجزء الأصيل، والمكون الأساسي في الأدب التفاعلي، فجهاز الحاسوب، والتقنيات، والروابط، والوسائط لن تخلق نصاً أدبياً لا يمكن أن نتكلم عن أدب تفاعلي، أو غير تفاعلي إلا حين تحضر الكلمة، إذ لا يوجد الأدب بعيداً عن الكلمة حتى إن اقترنت بعناصر أخرى، إلا أن أي عنصر آخر لا يمكن أن يُغني عنها لأنها أساس النص المقروء: أي النص الذي ينتجه المتلقي/ المؤلف الثاني بناء على عينة القرارات التي يتخذها حيال النص، منها طريقة تعامله مع وضعية النص، ومكونات النص المؤلف، وطريقة تعامله مع الروابط والاختيار منها، وتحديد زمن بداية النص ونهايته فالقارئ ينتهي بانتهاء تجربته في القراءة. فالنص المقروء هو النص الذي يُركّبه القارئ أثناء قراءته. وله علاقة بقراءة محددة يختارها.

نصُّ الأدب التفاعلي فاقدُ الهويّة: في تقديري نصُّ الأدب التفاعلي بتعدّد متلقّيه، وتفرد مبدعه، أو تعدّده، أو تنوعهم ذكوراً وإناثاً، صغاراً، كباراً مشهورين، أو مغمورين، واستفادته من الرقمنة، وتنوع التكنولوجيا المعاصرة، وسرعة تطورها؛ فإنه أيّ - النصّ الأدبي التفاعلي - هو ابنٌ غير شرعي؛ إنْ لم أقلّ مولودٌ غير مكتمل النمو؛

وبالتالي غير قادر على الوقوف، والثبات إلى جانب النصّ المتفرد
التأليف، والإبداع الموضوعاتي، والتخييلي، واللغوي.

قد يكون للنصّ البحثي العلمي الذي يتغيّ (الغاية) معلومة
علمية في أيّ مجال سواء من باحث، أو مجموعة، أو فريق فضاء رُحِبْ
في المساهمة في ذلك من خلال النتائج المتوصّل إليها كل في فضائه،
ووفق إمكاناته، وجمع ما تمّ التوصل إليه، وتقديمه في ملتقى وطني،
دولي؛ ثمّ توثيقه في دراسة بحثية معتمدة تُوثق في مستندات، وكتب
تصدر باسم الباحثين المساهمين؛ أمّا النصّ الأدبي باعتباره إبداعاً
تخييلياً شخصياً حتّى وإن استفاد من وسائط التكنولوجيا، والرقمنة
المعاصرة من موسيقى، وصور، وفيديوهات، وتعدّد كُتابه، وتواصلهم
مع المبدع الأصلي، بالإضافة، والإثراء، والحذف، سيبقى نصّاً مشوّهاً
لعدم توافق كاتبه من حيث الرؤى، والقناعات، واختلاف المستوى
المعرفي، واللغوي، والتخييلي، والقدرة على توظيف اللغة،
وانسيابيتها..

قد يقول البعض، هناك العديد من المسرحيات الناجحة المؤلفة
من فريق، ووظفت فيها وسائط التكنولوجيا المعاصرة؛ كما الكثير من
الأفلام خاصّة أفلام الخيال، هذا صحيح؛ إنّما وراء ذلك منسّق قد
يكون مسرحياً يوزّع الأدوار، ويلقّن الممثلين ما يؤدونه، وما ينطقون
به.. النصّ الأدبيّ التفاعلي في رأيي نصّ آئيُّ فضاؤه اللامكان يشارك
في كتابته الكل من سلطنة عمان إلى موريطانيا في نفس الجلسة، لكن

أن يكون نصًّا إبداعيا ماتعًا يُسند إلى مبدع شرعي يمتلك مقوّمات منتج الأدب ذي الفنّ الرّاقِي، والدّوق الأدبي المنشود.

الأدب الرّقمي في الجزائر

يرى البعض أنّ تجربة الأدب الرّقمي في الجزائر لا تزال في بداياتها، فما بالك بالأدب الرّقمي التفاعلي؟! حيث يحتاج الأمر إلى تكوين، وتوجيه، رَغْم ما يُكتب في المواقع والمنتديات، والذي يتزايد يوميًّا ولا يمكن تجاهله. قد ينشأ أديب، شاعر، ناقد، وتكون أعماله الإبداعية ورقية عادية بعيدة كل البعد عن الإلكترونيات، لها خصائصها ومُميزاتها، وطرائقها لتصل إلى المتلقي، ولكنهم قد يعانون نوعا من الخوف من التكنولوجيا، والأجهزة الحديثة. وبما أنّ الأمر صار مفروضا وطبيعيا في هذا العصر، فلا بدّ أن نتأقلم مع هذا التّوع الجديد من الأدب، وأن نبحث عن كيفية تلقيه وقراءته ونقده، ذلك أنّ الجيل الجديد يصاحب الوسائل التكنولوجية الحديثة.¹

اللجوء إلى محالّ معالجة النصوص

الكثير من الكُتّاب المبدعين في الجزائر، ومنهم الشباب متفوّقون في مستوى إبداعاتهم؛ إلّا أنّهم لا يؤمنون بأهمية الأدب الرّقمي، بل الكثير منهم لا يتعاملون مع الحاسوب، ولا يُحسنون استعماله؛ بل لم يحاولوا فيلجئوّن إلى محالّ معالجة وكتابة النصوص؛ شخصا أعرف العديد من أساتذة الجامعة يجهلون عالم الحاسوب، وتقنياته، علاقتهم

1 - إبراهيم عبد النور/ جامعة بشار. كراس الثقافة. يومية النصر: 2019/12/01

بالإنترنت، وعالم تكنولوجيايات الاتصال الحديثة لا تتعدى فتح الهاتف الذكي، والإبحار في " الفيسبوك"، فكتبهم إن كانوا مؤلفين، أو مبدعين يُوكلوها إلى محالّ معالجة النصوص مقابل مبالغ مالية؛ ومن في موقع مسؤولية سواء في الجامعة، أو غيرها يرون أنفسهم أعلى من أن يجلسوا إلى الحاسوب ويكتبوا، فهذه الكتابات من واجبات السكرتيرة.

هؤلاء الأساتذة الأكاديميون، وأولئك الكُتّاب المبدعون طالما يعرفون من الإنترنت، وعالم التكنولوجيايات الحديثة من أجهزة، واتصال، ورقمنة، إلّا الإبحار في " الفيسبوك" وفي حالات أحسن " تويتز"، ولا يزالون أسيري الورقة والقلم؛ لا أحسب أنهم يعرفون؛ بل يفهمون ما " الأدب الرقمي"، أو "الأدب التفاعلي"؛ الأمل في الأجيال الجديدة التي بدأت تظهر في الساحة الجزائرية، وسارت خطوات كبيرة في الإعلام الرقمي: صحف إلكترونية، مجلات، مواقع، مدونات، قنوات تلفزيونية، إذاعات رقمية، وغيرها كلها في الإنترنت، وتشغل على الأدب الرقمي التفاعلي.

إيقاعات

الجمال في القرآن الكريم

الإحساسُ بالجمال، والميلُ نحوه نزعة فطرية متجذرة في أعماق النفس البشرية؛ فالنفس الإنسانية السويّة تميل إلى الجمال وتشتاق إليه، وتنفر من القُبْح في شتى صورهِ، وتأنى عنه بعيداً.

إن الطبيعة الإنسانية تنجذب إلى كل ما هو جميلٌ، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ". والإحساس بالجمال وألوه به، والاعتناء به، والتجمل، واقتناء الشيء الجميل، سلوكاتٌ قد يقوم بها الإنسان تلقائياً بفعل الميل الفطري المتجذّر في أعماق النفس.. ويتضح ذلك حتّى من أعتى المجرمين والقتلة في لحظات صفاء مع النفس. شاء الله سبحانه وتعالى المبدعُ البديعُ، الخالق أن يجعل من الجمال في شتى صورهِ . وما أكثرها! .، وما أعظمها!! . مناطَ رضا وسعادة لدى الإنسان

تذوّق الجمال حقّ مُشاعً

إن استصاغة الجمال حقّ مُشاعً لكلّ إنسان، والأكيد أن تذوّق الجمال والتنعم بصورهِ، والتمتّع بمجالاتهِ اللامتناهية في حياتنا، يختلف بين فردٍ وآخر، وبين جماعةٍ وأخرى، ومن أمةٍ إلى أخرى، ومن عصرٍ إلى آخر .. لكنه اختلافٌ محدودٌ قد يمسّ جانباً من الجوانب، أو

عنصراً من العناصر التي تشكّل القيمة الجمالية، أما الجوهر فقيمة ثابتة ارتضتها كلّ النفوس.

الجمال ثالث ثلاثة من القيم التي شغلت الفكر البشري منذ بدأت المسيرة الإنسانية على ظهر الأرض لتحقيق الرسالة التي من أجلها خلق الله الإنسان، وهي العبودية الخالصة لله وحده، هذه القيم الثلاثة هي: الحق والخير والجمال.

القيم الجمالية في القرآن الكريم

لكنّ الذكر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يتناول هذه القيمة تناولاً محكماً، سديداً، راشداً، يجعلها تسهم في سموّ المجتمع البشري، ودفعه إلى تحقيق رسالته الكريمة. ولقد ورد لفظ "جميل" و"جمال" في ثماني آيات من القرآن الكريم، منها موضع واحد عن الجمال الحسّي، وتحدّث في المواضع السبعة الباقية عن الجمال المعنوي والحُلقي.

جمالٌ معنويٌّ وجمالٌ حسّيٌّ

الجمال في هذا الكون الفسيح أكبر وأكثر من إدراك الإنسان الفاني، الضعيف، العاجز عن الإلمام بكل شيء، فالكون أوسع من أن يحيطه الإنسان بعقله المحدود.. والأشياء التي تنتظم هذا الكون الفسيح، إمّا أن تكون أجساماً لها طولٌ، وعرضٌ، وعمقٌ، كالإنسان والحيوان، والسماء والأرض، والشمس والقمر ونحوهما، وإمّا

أن تكون معانٍ، كالأقوال والأفعال والأسماء، والصفات ونحوها،
واستنادا إلى ذلك يمكن تقسيم الجمال إلى قسمين:

جمالٌ حَسْبِيٌّ

وهو الذي يدرك بالحسّ كجمال الطبيعة في سمائها وأرضها ،
وشمسها وقمرها ، وليلها ونهارها ، وبرّها وبحرها ، وكجمال الإنسان من
حيث تكوينه ... وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من مظاهر الجمال ،
مُشيرًا إلى جماله الحسبيّ كي ينتفع به الإنسان ، ويشكر ربّه الذي سخّر
له الكون وما فيه .. قال الله تعالى: (والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ
ومنافعٌ ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تسرحون ،
وتحملٌ أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفسِ إن ربكم
لرؤوفٌ رحيمٌ، والخيَلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا
تعلمون .) {سورة النحل}

وقال الله تعالى عن الإنسان: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن
تقويمٍ.)، وقد فسّر العلماء قوله: " أحسن تقويم " بقوله تعالى:
(يا أيها الإنسانُ ما غرّك برّبكَ الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدّلك في
أيّ صورةٍ ما شاء ربّك.) {سورة الانفطار}

فهذه الآية، وتلك تعبيران عن الهيكل الجمالي الذي بُني عليه
الإنسان، فالجمال سمةٌ بارزةٌ في الإنسان مثلما هو مبعوثٌ في غيره من
الموجودات

جمال معنوي

ويشتمل على أمور كثيرة لا تُدرك بالحسّ والمشاهدة، ولكنها تُدرك بالعقل الواعي، والبصيرة النافذة.. من هذه الأمور الجمالية المعنوية :

1 - الأقوال: فالجمال المعنوي موجودٌ في الأقوال الحسنة، والألفاظ الطيبة، قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، {سورة فصلت} فقد جعل الله الدعوة إلى الإسلام، والنطق بكلمة الشهادة من أحسن الأقوال وأجملها، فدل ذلك على أن الجمال موجودٌ في الأقوال التي يقولها الناس، وفي الألفاظ التي ينطقونها، لا من حيث تركيبها اللفظي، وصياغتها البلاغية، ولكن بالنظر إلى ما تحمله من المعاني والمدلولات.

2 - الأفعال: والفعل قرينُ القول، بل إن القول إذا لم يقترن بالفعل لا يبلغ الكمال في الحُسْن والجمال، ولذا ذكر الله تعالى في الآية السابقة قوله: (وَعَمِلَ صَالِحًا)، إذ القول وحده مهما كان جميلاً لا يكفي صاحبه ما لم ينضم إليه فعلٌ... فالجمال يوجد في الفعل كما يوجد في القول.

من خلال تقسيم الجمال إلى جمال حسي، وجمال معنوي، يمكن استعراض ميادين الجمال، ومجالاته التي هي:

3 - **الطبيعة:** بكل ما تحويه من أرضٍ وسماءٍ ، وإنسانٍ وحيوانٍ ، ونباتٍ وجمادٍ .. هي كلها مواطنٍ فسيحةٍ للجمال الطبيعي، والقرآن الكريم حين تناول الطبيعة ، لفت نظر الإنسان إلى كثيرٍ من دقائقها ؛ على سبيل المثال يقول الله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.) {سورة آل عمران}

إن هذا المشهد العظيم لوحهً رائعةً من الطبيعة، التي لا تحدها الأبعاد، والأنظار، يسرح فيها العقل، والبصر يتمليان السحر والجمال.

ويقول تعالى في هذه الآية الكريمة، مُرشداً إلى الجمال:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ.) {سورة ق}

4 - **الإنسان:** إن الإنسان ميدانٌ آخرٌ للجمال، يتخلله الجمال منذ مرحلة تكوينه، ونشأته إلى مرحلة نُضجه وتكامله؛ بل إن الجمال من أبرز سمات الإنسان التي نوه بها القرآن الكريم في أكثر من آيةٍ للدلالة على قدرة الله تعالى وإبداعه .

الجمال فينا وحوّلنا

إن الإنسان العادي السويّ مثلما يشاهد الجمال في عالم الطبيعة يشاهده ويتذوّقه في الأشياء الجميلة التي يقتنيها، ويلحظه في الإبداع الفني الذي يصنعه كالعِمارة التي يبّعد فيها المهندسون ، والطرق الفسيحة التي تحاذيها من الجانبين مساحات نظيفة ظللتها أشجارٌ وارفّة ، وزيّنتها زهور ، وورود تفوح عطرا.. مساجدٌ تألقت بعمارتها الإسلامية المميّزة، كما أن الإنسان السويّ يشاهد الجمال ، وينعم به في اللوحة الفنية ، في الملابس الزاهية ، في ترتيب غرف المنزل ، في الكتب المزخرفة ، في الخط ، في ترتيل القرآن الكريم ، في زخارف ونقوش الأواني ، والأبنية ، والفُرش ، والزراي ، في الإيقاع الموسيقي الأصيل والصوت الشجي ، في الوزن الشعري العذب ، في الكلام الحسن ، في الحوار الهادئ ، في الاحترام المتبادل ، في فنّ الإصغاء للغير ، في حُسن التعامل مع الجار ، مع الأقارب ، مع الزملاء في العمل ، في آداب الأكل ، في سلوك النظافة في داخل المنزل وخارجه ، في الحفاظ على البيئة .

وكما نشاهد الجمال، ونتذوقه في الإبداع الذي يصنعه غيرنا ونصنعه نحن أيضا، فإن موضوعات الجمال التي كرم الله بها عباده في الطبيعة أفسح، وأجمل، وأكثر جاذبية؛ حيث يغمرنا الجمال في عالم الأزهار والطيور وسفوح الجبال، وجداول الأنهار، وشلالات المياه المنحدرة، وكثبان الرمال الذهبية، ومغيب الشمس ، وفي شكل

الإنسان الذي قال الخالق عزّ وعلا في شأن تكريمه: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الاسراء:70) وقال أيضا : " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين:4) ..

كما نسعد بالجمال ونحن نتذوقه في سماء الليل الصافية ، وفي النجوم المتلألئة ليلا، وفي القمر يغمُر الكون بضياءه ..نتذوق الجمال في الغيمة، في قوس قزح، في الضباب وهو يدثر ما حولنا بغلالة شفاقة منعشة ، نتذوقه في نزول الغيث ، وتجمُّع قطراته وهي تنساب والأرض تتشربها في نشوة ..الجمال نتذوقه في عيون الضبّاء، وفي عيون المها وابتسامات الأطفال، في ألوان الأسماك، وشاطئ البحر، ورماله الذهبية ، وأمواجه ..في حقول الزرع المترامية ، في السنابل الناضجة وهي متمائلة بما حملت من ثمار الخير ..في الحضار بألوانها المختلفة..في الأشجار المثمرة ، وتدلي الثمار بألوانها وأشكالها البانعة الشهية ، في عراجين النخلة وهي مدلاة ، مثقلة بجبات التمر في لونها الذهبي الرائق الشفاف ..وفي الأزهار بألوانها وأريجها .. وفي ملكها الورد بدون منازع.

الفطرة الإنسانية تهفو إلى الجمال

إن الجمال قد يكون متعلقا بالإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الصخور، أو الجبال، أو البحار، أو السماء، أو حتى السحب وتشكيلاتها، تهاطل الأمطار، تساقط الثلوج، أو التعبير الإنساني

خاصة في الفنون المختلفة ، وقد يكون مرتبطا بالجانب المادي ، أو الحسي ، وقد يكون متعلقا بالجانب العقلي أو المعرفي ، أو التأملي .. قد يتمثل في حالات صامتة ، أو حالات متحركة ، أو في مزيج من الصمت والحركة ، وقد يكون في وجه جميل ، أو جسد جميل ، أو مسرحية جميلة ، أو مقطوعة موسيقية جميلة ، أو فيلم جميل ، أو لوحة فنية جميلة ، أو حديقة طبيعية جميلة لم تطلها أيادي البشر ، أو حديقة تولأها الإنسان بالرعاية والاهتمام .

المراجع

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - الجمال رؤية أخرى للحياة. بشير خلف. طبع دار الهدى عين مليلة 2009
- 2 - بشير خلف. الجمال فينا و حولنا. طبع دار الهدى عين مليلة سنة 2009
- 3 - موسوعة الجمال في القرآن الكريم. موقع جواد الإسلامي.
- 4 - الدكتور عبد الحكيم العبد. الجمال في القرآن الكريم. مدخل وأطر من الكتاب والسنة.

الجمال منبع المحبة والخير

الجمال من مظاهر الحياة، وخصائصها، فكلّ شيء جميل في هذا الوجود لأن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الوجود جميل يحبّ الجمال، فتكوين المخلوقات يخضع لمقاييس خاصة دقيقة، وكلّ شيء فيها بمقدار.

الجمال من مكونات الحياة

ومن نعم الله على الإنسان أن وهبه شعورا فياضاً، ورهافة حسّ تنزع به نحو الجمال، والسعي إليه.. فصار الجمال من مكونات حياته، حتّى أصبح الجمال علماً، وفناً، وصناعة ودخل في الإبداع الأدبي بكلّ أجناسه، وارتبط بجميع أنواع الفنون، وصار اللّمسة الإنسانية الراقية في كلّ مرافق الحياة ومتطلّباتها بما في ذلك مقتنيات الحياة العصرية.. فإذا كان الناس أينما وجدوا وعبر كلّ العصور التفتوا إلى الجمال وهاموا به وأحبّوه، وسعوا إليه وحاولوا تمثّله في حياتهم عقيدة، وسلوكاً، وتعاملاً حتّى وإن اختلفوا في تعريفه، فإنهم لم يعدموا وسيلة أن الجمال والخير والحقّ حقيقة واحدة..

قال قديما الفيلسوف اليوناني أفلاطون:

«إن الجمال، والخير، والحقّ حقيقة واحدة، فليس بجميل ما يقوم على الباطل...»، ومن ثمة فالجمال الذي هو دائما الحقّ، والخير لا يلتقي أبدا مع القُبْح الذي هو دائما البشاعة في جميع صورها، وما تُلحقه من أضرارٍ بالفرد، والجماعة، والشعوب.. وكل العصور شاهدة على ما تركه توظيف القُبْح من مآسٍ في حقّ الإنسانية ، وتدمير لموارد الشعوب ، وإلحاق الضرر الفادح بالبيئة أم الجميع .

الطبيعة أصل الجمال

إن علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة جدلية، وعلاقة تلازمية، فمن المنطق أن تكون حميمية، وطالما أن الطبيعة في أصلها جمالٌ وحقٌّ وخيرٌ. وكم هو معروفٌ فالإنسان بالفطرة يستجيب للأشكال الطبيعية الموجودة أمام حواسه من حيث شكلها وأبعادها ولونها، ممّا يجعله يخلص إلى نتيجة تكامل تلكم العناصر مع بعضها ، فيشعر بالإحساس بالرضا ، وهو ما يُعبّر عنه العلماء المتخصّصون "بالإحساس بالرضا" ، وإذا لم يتحقّق ذلك التناسق تولّد لديه إحساسٌ بالنقيض وهو ما يُطلقون عليه " الإحساس بالقبح ".فأيّ إخلال بأجزاء مكوّنات الطبيعة معناه المسّ بذاك التناسق المولّد للرضا والراحة ، والذي هو الجمال .

إن الجمال من خصائص هذا الوجود الرّحّب، ومن عناصره التي تعدّدت، وتنوّعت..أوجده الله سبحانه نعمة وحكمة ، فهو مسرّة

للنفس وموطن الراحة والأمن والرضا ، وهو من آياته سبحانه وتعالى التي لا تُحصى.

الجمال حقٌ لكل بني البشر

يقول المرحوم الكاتب الأديب حسن الزيات (1885. 1968)

الملقب بصاحب الرسالة الثقافية :

«الحياة جميلة، وليس جمالها مقصورا على قوم دون قوم، ولا على طبقة دون طبقة.. إنما الجمال هو وضاعة الفن الإلهي ، أشاعه الله في الأرض والسماء ، وهياً المدارك للاستغراق فيه ، والاستمتاع به .»

إن الإنسان العادي السويّ مثلما يشاهد الجمال في عالم الطبيعة يشاهده ويتذوقه في الأشياء الجميلة التي يقتنيها، ويلحظه في الإبداع الفني. وكما نشاهد الجمال ونتذوقه في الإبداع الذي يصنعه غيرنا ونصنعه نحن أيضا، فإن موضوعات الجمال التي كرم الله بها عباده في الطبيعة أفسح وأجمل وأكثر جاذبية؛ حيث يغمرنا الجمال في عالم الأزهار، والطيور، وسفوح الجبال، وجداول الأنهار، وشلالات المياه المنحدرة، وكثبان الرمال الذهبية، ومغيب الشمس، وفي شكل الإنسان الذي قال الخالق عزّ وعلا في شأن تكريمه:

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » (الإسراء: 70)

وقال أيضا:

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » (التين: 4) ..

أينما كنا.. الجمال فينا وحوّلنا

نسعد بالجمال ونحن نتذوقه في سماء الليل الصافية، وفي النجوم المتلألئة ليلاً، والقمر وهو يغمر الكون بضياءه.. نتذوق الجمال في الغيمة، في قوس قزح، في الضباب وهو يدثر ما حولنا بغلالة شفافة منعشة، نتذوقه في نزول الغيث وتجمّع قطراته وهي تنساب والأرض تتشربها في نشوة.. الجمال نتذوقه في عيون الأطباء، وفي عيون المها وابتسامات الأطفال، في ألوان الأسماك وشاطئ البحر ورماله الذهبية، وأمواجه.. في حقول الزرع المترامية، في السنابل الناضجة وهي متمائلة بما حملت من ثمار الخير.. في الخضار بألوانها المختلفة.. في الأشجار المثمرة وتدلي الثمار بألوانها وأشكالها يانعة شهية في عراجين النخلة وهي مدلاة، مثقلة بجبات التمر في لونها الذهبي الرائق الشفاف.. وفي الأزهار بألوانها وأريجها.. وفي ملكها الورد بدون منازع. إن الجمال قد يكون متعلقاً بالإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الصخور، أو الجبال، أو البحار، أو السماء، أو حتى السحب وتشكيلاتها، تتأمل الأمطار، تساقط الثلوج، أو التعبير الإنساني خاصة في الفنون المختلفة، وقد يكون مرتبطاً بالجانب المادي، أو الحسي، وقد يكون متعلقاً بالجانب العقلي أو المعرفي، أو التأملي قد يتمثل في حالات صامتة، أو حالات متحركة، أو في مزيج من الصمت والحركة، وقد يكون في وجه جميل، أو جسد جميل، أو مسرحية جميلة، أو مقطوعة موسيقية جميلة، أو فيلم جميل، أو لوحة فنية جميلة، أو حديقة طبيعية جميلة لم

تطلها أيدي البشر، أو حديقة أخرى تولّأها الإنسان بالرعاية والاهتمام

الجمال ما يثير فينا المتعة

اختلافات هائلة بين تكوينات، وحالات الجمال وتنوعاته، فوصفنا العام لها بالجميلة إلاّ لكونها تثيرنا وتبعث المتعة والراحة في نفوسنا؛ حيث يوجد الجمال في جميع مظاهر الحياة.. في الطبيعة والمباني، والبشر، والفنون، واللغة... كما يوجد في العلوم، والفيزيائي ريتشارد فاينمان يرى بأن:

«المرء يمكن أن يستبين الحقيقة بفضل جمالها، وبساطتها»

وأعلن فيزيائي آخر:

«إن الجمال في العلوم الدقيقة، وفي الفنون على السواء أهم مصدر من مصادر الاستنارة، والوضوح.»

كلّ تلك موضوعات تُجسد الجمال، بل الطبيعة بأسرها لوحة فنية تفيض بالحسن والجمال. إنّ النفوس السوية تثير لديها الإعجاب، وتتفاعل معها روحيا، إذ تتحوّل لديها شعرا، أنشودة، عبادة وإجلالا وتسيبها وتعظيما لمبدع هذه الطبيعة وخالقها. يمكن أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد الأكثر تحسّسا للشيء الجميل برغم الخن التي يمرّ بها، وخاصة لدى الإنسان المؤمن الذي بحكم إيمانه المتين بخالق الكون والمتصرّف فيه وفي عباده، أوكل أمره إلى الله الرحمن الرحيم، حينها تطمئن نفسه ويعود الهدوء والأمل إليه، فينعم بما كرّمه به، ويحسن

امتلاكه والتصرف فيه، وتدوّقه بما في ذلك الجمال.. الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يتجاوز واقعه، ويسمو بنفسه إلى مراتب أعلى وصولاً إلى سلوك الخير، والفضيلة، والحب في أسمى مراتبه.

القرآن الكريم يحثنا على تأمل الجمال

إن القرآن الكريم حثّ الإنسان المسلم على تأمل الكون ، والتدبر فيما أبدعه الله فيه من مظاهر الجمال، وهو وصولٌ إلى محبة مبدع هذا الجمال ، فالجمال سببٌ من أسباب حبّ الخالق.. إن المسلم الحقيقي والسوي في رؤيته لنفسه، وإيمانه بخالقه ، وبكلّ ما يحيط به يذكره بالله.. وكل ما في الكون يأخذ وجهته نحو الخالق .

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه، " إحياء علوم الدين ":

«... والمسلمون يحيطون أنفسهم بكل ما هو من شأنه أن يذكرهم بالله، فإن كل شيء داخل هذه الأمة يأخذ وجهته نحو الله عزّ وجلّ، والجمال هو الطاقة المحركة للنفس الإنسانية من خلال فعل الحبّ لله من حيث كونه عزّ وجلّ موضوع الجمال، فالله جميلٌ يحبّ الجمال، فالله الواحد الأحد هو منتج الخلق ومبدع الجمال.»، وبذلك نلاحظ التداخل، أو التكامل بين الخلق، والإبداع في الذات الإلهية .

الجمال الحقّ منبعه البصيرة

أضاف الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

«...إن الجمال مرتبط بالحبّة، فالجمال دافعٌ للحبّ، وسببٌ من

أسبابه.»

إلا أن الحبّ المرتبط بالجمال، لا يُنتظر منه فائدة، ولا منفعة ، فالإحساس بالجمال عنده كما عند الفيلسوف الألماني المعروف (كانط) منزّة عن الغرض، فالحبّ لذاته، وليس لفائدته .. فالغزالي جعل الجمال الظاهر من شأن الحواس، والجمال الباطن من شأن البصيرة . القلب . وقد اقترن رأي الإمام أبو حامد الغزالي ببناء الاتجاه الأخلاقي الموحد على أساس وقيم، ومعالم التخلّق بأخلاق الله (المطلق) ، هو بالقدر ذاته رؤية الجمال الحقّ والتحليّ به .. وهي المقدمة التي تحوي في ذاتها وحدة الخير المحض ، والجمال في الوجود كلّه .

كما كان للأفكار الصوفية تأثيرٌ على مفهوم الجمال، حيث تقوم الفكرة الأساسية لدى الصوفية، أن الإنسان يستطيع أن يتحد في ذات الله روحيا عن طريق الوجدان والحياة المتقشّفة، والتنسك، والعبادة الخالصة، وتنقية الروح والنفس من جميع الرغبات، والشهوات الدنيوية؛ ومتى ما يصبح في حضرة الذات الإلهية يدرك أن الجمال الحقيقي هو فيما يرى من نورٍ، وما جمال العالم إلا انعكاسٌ للجمال الإلهي الحائط بجمال صورته الظاهرة، وبين من يحبّ نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة. وهناك قولٌ حاسم للغزالي أيضا في موضوع الجمال وهو يقول:

«من لم يُحرّكه الربيعُ وأزهاره، والعودُ وأوتاره، فهو فاسدُ المزاج ليس له علاجٌ.»

بالرغم من مآسي الحياة، وقساوة عوادي الأيام، أجمع البشرُ على حبّ الجمال والتعلّق به، والبحث عنه لسطوته على مشاعرهم، وأثره في نفوسهم، ولكنهم تباينوا في تعريفه أو تفسيره.

وذهب البعض من اللغويين العرب إلى أنّ كلمة " الجمال " يمكن أن تكون واردة من كلمة: " الجمل " التي تقرن الجمال بالمنفعة. ويجوز أن تكون التعابير الواردة في الذكر الحكيم مثل (سَراحا جميلا، أو (صفحا جميلا)، أو (هجرا جميلا) ما يرمز للتسامح وروح الإيثار.

المراجع:

1. القرآن الكريم
2. الحديث النبوي
3. بشير خلف. الجمال فينا و حولنا . دراسة . ط . 1.. 2007 وزارة الثقافة/الجزائر
4. الجمال رؤية أخرى للحياة . دراسة . بشير خلفط 1 ..وزارة الثقافة/الجزائر

الفنُّ.. إبداعٌ إنساني

الفن، أو الفنون (Arts) هي نتاجٌ إبداعيٌّ إنسانيٌّ، تعتبر لونا من الثقافة الإنسانية، لأنها تعبيرٌ عن الذاتية، وليست تعبيراً عن حاجة الإنسان لمتطلبات حياته رغم أن بعض العلماء يعتبرون الفن ضرورة حياتية للإنسان كالماء، والطعام. الفنُّ نتاجٌ إبداعيٌّ للإنسان حيث يشكّل فيه الموادّ لتعبّر عن فكره، عن رؤاه، أو يترجم أحاسيسه، أو ما يراه من صور، وأشكال يجسّدها في أعماله

المعنى الدلالي لكلمة (فن)

حاليا تستخدم كلمة (فن) لتدلّ على أعمال إبداعية تخضع للحاسة العامة كفن الرقص، أو الموسيقى، أو الغناء، أو الكتابة، أو التأليف، أو التلحين وهذه تعبيرٌ عن المهوبة الإبداعية في العديد من المهارات الفنية؛ والبشر بدؤوها في ممارسة الفنون منذ 30 ألف سنة. وكان الرسم يتكون من أشكال الحيوانات، وعلامات تجريدية رمزية فوق جدران الكهوف. ومنذ آلاف السنين كان البشر يتحلّون بالزينة، والمجوهرات، والأصباغ.

" الفن " هو التعبير الجماليّ عن فكرة، أو ذوق معيّن، هو ميدان جدّ واسع، وثريّ مثل: الرّسم، المسرح، الطّبخ، السّينما، الموسيقى، فن العمارة، فنون التلوين، التصميم... إلخ، فكلّ هذه فنون لها

ميادينها الخاصة بها، وهناك مَنْ يعرف الفنّ بكونه التّشاط الإنسانيّ الذي يحمل دلالات الوجدان، والإحساس والشّعور. (بصمة النّفس الإنسانيّة).. ولعلّ الوظيفة الرئيّسة للفن هي تهذيب النّفس البشريّة، والارتقاء بها إلى أعلى مراتب التعبير الجماليّ.

من قديم عبّر، ويعبّر الفن عن الهويّة

في معظم المجتمعات القديمة الكبرى كانت تُعرف هوية الإنسان من خلال الأشكال الفنيّة التعبيريّة التي تدلّ عليه كما في نماذج ملبسه، وطُرُزها، وزخرفة الجسم، وتزيينه، وعادات الرقص، أو من الاحتفاليّة، أو الرمزية الجماعيّة الإشاراتيّة التي كانت تتمثل في التوتّم (مادة) الذي يدلّ علي قبيلته، أو عشيرته.

وكان التوتّم يُزخرف بالنقش ليروي قصة أسلافه، أو تاريخهم. وفي المجتمعات الصغيرة كانت الفنون تعبر عن حياتها، أو ثقافتها.. فكانت الاحتفالات، والرقص يعبران عن سير أجدادهم، وأساطيرهم حول الخلق، أو مواعظ، ودروس تثقيفيّة.

الكثير من الشعوب كانت تتخذ من الفن وسيلة لنيل العون من العالم الروحاني في حياتهم؛ وفي المجتمعات الكبرى كان الحكام يستأجرون الفنّانين للقيام بأعمال تخدم اتّجاههم السياسي، كما كان في بلاد الأنكا بأمريكا اللاتينيّة؛ فلقد كانت الطبقة الراقية تُقبل على الملابس، والمجوهرات، والمشغولات المعدنيّة الخاصّة بزيتهم إبان

القرنين 15م. و 16 م. لتدل على وضعهم الاجتماعي؛ بينما كانت الطبقة الدنيا تلبس الملابس الخشنة والريثة

الفنون في نسيج حياتنا المعاصرة

وحاليا نجد أن الفنون تُوظف في المجتمعات الكبرى لغرض تجاري، أو سياسي، أو ديني، أو ثقافي، أو إسهاري، وتخضع للحماية الفكرية.. وإن كان هذا نسبيا، حيث عملية القرصنة انتشرت بشكل واسع لعدّة عوامل موضوعية، وأخرى غير موضوعية، لا يتسع مجال هذا الكتاب لعرضها، وتحليلها.

تعددت أنواع الفنون

الفنون، منها ما سائر التاريخ منذ القدم، ومنها ما ظهر حديثا. اليوم هناك فنون جميلة مثل التصوير، والنحت، والحفر، والعمارة، والرسم. وهناك فنون كالموسيقى، والأدب، والرقص، والمسرح. كما ظهر في السبعينيات مصطلح الفنون الإعلامية، وهي تشمل فن السينما، وفن الفيديو، وفنون إلكترونية، وفنون الأنترنت. وكذلك فن الإشهار المعاصر.

كما أنّ هناك فنونا مادية كالرسم، والنحت، والزخرفة، وصنّع الفخار، والنسيج، والطبخ، والفنون الغير مادية نجدها في الموسيقى، والرقص، والدراما المسرحية، والإبداع القصصي والروائي، وهناك فنون بصرية كالرسم، والنحت، والعمارة، والتصوير، وفنون زخرفية، وأعمال يدوية وغيرها من الأعمال المرئية.

مفاهيم للفن

إن الفن بالمعنى العام هو جملة القواعد المتبعة لتحقيق غاية معينة: جمالا كانت، أو خيرا، أو منفعة. فإذا كانت هذه الغاية هي تحقيق الجمال، سُمي بالفن الجميل، وإذا كانت تحقيق الخير سُمي الفن بفن الأخلاق، وإذا كانت تحقيق المنفعة سُمي الفن بفن الصناعة.

قديمًا.. تزواج الفن بالصناعة

لئن كان المصطلح القديم في العربية يعني بكلمة " الفن " صناعة " فكل ما اقترن بكلمة " فن " وبخاصة ما له علاقة بالفنون الجميلة كالخط، والشعر مثلا عرفه المسلمون والعرب "بالصناعة"، حيث كانوا يقولون " صناعة الأدب "، " صناعة الشعر"، وفي صدد الحديث عن الألمان جاء في كتاب " العقد الفريد " لابن عبد ربّه قوله في الصفحة السابعة من الجزء الثاني:

«وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب، والحكم والنوادر، والأمثال عطلاً من هذه الصناعة التي هي مُراد النفس...»
كما أن العلامة ابن خلدون أكد هذا الاستعمال حينما تحدّث عن الصنائع وعدّ من جملتها صناعة " الغناء والبناء " .. وكذلك ما يُرجع إليه من التزيين والأشكال المجسّمة من الحصّ..

مما سبق يتبيّن لنا أن كلمة " صناعة " كانت هي المصطلح المتداول في الحديث، والكتابة عن الشعر، والغناء، والموسيقى، والرسم، والخط، والزخرفة، والتزويق، والبناء، والعمارة.. التي أُطلق

عليها في عصرنا هذا اسم " الفن ". في العصر الحديث، نجد للفن معنيين كما يشير إلى ذلك معجم لالاند الفلسفي:

— **معنى عام** يشير إلى مجموع العمليات التي تُستخدم عادة للوصول إلى نتيجة معينة.

- ومعنى جمالي، أو استيطقي يجعل من الفن كلَّ إنتاج للجمال يتحقق في أعمال يقوم بها موجودٌ واعٍ، أو متصفٌ " بالشعور " هو الفنان، فالفن بالمعنى الأول كما قال « راموس » هو:

« مجموعة من المبادئ العامة الحقيقية، النافعة، المتوافقة، التي تؤدي في جملتها إلى تحقيق غاية واحدة بعينها. »

مفاهيم الفن لدى بعض المفكرين

الفن بهذا المعنى، هو ما يقوم في مقابل « العلم » من جهة، بوصفه معرفة خالصة، ومستقلة عن سائر التطبيقات العلمية، وما يقوم في مقابل « الطبيعة » من جهة أخرى، بوصفها قدرة فاعلة تنتج من دون وعي، أو تفكير؛ وأمّا الفن بالمعنى الثاني، فهو عملية إبداعية تنحو نحو غايات جمالية (استيطقية)، في حين يستند العلم إلى غائية منطقية، على حدّ تعبير لالاند .

الفن تعبير إنساني تتنفي منه النفعية

إن الفن في رأي العديد من الفلاسفة، وعلماء الفن والجمال: هو نشاطٌ يجعل للمتعة صفة: « النزاهة الخالصة » التي لا تشوبها شائبة

من أغراض، أو نفعية، أو مصلحة. وربما كان هذا أيضا هو المعنى الذي قصد إليه المفكر الألماني «Lange» حينما عرّف الفن: «إنه مقدرة الإنسان على إمداد نفسه، وغيره بلذة قائمة على الوهم من دون أن يكون له أي غرض شعوري يرمي إليه سوى المتعة المباشرة».

وشبيه بهذا التعريف أيضا ما ذهب إليه الفيلسوف الإنكليزي شلي (Sully) حينما يقول:

«إن الفن هو إنتاج موضوع له صفة البقاء، أو إحداث فعلٍ عابر سريع الزوال، يكون من شأنه توليد لذة إيجابية لدى صاحبه من جهة، وإثارة انطباعات ملائمة لدى عدد معين من النظارة، أو المستمعين من جهة أخرى، بغضّ النظر عن أيّ اعتبار آخر قد يقوم على المنفعة العملية، أو الفائدة الشخصية».

قال عباس محمود العقّاد رحمه الله:

«إن الفن في أصل اللغة: هو الخطّ واللون، ومنه التنفين بمعنى التزيين، والتزويق، والأفانين بمعنى الفروع أو الضروب، وهكذا كلّ ما تعدّد فيه الأشكال، والأوصاف ممّا يُنظر بالأعين أو يُدرك بالأفكار.»

الفنّ الحقّ ما ربط بين الجمال والحقّ

الفنّ السليم الذي يُهيئ اللقاء الكامل بين الجمال، والحقّ، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحقّ هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود.

يُعرّفه الأستاذ محمد قطب الفن:

«الفنّ في أشكاله المختلفة - هو محاولةُ البشر لتصوير الإيقاع الذي يتلقّونه في حسّهم من حقائق الوجود، أو من تصوّرتهم لحقائق الوجود في صورة جميلة مؤثّرة.»

وهذا الإمام عبد الحميد بن باديس يقرب إلى أذهاننا مفهوم

الفن وهو يتحدّث عن الفن الأدبي:

«...الفن إدراك صفات الشيء على ما هي عليه من حُسنٍ ، وقُبْحٍ إدراكا صحيحا، والشعور بها كذلك شعورا صادقا، والتصوير لها تصويرا مطابقا بالتعبير عنها بعبارات بليغة في الإبانة، والمطابقة للحال، ذلك هو الفن الأدبي.»

الفن يعبر عن الواقع بلمسات الجمال

من ذلك يتّضح أن الفنّ هو تحويلٌ للواقع بواسطة أساليب

تعبيرية، وأدائية من نوع خاص

؛ وسواء أكان الفن عملية تحويل، أو عملية رمزٍ، أو هروب من الواقع، أو تسامٍ عليه، فلا يهمّ ذلك.. إنما المهمّ أنه انتقالٌ من حقيقة عادية شائعة إلى عالم يفوق الواقع يتّصف بالجمالية، وحُسن الدّوق .

الفنون في حياتنا، فالفنون نتاجاتٌ إنسانية ضرورية تفرضها ضرورات غريزية في النفس البشرية، وهي وسيلة أساسية للتعبير والتواصل بين البشر، كما أنّها أداة لصناعة الجمال والتزيين لشقّي مناحي الحياة الإنسانية.

إن الفنون تحمل خبرات وتجارب الحياة، وذلك فهي وسيلة راقية لتنوير وتعليم الإنسان، وتربية ذوقه، وحسنه الجمالي.. إن الشعب الذي تنمو فيه الفنون والآداب هو شعبٌ متطورٌ .

قيمة الفنون في حياتنا ليست موضع شكٍ، أو خلاف.. فكل إنسان مفضوئاً بطبعه على محبة الفنون، فهو يحسّ في أعماقه بالانجذاب إليها، على أساس أنها مجلبةٌ للذة والسرور، والنفس ميالةٌ بفطرتها إلى الخير، والجمال، والحق، والفضيلة.. والفن هو محاكاة الجمال الطبيعي، وصناعته.

الفن أداة السموّ والإمتاع

من هنا فإن الفن أداة للسموّ بالمجتمع، وإمتاعه، وإقناعه وخدمته، حيث يمثل الفن جزءاً من ثقافة أي أمة من الأمم. وقد عرفت الثقافة الإسلامية فنوناً قولية وشعبية انتشرت في البلاد العربية والإسلامية وخاصة فنون الشعر الغنائي، والنثر الفني، والسير الشعبية، والقصص الخيالية، والتاريخية، فضلاً عن فنون الهندسة المعمارية، والرسم، والخط، والزخرفة سواء على الورق، أو الجدران، أو المحاريب، أو مداخل القصور والمساجد.. وغير ذلك. بيد أن الاحتكاك مع حركات الاستعمار الأوروبي، وطلائع التنصير والثقافة الغربية مهّدت لازدهار فنون جديدة كانت معرفة المسلمين بها محدودة، أو غير واضحة مثل: المسرح، والسينما والأوبرا، ومؤخراً

دراما التلفزيون، وكلها تقوم على العنصر الدرامي: (الحكاية والصراع في داخلها، أو الحوار بين شخصيها).

تعددت تصانيف الفنون تعدد رؤى المفكرين

في رأينا أقرب التصانيف إلى الفهم والتحديد هي كالتالي:

1. الفنون السمعية أسبق الفنون وتضم:

- فن الترتيل
- فن الموسيقى
- فن الغناء.
- * فنّ الإنشاد
- فنّ الموشّحات.. شعرٌ جميل يخلّق بأجنحة الغناء

2 – الفنون البصرية .. بصمة الهوية.. وسرّ الإبداع ، وتضم:

- فنّ العمارة • فنّ النّحت • فنّ النقش • فنّ الفسيفساء
- فنّ الخزف • فنّ الخطّ • فن الزخرفة • فن المنمنمات

- فنّ الرّسم • الكاريكاتير فنّ الجميع

3 – الفنون السمعية البصرية :

- فن الرسوم المتحركة
- فن المسرح
- فن السينما

- فن الموسيقى
- فن الغناء
- فن الإنشاد.

4 – الفنون القولية .. أدواتها الكلمة، وتضمّ:

- الكلمة الطيّبة
- فنّ الشعر
- فنّ القصّة
- فنّ القصّة الطويلة (الرواية)
- فنّ الخطابة

المراجع:

- (1) . أ. أحمد محمد عوف. موسوعة حضارة العالم/فنون.
- (2) - مدخل إلى فنّ الإنشاد. سلسلة: شرفات على بحور المعرفة. إنتاج : جهاز أنسام الصباح للتربية الفنية بالاشتراك مع شبكة المجرة الإخبارية. جانفي 2011.
- (3) - د. رمضان الصباغ. العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الفن. عالم الفكر- الكويت/المجلد السابع والعشرون. العدد الأول. سبتمبر 1988
- (4) - ابن عبد ربّه . العقد الفريد الجزء الثاني. .
- (5) - العلامة ابن خلدون. المقدمة. ط4 دار القلم. بيروت.
- (6) - أ. عباس محمود العقاد. ساعات بين الكتب(الفنان أو معاني الكلمات)
- (7) - أ. محمد قطب. منهج الفن الإسلامي. دار الشروق/بيروت
- (8) - د. د. عمار طالبي. النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس. مجلة الأصالة العدد السابع. السنة الثانية. ماي/ أبريل 1972
- (9) - د. عبد العزيز عتيق. في النقد الأدبي. ط2 1972 دار النهضة العربية بيروت.

الجمال والفن.. تكامل وتماهٍ..

أم انفصال وتنافر؟!!

الجمال في هذا الكون الفسيح أكبر، وأكثر من إدراك الإنسان الفاني.. الضعيف.. العاجز عن الإلمام بكل شيء، فالكون أوسع من أن يحيطه الإنسان بعقله المحدود.. والأشياء التي تنتظم هذا الكون الفسيح، إمّا أن تكون أجساما لها طول، وعرض، وعمق كالإنسان، والحيوان، والسماء، والأرض، والشمس، والقمر، ونحوهما؛ وإمّا أن تكون معاني، كالأقوال، والأفعال، والأسماء، والصفات، ونحوها.

إن لكل إنسان رؤية وردود أفعالٍ حول الجمال كمفهوم، والجمال كانبطاع تجاه أشياء مادية، وروحية مختلفة يتذوق جماها عقلياً، تترك في نفسه إحساساً بالبهجة، والارتباك، والنشوى، والدهشة؛ فهو المقياس، الذي يحدد جمال المادة التي تترك لدى المتلقي، الانبطاع، والإحساس بالبهجة، سواء كان عن طريق التأمل العقلي، أو السمع، أو النظر، أو التذوق. العلاقة بين الجمال، والفن علاقة تلازمية، فإذا كان الجمال، وكما يقول المرحوم زكي نجيب محمود:

«...الجمال هو التكوين الذي يجعل الدنيا، والحياة موضعاً للإعجاب

والحبّ.»

الفن صنعة وابتكار وإنتاج

إن الفن رؤية تعبر عن حياة الإنسان، وما يتعلق بها من أدوات، وأنماط مختلفة؛ فمنها التعبير الشكلي، والصوتي، والحركي، ونحو ذلك من أساليب التعبير التي يمارسها الإنسان، وترتبط بشكل مباشر، أو غير مباشر بحياة الفرد اليومية. والفن وُلد مع الإنسان منذ القدم في بدايات فطرية، وبعمر الزمن أصبح حالة جمالية مدروسة، كما نراه اليوم.. ولعلَّ ممَّن أحسنوا التعبير عن مفهوم " الفن " الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه " ساعات بين الكُتب ":

«إن الفن في أصل اللغة هو الخطُّ، واللون ومنه التقين، بمعنى التزيين، والتزويق، والأفانين بمعنى الفروع، أو الضروب.. وهكذا كل ما تعددت فيه الأشكال، والأوصاف ممَّا يُنظر بالأعين، أو يُدرك بالأفكار.»

ومنه يمضي العقاد في تعريف الفنان:

«... فالذي لا ريب فيه إذن هو أن لفظة "فنان" كلمة عربية، وقياس عربي؛ وأنها بمعنى الكثير الفنون، أو الكثير التزيين.. لأن العرب تقول " فنَّ الشيء " أي زينه، فهو فأنٌّ وفنَّان.»

الفن الحقيقي ما سما بالذوق، وقرَّب ما بين الإنسانية

الأديب الروسي ليو تولستوي في كتابه: " ما هو الفن؟ " يربط ما بين الجمال، والفن اللذين رسالتهما تسعى إلى التعاون مع الدين، والعلم لإصلاح النفس البشرية من الداخل، وإقرار السلام في كل

قلب، وعقل؛ حتى تقوم المحبة بين الناس مقام القانون، ولا تعود الإنسانية بحاجة إلى أدوات التنظيم الاجتماعي كالحاكم، وقطاع الأمن، والهيئات الخيرية، وغيرها. الفن الصحيح في رأي تولستوي هو ما وُضع عن الناس وللناس، وعن المجتمع، وللمجتمع، وعن الحياة وللحياة.. والفن الأصيل عنده ليس الفن الطبقي الذي تشعر، وتمتع بجماله، وتدرك مغزاه طبقة واحدة من طبقات المجتمع؛ بل إنه الفن الإنساني الذي يشارك في فهمه، والإحساس به، وتذوقه، والاستمتاع به جميع الأفراد، وكلُّ الطبقات، وسائر أبناء الإنسانية، والمعيّار الحقيقي لكل فنٍّ هو قدرته على التقريب بين أبناء البشرية ليتحدوا شعورياً، وتسمو نفوسهم، فتَهفو إلى الحقِّ، والفضيلة، والعدل، والجمال في أبهى صورة.

الجمال إدراك واستمتاع

الفن يشير إلى العمل الإنتاجي، أما الجمال يشير إلى الإدراك والاستمتاع؛ حيث أن الفن عملية خلق، وابتكار، وإنتاج، وتنميق، وتحسين.. والجمال تقديرٌ واستمتاعٌ بسمات، وصفات موجودة في شيء ما مرغوب فيه؛ أي الجمال قيمة من القيم التي يتّصف بها الشيء الجميل، وتشكل سمة له حين تتوفر فيه خصائص معينة، فالفن هو عملية فعلٍ لشيء معين، وينطبق هذا على الفنون الجميلة، كما ينطبق على الفنون التطبيقية كفن: النجارة، والحدادة، والجواهر، وفن

اللباس، والطبخ، والعمارة، والتلوين.. أي كل ما يمَسّ حياة الإنسان؛
أمّا الجمال يعني الخبرة من ناحية الاستمتاع، والتقدير.

مجالات الجمال متعددة، من أهمّها: الجمال الطبيعي الذي لم
تتدخّل فيه يد الإنسان، حيث هذا التدخّل قد يكون إيجابياً بفعل
الصيانة، والوقاية، والتحسين، والتنسيق.. وهذا ما نسميه "الفن" وقد
يكون تدخّل الإنسان سلبياً كارثياً مدمراً للجمال الطبيعي، وهذا ما
نشاهده، ونعايشه في واقعنا اليومي، محلياً، وجهوياً، ووطنياً، وعالمياً.

أهمّ مكونات الجمال.. الجماليات البيئية

تمتّع الإنسان بجماليات الطبيعة، وما تحويها دفع بالبعض من
علماء النفس إلى إطلاق ما يُسمّى بـ: (الجماليات البيئية)، وهي المتعة
الجمالية التي يشعر بها الإنسان في البيئة التي يحيا فيها، وخاصة الفضاء
الطبيعية منها. إن الجمال الطبيعي هو أمرٌ عام، أو عالمي بين البشر،
فعبّر التاريخ وفيما بين كل الثقافات، ولا يزال حتى ساعته، كان
هناك ميلٌ قويٌّ لدى الناس كافة لتفضيل القيم الجمالية للمناظر
الطبيعية؛ وبرغم ما يمكن أن يقال من وجود بعض المؤثرات الثقافية
فيما يتعلّق بالتفضيلات الطبيعية، والقيم الجمالية؛ فإن معظم
الدراسات قد أشارت إلى أن أغلب الناس يفضلون الأنواع نفسها من
المناظر الطبيعية كما لو أن هناك معياراً عاماً للذوق الطبيعي، ويفترض
بعض هؤلاء العلماء أن هذا المعيار فطري له دلالته التكوينية،
والتطورية، وعناصر الطبيعة التي فضلها الناس، والتي أشار إليها

البعض في دراسات، وأبحاث بيولوجية، وجغرافية، وسيكولوجية كثيرة كانت هي :

- وجود الماء، خاصة الماء النظيف المتجدد والضروري للحياة.
- وجود نباتات خضراء ذات أوراق يانعة نضرة تُبهج الناظرين، وترتبط بوجود الفاكهة، والطعام، والزهور بشكل عام.
- وجود أماكن مفتوحة كبيرة تُقدم الفرص المناسبة لحرية الحركة.
- وجود أجسام من الأشجار المنفردة، ووجود شجيرات خفيفة كثيفة الأغصان، مما يقدم نوعاً من المأوى.

الإنسان السويّ بالفطرة أقرب إلى الجمال الطبيعي

إن المناظر الطبيعية التي تشتمل على العناصر السابقة، وغيرها مما لم نذكره، تكون هي أكثر البيئات إثارة لسرور الإنسان، وارتياحه، وشعوره بلذّة الجمال الطبيعي. بعض الأماكن تكون مُريحة، أو جميلة، وكأنها تدعونا إلى أن ننظر إليها، أو نتمنّى الإقامة فيها؛ بينما بعضها الآخر يكون مثيراً للكآبة، والنفور، والبعد. الناس عادة ما يميلون إلى تفضيل الأماكن التي تُوفّر لهم الطعام الكافي، والماء، والمأوى، والمعلومات، والمتعة الجمالية، والتثبيت لحياتهم الإنسانية بشكل عام، ويتجنبون تلك البيئات التي لا تُوفّر تلك الأشياء.

القرآن الكريم وتأمل الكون

إن القرآن الكريم حثّ الإنسان المسلم على تأمل الكون، والتدبّر فيما أبدعه الله فيه من مظاهر الجمال، وصولاً إلى محبة مبدع

هذا الجمال، فالجمال سببٌ من أسباب حبّ الخالق.. إن المسلم الحقيقي السوي في رؤيته لنفسه، وإيمانه بخالقه، وبكلّ ما يحيط به يُدكِّره بالله.. وكل ما في الكون يأخذ وجهته نحو الخالق.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " :

«... والمسلمون يحيطون أنفسهم بكل ما هو من شأنه أن يذكرهم بالله؛ فإن كل شيء داخل هذه الأمة يأخذ وجهته نحو الله عزّ وجلّ ، والجمال هو الطاقة المحرّكة للنفس الإنسانية من خلال فعل الحبّ لله من حيث كونه عزّ وجلّ موضوع الجمال ، فالله جميلٌ يحبّ الجمال ، فالله الواحد الأحد هو منتج الخلق، ومبدع الجمال .»

المراجع:

- 1 . ماجد محمد حسن . الجمال في الفكر الإسلامي . موقع الحوار المتمدن .
- 2 . الإمام أبو حامد الغزالي . كتاب إحياء " إحياء علوم الدين " دار المعرفة . بيروت .
- 3 . د . شاكِر عبد الحميد . التفضيل الجمالي . سلسلة عالم المعرفة . 267 دولة الكويت .
- 4 . الشيخ كامل محمد محمد عويضة . مقدمة في علم الفن والجمال . دار الكتب العلمية 1996 بيروت .
- 5 . أ . عباس محمود العقاد . ساعات بين الكتب . دار الكتاب العربي . 1969 بيروت ط2
- 6 . أ . محمود زمزم . تأملات في الأدب والفلسفة والحياة . ط1 1996 دار الكتاب الحديث . الكويت .

الفنان.. الإنسان وسمو أداء الرسالة

" لا يوجد فنان عظيم يرى الأشياء على حقيقتها،
لأنه لو فعل، فلن يصبح فنانا."

(أوسكار وايلد)

تعددت أنواع الفنون، منها ما سائر التاريخ منذ القدم، ومنها ما ظهر حديثا. حاليا هناك فنون جميلة مثل: التصوير، والنحت، والحفر، والعمارة، والخط، والرسم؛ كما هناك فنون كالموسيقى، والأدب، والرقص، والمسرح. كما ظهر في السبعينيات مصطلح الفنون الإعلامية، وهي تشمل: فن السينما، وفن الفيديو، وفنون إلكترونية، وفنون الأنترنت. وكذلك فن الإشهار المعاصر.. ويمكن تقسيم الفنون إلى: فنون سمعية، بصرية، سمعية بصرية، فنون قولية. تُعدُّ الفنون من أهمِّ الوسائل التي يمكن من خلالها إعادة بناء الوعي، لقدرتها على التغلغل في وجدان الناس، واستثارة ضمائرهم ولجاذبيتها الجميلة في مخاطبة عقولهم، سواء أكان هذا الخطاب صامتا، أم معلنا!.. فهي حين تخلق عالما بديلا موازيا للواقع المعيش؛ إنما تُعطي المتلقي فُرصًا لتأمل واقعه وقضاياها، والتعرّف إلى نفسه، ومشكلاته؛ ثم إمكانية إيجاد حلول لهذه المشاكل من خلال البدائل التي تطرحها أمامه. شريطة أن تصدر هذه الفنون عن فلسفة أخلاقية مرتبطة بصالح الإنسان، والعالم الذي حُلق من أجل أن يبينه.

الفنون تنقذ الإنسان من التمرّق

إنّ الفنون تستطيع أن ترفع الإنسان من التمرّق، والتشتت إلى الوحدة، والتكامل، وتُنقذه من الفشل واليأس.. الفنون أداةٌ سحرية راقيةٌ لاحترام الفرد، ومساعدته على الاندماج في المجتمع.. تساعد الفنون الإنسان على فهم الواقع، وهي نوعٌ من التطهير النفسي لعواطف حبيسة، ورغباتٍ مكبوتة.. ففي الفنون تنعكس هذه العواطف، والرغبات بأسمى معانيها، وتتجلّى في إبداعات فنية مختلفة راقية ساحرة أخّاذة، يجسّدها الفنان. (1)

أهداف إنسانية نبيلة تشترط وجود فنان أصيل مقتنع بهذه الأهداف مبدئياً، ثم إنه يمتلك المؤهلات، والمواهب، والقدرات المعنوية والخبرة، والموهبة.. ومن القيم التي تجعل منه رائداً في مجاله، ومساهمًا مع غيره في تكوين العقول، وتربية الذوق الفردي والجمعي..

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل نعثر أيّامنا هذه على هذا الصنف من الفنانين، ومفهوم الفن لدى العامة تميّع وفقد مفهومه الحقيقي، وتلخّص في الغناء الهابط، والكلمة التي تخاطب الغريزة، ولا تخاطب العقل.. والموسيقى الصاخبة...

(1) - نوبلر، ناتان (1987) حوار الرؤية: مدخل إلى تذوق الفن والتجربة الجمالية، ترجمة فخري خليل، بغداد: دار المأمون، ص: 33

عندما نتحدث عن الفنون لا نملك إلا أن نجدها وسطا بين إبداع الفنان، وتذوق المتلقي. ذلك أنه إذا سلمنا أن وجود المبدع حتمية أساسية لوجود الفن، فكذلك لا يمكن لأي عملٍ فنيٍّ أن يترك أثرا بدون وجود متلقين يحكمون على جودة هذا العمل الفني، وإلا لما بقيت الأعمال الفنية الخالدة عبر الأجيال المتعاقبة؛ إلا أن الفنان بالرغم أنه لسان عصره، فهو سابق عليه في كثير من الحالات، حيث هو من يصنع الجديد، والمختلف.

كل إنسان يحمل بالفطرة بذرة الفنان

تؤكد الدراسات النفسية الحديثة في أن كلا منا يحمل في طبيعته العميقة بذرة فنية. فالإنسان موهوب بالفطرة، ولكل منا موهبته الخاصة، في الشعر، في الرسم، في الموسيقى، في الطبخ، في النجارة، في الحدادة، وفي كل أنشطتنا الإنسانية؛ فالفن محبوس في أعماقنا. فإن لقيت هذه البذرة التوجيه السليم نمت، وترعرعت. الفرق إذن بين الفنان، وأي شخص آخر هو أن الأول يطور استعداداته الذهنية، والعاطفية، والمهارات اليدوية لإنتاج شيءٍ كامن في ذواتنا.⁽²⁾

الفنان..

بالرغم من الاختلافات المتباينة حول تعريف الفن، والفنان، إذ يُعرّف البعض الفنان بأنه باحث ... بينما يراه البعض الآخر

(2) - د. عدنان رشيد. ما هو الفن؟ ص 62. مجلة العربي. العدد: 274

كناطق رسمي لهموم المجتمع، وقضاياه.. إلا أن الجميع يتفق على تعريف الفنان بأنه أشبه "بأنثى في حالة محاض دائم" هذا المخاض الذي قد ينتج نتاجات مختلفة سواء في الشكل، أو المضمون، كما انه قد يتعرض لمحاولات إجهاض عديدة... بل يمكن القول إن الفنان يعيش في حالة مقاومة مستمرة لمحاولات الإجهاض التي يتعرض لها، هذه المقاومة هي ذاتها "جينات" لمخاض جديد.

تُرى ما هي الموهبة الفنية الأصيلة؟ ما شروطها؟ وكيف يمكن الاستدلال عليها؟ وكيف ينمّيها الفنان في نفسه، وبصقلها؟
أسئلة أجاب عنها الكاتب الروسي الراحل أنطوان تشيخوف في رسائله لأصدقائه، وفي كتبه، وقصصه.

الموهبة عند تشيخوف معركة دائمة بين الفنان، وبين التخلف، سواء في نفسه، أو في الوسط الذي يعيش فيه، معركة ينبغي أن تكون جماعية، أي أن يدعو الفنان زملاءه إليها كما يدعو الجندي زملاءه في ساحة الحرب، ولهذا فالموهبة الناضجة لا تقتضي من الفنان تقويما فكريا فحسب، بل تقويما حُلُقيا في الوقت نفسه، أي أن على الموهوب أن يطرد من نفسه كل أثر للهمجية سواء في الفكر، والسلوك، وعليه أن يكون مخلصا غاية الإخلاص وهو يبدع.. وأن يكون على علاقة وطيدة مع أعماقه.. لأن أجمل ما في الفن الإخلاص، والبساط، والموهب.. هي الشجاعة، لأن الجبن لا ينتج فنا، بل مرضا يلبس مُسوح الفن، وإذا كانت الشجاعة تكلف

الإنسان الكثير؛ فإن الفن يتطلب من الفنان خصائص شخصية ممتازة، وتضحيات لا حصر لها، ويربط «تشيكوف» بين الموهبة، والقيم الأخلاقية ربطاً محكماً، لأن الإبداع الأصيل والخلق هما جناحا الفنان الحقيقي. ففي قصته «مشاعر حادة» يقول تشيكوف:

«إن الموهبة قوة أصلية كالغرائز.. كالإعصار.. تستطيع أن تسحق الصخر تراباً، وأن تخلق كل شيء، وأن تدمر أي شيء، إن لم تصاحبها مشاعر إنسانية سامية، وتنمية القيم الأخلاقية مرادفة لتنمية المعرفة بالثقافة، والحياة، دعامتان لا غنى لإحدهما عن الأخرى.

إن الفنان الحقيقي إنسان متحضر، مهذب يكره الكذب كما يكره الطاعون، لا يتكلف سلوكاً، فهو يتحرك بين الناس كما يتحرك في منزله الخاص، لا يثير ضجة كبرى حين ينجز عملاً فنياً، ولا يطبل لنفسه، ويتجنب الأضواء ويفضل أن يكون بين الجمهور، ومن المعروف أن البرميل الفارغ يثير ضجة أكثر من الملائن.

الفنان الواعي بموهبته مُطالبٌ بأن يؤثر في الناس، ويعلمهم، كما هو مطالب بتثقيف نفسه في كل ساعة من ساعات حياته.. وفي مسرحية «الخال فانيا» تقول البطلة هيلينا لسونيا ابنة أخت الخال: «أتعلمين ما هي الموهبة؟ إنها الشجاعة.. واستقلال الرأي.. وسعة الأفق» وحيث لا تكون معرفة لا تكون شجاعة.. والموهبة هي التحرر من العواطف البدائية، ولهذا فالموهبة هي الحرية، والموهبة هي العمل،

قوة واحتمال، والموهوب حقا لا يشتكي، لأن الشكوى هي انتقاص من القدرة على العمل، وعلى الانتاج...»،

عاش تشكوف، ومات دون أن يزعم من حوله بالشكوى، بالرغم من أن لديه الكثير مما يستوجب ذلك، لقد طارده الحاجة طوال شبابه، وقد ناضل ليعيش في وسط كفيل بأن يقتل أقوى درجات الإلهام، وعانى لمدة خمسة عشر عاما من مرض السل حتى فارقت روحه جسده، ولهذا كانت والدته تبدأ كل رسائلها اليه بهذه الجملة: «يا ولدي القوي.. الذي يحتمل في مشقة، وصمت». (1) (وداد الكواري 26 أوت 2016 جريدة الوطن القطرية)

الفنان عاطفة جياشة، وإحساسٌ نبيلٌ

الفنّان يصنع العمل الفنيّ ليطلق خصائصه الذهنية، والوجدانية من عقالها، ويجرّرها من الرتابة والنمطية من قيود العادات والتقاليد ليتّجه بها نحو الحرية، والخير، والفضيلة، والحقّ، والإطلاقة على الحياة بمنظار الجمال والحسن. إن الفنّان إنسانٌ محكومٌ بغيريته، وتصوّره المميّز للوجود، وخصوصية إلهامه، أي بمختلف الأخيلة، والعواطف التي تمور بها نفسه، فيفجرها عقله المتوقّد، وبصيرته الوضّاءة. إن الفنان وهو يبدع فنّه كيفما كان جنسُ هذا الفنّ فإنه يستلهم فنّه من روح مجتمعه، أو من روح المجتمع الإنساني. الذي في كل العصور ينشد الحرية، ويأبى الظلم والجبروت. ينشد الخير بدل الشرّ، النور بل الظلام، العدل بدل الظلم.

العمل الفني خلاصة صدقية الفنان

إنّ الفنّ ما كان، ولن يكون حقًا فنًا، ولن يبلغ أسمى المراقي، ولن يكون معبرًا عن الإنسان في حياته، ولن يكون أداة نضال، أو أداة تأثير إلاّ إذا كان نابعا بصدق من ذاتية الفنّان، ومن شعوره بفداحة القبح والشرّ وضررها على الإنسان أينما كان، وبضرورة مقاومتها بطرق المقاومة السلمية أولاً، وفي طبيعتها الفنون..

قال الكاتب المصري إبراهيم المصري في كتابه " خبز الأقوياء ..ص: 162 :

«...وإذن فالفنّ لن يكون حقًا، ولن يرتفع إلى روعة التأثير واكتماله، إلاّ إذا نشب الصراع بين الفنّان ونفسه، أي إلاّ إذا غالب الفنّان احتدام عواطفه، وأخيلته، واستطاع أن يروّض تلك العواطف، والأخيلة ويكبحها، ويحصرها، ثمّ يتخيّر الصالح القويّ المعبر منها، ثمّ يُبرزه وينسّقه، ويصقله، بحيث يخرج العمل الفنيّ كالزّهرة المتألّقة السليمة، في ظهرها نضرة الجمال المتكامل الأمثل، وفي باطنها فوضى الطبيعة.. أي احتدام القوى الطبيعية التي أبدعتها، والتي عرف الفنّان كيف يضبطها أسوة بالطبيعة التي تضبط نظامها، وقوانينها، وهي تختال أمام الناظر في أبداع حُلل جمالها، وأغربها.»⁽³⁾

(3) - إبراهيم المصري/خبز الأقوياء. ص: 162 سلسلة كتاب " إقرأ " العدد 380 دار

إن الصدق في الفن هو وفاء الفنان لرسالته بوصفها ذلك
النشاط الإبداعي الذي لا يبدأ إلا حيث تنتهي الحرفة.. والفن في
جوهره هو فعلٌ مقاومة، أو فلسفة فعلٍ بِمَعْنَى إنه نشاط يشارك فيه
المتلقي فيشعر بالغبطة، أو نشوة الانتصار على النفس، وعلى المحيط،
وعلى المفروض الخارجي. (4)

(4) - أ.سعود مهنا/صحيفة القدس العربي/لندن .. 2005/10/06

فنّ النقش على الجبس..

أيقونة جمالية العمارة.. وبصمة الهويّة

فنّ الزخرفة للعمارة بمثابة الروح للجسد، لذلك كانت العمارة الإسلامية منذ نشأتها غنية بالزخارف، وقد تنوّعت الزخرفة الإسلامية بين الزخارف الهندسية، والنباتية، والكتابية، وتم الاعتماد في إبراز الزخرفة على عمليتي التصوير، والنحت، والتشكيل، ما لم يتجاوز ذلك حدود المحضور الشرعي، فقد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن التشبيه، أو مضاهاة الله في مقداره على التصوير، ويقصد بالمصورين الذين يصورون الكائنات الحيّة بالمحاكاة الحقيقية للواقع، لأن ذلك قد يفسّر مشاركة الله في ألوهيته. لهذا اتجه الفنان المسلم نحو التجريد، فتفوّق فيه، واستطاع أن يجعل من خسيس الأشياء مصنوعات ذات قيمة، وصار فنّ الزخرفة من أهمّ الفنون الإسلامية، وأرقاها. وما الزخرفة إلّا صورة واقعة جرّدت من طبيعتها الأصلية، وحوّرت، وصمّمت بشكل وحدات لتشكيل لوحات فنية بديعة، ونظرا لاهتمام الفنّان المسلم بفنّ الزخرفة، فقد وظّفه في معظم الفنون الأخرى، حيث زُخرفت بها الجدران، والمنابر، والأثاث، والأواني وغيرها.

فنّ راق.. يُضفي الجمال على العمارة

فنّ النقش من الفنون القديمة، لكن بروزه أكثر كفنّ يهدف إلى التجميل، وإضفاء الجمال على العمارة، والصناعات الحرفية؛ تجلّى أكثر إلّا من خلال الحضارة الإسلامية كفنّ راقٍ من فنون الفن الإسلاميّ، وبالرغم من المستوى العالي الذي بلغته اليوم الصناعات، والتي كانت طوال عهود طويلة، وحتى وقتٍ قريبٍ مصدرها الحرف اليدوية، إلّا أن النقش لا يزال يحتلّ مكانة رائدة في كل بلدان العالم كحرفة جمالية وفنّية راقية تدعّم السياحة بنتائج تساهم في إبراز شخصية الأمة وهويتها، والحفاظ على هذه الهوية من ناحية، والمساهمة في الدخل الوطني من ناحية أخرى .

ولئن كان الفنان المبدع الذي يتعامل مع فنّ النقش في العديد من الموادّ كالذهب والفضّة، والنحاس، والرّجاج، وحتىّ البيض والبدور؛ إلّا أن النقش على الجبس يبقى في الصدارة لارتباطه بالعمارة، وخاصة العمارة الإسلامية، فقد لازمها ورافقها ولا يزال؛ وقد أصبح الطلب عليه أكثر أخيرا حتىّ من طرف الأفراد الأثرياء في إصباغ جماليات على قصورهم، ودورهم، وفيلاتهم.

تجلّى من خلال الحضارة الإسلامية

فنّ النقش من الفنون القديمة، لكن بروزه أكثر كفنّ يهدف إلى التجميل، وإضفاء الجمال على العمارة، والصناعات الحرفية؛ تجلّى أكثر إلّا من خلال الحضارة الإسلامية كفنّ راقٍ من فنون الفن الإسلاميّ، وبالرغم من المستوى العالي الذي بلغته اليوم الصناعات

والتي كانت طوال عهود طويلة، وحتى وقتٍ قريبٍ مصدرها الحرف اليدوية، إلا أن النقش لا يزال يحتلّ مكانة رائدة في كل بلدان العالم كحرفة جمالية وفنية راقية تدعم السياحة بنتائج تساهم في إبراز شخصية الأمة وهويتها، والحفاظ على هذه الهوية من ناحية، والمساهمة في الدخل الوطني من ناحية أخرى.

ولئن كان الفنان المبدع الذي يتعامل مع فن النقش في العديد من المواد كالذهب والفضة، والنحاس، والرّجاج، وحتى البيض والبذور؛ إلا أن النقش على الجبس يبقى في الصدارة لارتباطه بالعمارة، وخاصة العمارة الإسلامية، فقد لازمها ورافقها ولا يزال؛ وقد أصبح الطلب عليه أكثر أخيرا حتى من طرف الأفراد الأثرياء في إصباغ جماليات على قصورهم، ودورهم، وفيلاتهم.

فنُّ صعب التشكيل

إن النقش على الجبس ليس بالأمر السهل كما هو الحال في فنّ التّحت.. فإذا كان هذا الأخير يتطلّب القوّة العضلية، والصبر، والثقافة المعرفية الواسعة، فإن فنّ النقش يتطلّب إضافة إلى ما سبق الكثير من قوّة الملاحظة، والتأمل، والدقّة، والحكمة، والإلمام بقواعد الرياضيات والهندسة بصفة خاصّة، والإلمام أيضا بالزخرفة، وفتيات الحفر على الجبس.. ومعرفة خصائص هذه المادة من حيث الاستعمال، والتشكيل، وتأثير الحرارة والبرودة عليها؛ لأن كما هو معروف أن الحرارة المرتفعة تُعيق استعمالها، وتفقدها مرونتها التي

بواسطتها يسهل التشكيل، ويتيسر الحفر.. تتميز ديكورات فنّ النقش على الجبس بالجمالية، وراحة العين، حيث يُعتبر من الفنون القديمة، والاصيلة التي تناقلتها الأجيال كفن وصنعة، بروزه جاء بسبب اهتمامه بالزخارف، والابداع في التركيز، وإضفاء التفاصيل الفنية على العمارة؛ إنّ النقش على الجبس لا يستخدم تقنيات فنّ النحت فقط.. فإذا كان فنّ النحت يتطلب القوّة العضلية، والصبر، والثقافة المعرفية الواسعة، فإنّ فنّ النقش على الجبس يتطلب إضافة إلى ما سبق كثيرا من قوّة الملاحظة، والتأمل، والدقّة، والحكمة، والإلمام بالحسابات الرياضية والهندسة بصفة خاصّة، والإلمام أيضا بالزخرفة، وفنيات الحفر على الجبس.. ومعرفة خصائص هذه المادة من حيث الاستعمال، والتشكيل، وتأثير الحرارة والبرودة عليها؛ لأنه كما هو معروف أنّ الحرارة المرتفعة تُعيق استعمالها، وتُفقد مرونتها التي بواسطتها يسهل التشكيل، ويتيسر الحفر.. وبالتالي أنّ من يتعامل مع هذا الفنّ يُفترض أن يكون أخصائيا فيه، فهو الوحيد الذي يملك القدرة على تنسيق الأشكال الهندسية الدائرية، والأشكال ذات الزوايا المنفرجة والحادة، والأشكال التي تجمع هذه أو تلك أو غيرها. وبالتالي أنّ من يتعامل مع هذا الفنّ يُفترض أن يكون أخصائيا فيه، فهو الوحيد الذي يملك القدرة على تنسيق الأشكال الهندسية الدائرية، والأشكال ذات الزوايا المنفرجة والحادة، والأشكال التي تجمع هذه أو تلك أو غيرها.

عمر قاقه القمّاري.. الرائد الأول

ظهر فنّ النقش في ربوع منطقة وادي سُوف في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي انطلاقاً من مدينة قمار، وبالتحديد من طرف الزاوية التجانية حيث أقام الخليفة الشيخ سيد محمد العيد الاول التجاني تماسيني، باستدعاء البناء النقّاش أحمد بن الطاهر بن بلقاسم التجاني المغربي لإنجاز مسجد تماسين وذلك سنة 1868، وبعد سنتين حلّ هذا النقّاش أيضاً بأرض قمار لمزاولة نفس المهنة، ولبناء مسجد الزاوية التجانية بقمار حيث تأثر به بعض عمّال أهل البلدة، وقلّده، وتعلّموا منه فنّ النقش على الجبس؛ فبرع منهم السيد عمر قاعة الذي أصبح ماهراً، وقدوة؛ بل مدرسة حتى صارت نقوشه آية في الروعة، وعمل على تعليم طائفة من الشباب فنّ النقش على الجبس، فأصبح لهذا الفنّ رواد، وعشّاق وصار من الفنون الرائجة بالمنطقة.

لصعوبة ممارسة هذا الفنّ فقد قلّ محترفوه حتّى وقتٍ قريبٍ ببلادنا، غير أن فروعا له فُتحت في السنوات الأخيرة بمراكز التكوين المهني بولايات الجنوب الجزائري التي تُنتج بها مادّة الجبس، وتستعمل بكثرة في العمارة، سواء بالمساجد، أو البيوتات الخاصّة خاصة بولاية الوادي. جديرٌ بالتذكير هنا أن مدينة قمار بولاية الوادي كانت رائدة في فنّ النقش على الجبس منذ الأربعينات من القرن الماضي، حيث كان المرحوم عمر قاعة الرائد الأول، ونتيجة لذلك ذاعت شهرته ممّا استعانت به السلطات الاستعمارية في نقّش القبّة الكبيرة لقاعة البريد

المركزي بالجزائر العاصمة ، وقاعات قصر الشعب، ولا يزال هذا الأثر الفني إلى يومنا هذا صامدا، وشاهدا على عبقرية هذا الرجل، الذي أبحر أشهر المهندسين المعماريين الفرنسيين آنذاك لعبقريته، وبساطة الوسائل التي كان يستعملها، والتي لا تزيد عن توظيف أجزاء برونوسه الذي يلبسه ليحدّد مقاسات الأقواس، وأجزاء القبة، وتشكيلات النقش الهندسية .

عبقرية جلبت له الاحترام والتقدير والتكريمات التي نالها وفق التالي:

1 - ميدالية الشرف من طرف وزير التجارة والصناعة الفرنسي باسم الجمهورية الفرنسية بباريس يوم: 31 / 08 / 1919.

2 - يُعيّن عضوا في أكاديمية البناء والفنون الجميلة بباريس بتاريخ 12/02/1920 من طرف وزير البناء والفنون الجميلة باسم الجمهورية الفرنسية.

3 - يُمنح بتاريخ 29/12/1930 نيشان الافتخار المطرّز من الصنف الرابع من باي تونس أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية، بناء على اقتراح وزير خارجية المملكة حينذاك.

" قمار " تصدّرت الريّادة في هذا الفن

وللتدليل على مكانة هذا الفن في مدينة قمار نُورد هذا النصّ

من موقع " واد سوف " الإلكتروني:

(ظهر هذا الفن بمدينة قمار بوادي سوف على يد بناء من المغرب الأقصى استدعاه الشيخ محمد العيد شيخ الطريقة التيجانية بعد

استلامه المشيخة بزاوية تماسين عام (1260هـ/1844م)، وذلك لبناء المسجد المجاور للزاوية. وقد قام هذا البناء المغربي بتعليم نخبة من أهل قمار فن النقش على الجبس، وقد برع منهم عمر قاعة الذي أصبح آية إعجاب فيما بعد حتى ذاع صيته في كامل أرجاء البلاد، وقد ساهم في نقش البريد المركزي في الجزائر العاصمة، وقصر الشعب؛ كما قام بتعليم هذا الفن لبعض مساعديه، فبرز من تلامذته تيجاني قاعة الذي ساهم في نقش وزخرفة جلّ مساجد وادي سوف.

يمثل هذا الفن مجموعة من الزخارف المحفورة على الجبس، وتُستعمل فيها نماذج تختلف من حيث الوصف والمعنى، فنجد النقوش الهندسية، والتي أساسها الأشكال الهندسية المنتظمة المتداخلة والمتشابكة مع بعضها البعض. والنقوش النباتية والتي هي عناصر زخرفية مستمدة من الأوراق، والفروع، والأزهار.. وأخيرا النقوش الكتابية والتي تتألف من الخط الكوفي، أو النسخي، ويُستعمل النقش على الجبس لنقش مساحات السطوح، والجدران، والسقوف والقباب والأعمدة).

فإنَّ يستمدّ قواعده من الطبيعة ومن علم الرياضيات ولهذا الفن قواعد مستمدة من الطبيعة، والأعمال الزخرفية القديمة، ومنها التوازن، والتناظر، والتشعب من نقطة أو من خط، والتكرار، وكلها قواعد أساسية يقوم عليها التكوين الزخرفي.

القبة والدّمْسة: كانت الوحدة الأساسية في المسكن السوفي هي الحُجْرة الصغيرة التي تدعى "الدار"، وكان أهل سوف عندما يريدون بناء الدار، يتمددون أرضاً فيكون ذلك هو مقياسها عرضاً وبأطوال مختلفة، أما ارتفاعها فيكون حسب طول قامة الشخص الواقف فلا يتجاوز أربعة أذرع في الغالب، أما سقفها فأعد من جريد النخلة وأخشابها، ثم انتشرت القباب بشكل واسع خاصة في منتصف القرن التاسع عشر حتى سُميت وادي سوف بمدينة الألف قبة وقبة لاعتماد الناس في بناء بيوتهم على القبة التي أصبحت تشكل الطابع المعماري الخاص بوادي سوف. ولهذا النوع من القباب مزايا مقصودة فرضته طبيعة المنطق، وذلك لأن شكل القبة يساعد على تبعثر أشعة الشمس المسلطة عليها، وتخفيف حدتها وعلى منع تراكم ما تأتي به الرياح من تراب فوقها. كما أن تجويف القبة داخل البيت يوفر مزيداً من الهواء ويُلطف درجة الحرارة فيها.

ولتوسيع الحجرات الصغيرة المشيدة من قبة واحدة، استُحدثت أقواس لإضافة قباب جديدة لغرض زيادة مساحة الدار، كما نُقلت إلى سوف طريقة جديدة لبناء الأسقف وهي "الأدماس" المستطيلة وقد ساهم الضباط الفرنسيون الذين حكموا سوف منذ 1883 في تطوير الهندسة المعمارية باعتمادهم طرقاً تقنية متطورة، واستعمالهم الخيوط، والمسامير لتدوير القباب، والأقواس بدقة.)

وإنصافاً هؤلاء لا تزال العديد من البناءات التي أنجزها هؤلاء صامدة وتؤدي وظائفها حالياً منها الشقق، والبناءات الإدارية والمدرسية.. من هذه الأخيرة مساكن لا تزال كما هي وحجرات مدرسية بمدارس أنشئت في بداية القرن العشرين، وفي أواخر القرن العشرين منها مدارس: أميهي بالحاج بمدينة الوادي، ومدرسة كوينين المركزية، ومدرسة الذكور بقمار وغيرها. ومقرات إدارية كالمقر القديم لولاية الوادي، ومقر البلدية القديم وغيرها ...

منذ أكثر من عقدين، وحتى أيامنا هذه تخصص العديد من الشباب في النقش على الجبس الذي تلبس به جدران المرافق العامة، والمؤسسات الخدمية كقاعات المطارات، وقاعات الاجتماعات، والمؤتمرات في المؤسسات الحكومية، والفنادق، والزوايا، والمساجد المنجزة حديثاً، والبناءات العتيقة التي أعيد ترميمها، وكذلك أقواس مداخل المدن التاريخية العتيقة.. نقش عن طريق الحفر في مادة الجبس، تضمن إبداعات رائعة جادت بها العمارة الإسلامية عبر عصورها الذهبية، وإبداعات فنية وهندسية حديثة من ابتكار هؤلاء الشباب، ومن الاستعانة أيضاً بالأشكال المتولدة بالحاسوب.. مما شجع وزارة التكوين المهني على إنشاء تخصصات هذا النوع من الزخرفة خاصة في مناطق الجنوب.

شبابٌ مُميّزون انفردوا به، وأبدعوا فيه

من الإنصاف، والتأكيد، والتكرار، القول بأن منطقة وادي سُوف هي الرائدة الآن في هذا الفن، فما أنجز ويُنجز حاليا في أكثر من مكان بالجزائر هو من طرف شباب هذه الولاية؛ ليس تزكية من طرفنا، ولكنه الواقع عندما نقول: إن هذا الفنّ النَّقْشِيَّ الرَّاقِي حُوفِظ عليه أيام الاستعمار من خلال أعمال زخرفية، ونقشية بسيطة ما تعدّت مجال المنطقة المحليّة، ليتوسّع بعد الاستقلال، وليتطوّر حاليا ويكثر مُمارسوه.. حتّى أن بعض أبناء المنطقة ممّن يقيمون في دُول الخليج سمعنا بأنهم جلبوا البعض من هؤلاء الشباب إلى هناك لزخرفة منازلهم، علمًا أن الأشقاء المغاربة اشتهروا بهذا الفنّ حيث احتكروا الساحة عالميا.. وليس عجبًا قبل جائحة كورونا دخل الجزائر عشرات الشباب البنّائين المغاربة ممّن يتفنّنون في النقش على الجبس في أغلب ولايات الوطن، بما في ذلك ولاية وادي سُوف، ووجدوا العمل، والاحترام، والقبول، وهم مطلوبون للعمل في النقش على الجبس الذي صار يُقبل عليه أغلب الساكنة في زخرفة منازلهم الجديدة.

وتدليلا على إبداعات هؤلاء الشباب الرائعة، فإن من يزور ولاية الوادي سينبهر بما أنجزه هؤلاء الشباب من فنون راقية.. بدءًا بمطار الولاية، والزاوية التجانية، ومساجد الولاية الحديثة، ومسجد سيدي محمد الكبير بمدينة أدرار، وعشرات المنازل الخاصة.

فُنُّ راقٍ.. عاد إليه المُوسرون

في أيامنا هذه عاد الكثير من الناس المُوسرين، وحتى متوسّطي الحال الذين يُنجزون مساكنهم الخاصّة في البلاد الجزائرية إلى استعمال مادة الجبس كمادّة تلييس للجدران الداخلية للقصور والمنازل، لخصائصها التكميفية للمناخ أصلاً، كونها مادة شُبّه عازلة في الشتاء، حيث تُبقي على الدّفء الداخلي داخل المنزل، وتمنع تسرّب الحرارة في فصل الصيف.. ومادّة للديكور تُغطّي عيوب وأخطاء إنجاز البناء، وتُضفي عليه جماليات؛ إذ لا يكاد يخلو بيتٌ الآن قيّد الإنجاز من وجود ديكورات جبسية في مختلف الغرف، والممرّات، والزوايا وغيرها، لأن الجماليات التي تُكسبها لأرجاء المنزل لا تُقاوم من الكثيرين .

فنيات تصميمية تنوّعت

- أوها.. قوالب مصبوبة جاهزة بتصاميم ثابتة متنوعة تُباع مثل الكلاسيكي، والهندسي، والمشجر وهي أقلُّ تكلفة، وينتشر استخدامها في الوحدات السكنية الصغيرة كالشقق السكنية، والفيلاّات الصغيرة، أو المتوسّطة.. منها ما يكون في سقوف البيوت، ومنها ما يكون في الردهات والممرّات والمداخل.

- ثانيها.. الزخرفة (النقش) على الجبس وهذا أجملها على الإطلاق، ويكثر استخدامه في القصور، والزوايا، وردهات الفنادق، والفيلاّات السكنية الراقية، والمساجد، والفضاءات الإدارية كقاعات المطارات، ودُور الثقافة، وقاعات الإدارات المحلية، وغيرها.

الصورة تشكّل عالمنا المعاصر

لم تعد الصورة تساوي ألف كلمة فقط، كما شاع عن المثل الصيني المشهور، بل صارت الصورة في وقتنا الراهن تُقدّر بمليون كلمة ان لم تكن بملايين، فقد أصبحت مرتبطة بكل جوانب حياة الانسان على نحوٍ لم يسبق له مثيل، وتؤدّي الصورة من خلال وسائل الميديا دورا أساسيا في تشكيل وعي الانسان بالسلب، والإيجاب.

الصورة حاضرة في كل مُجريات حياتنا: في التربية والتعليم، في السوق، في الشارع، وعبر وسائل الاعلام، في قاعات العرض للأعمال السينمائية، والمسرحية، والتشكيلية، وفي بطاقات الهوية، وأجهزة الكمبيوتر، وعبر شبكة الانترنت، والفضائيات، والتليفونات المحمولة، وفي الملاعب الرياضية، وفي العروض الفنية، في عالم السياسة، والاقتصاد. أينما وليت وجهك ثمّ الصورة، تفاجئنا، أو نوجدها نحن. تحاصرنا الصور من كل اتجاه، كما الإعصار، كما الفيضان العارم.. آلاف الصور التي تهب علينا في كل يوم وتفيض وتغرق أذهاننا بكثافة وسرعة.. صور تعقبها صور، ومن ثمّ صور، حتى أننا لا نملك الوقت الكافي والإمكانية على استيعابها كلها وتمثلها.

سرعة تُربك الأفكار والتصوّرات

كان الكاتب الأمريكي الفين توفلر في كتابه "صدمة المستقبل" الصادر سنة 1970م، قد تحدث عن عدم قدرة الذهن البشري فيزيولوجياً على ملاحقة سرعة جريان الأحداث والأشياء، وكذا التطورات الحاصلة في مناحي الحياة كافة؛ تلك السرعة التي تُربك الأفكار والتصوّرات، وتُسبب نوعاً من الصدمة النفسية للإنسان المعاصر. وإذا كان توفلر قد تحدث عن هذا في سبعينيات القرن الماضي، قبل طغيان الوسائل الحديثة في مجالات الإعلام والاتصال من فضائيات، بآلاف قنواتها. وشبكة الإنترنت، بمواقعها التي لا تُعد ولا تحصى، ناهيك عن الهواتف النقالة التي راحت، هي الأخرى، تفيض علينا بالرسائل والصور المتدفقة على مدار اللحظات. نقول إذا كان هذا رأي توفلر قبل أكثر من ثلاثين سنة، فماذا تراه يقول الآن؟¹

ثقافة الصورة لا تحتاج إلى تعلم الأبجدية، مع الصورة انتقلنا، على حدّ تعبير المفكّر السعودي عبد الله الغدامي " من ذهنية المنطق ونحوية اللغة إلى ثقافة الصورة ونحو الصورة ". صارت الصورة كسلوك تطبيقي: التقاطاً، مشاهدة، معالجة، إرسالاً للآخر، تخزيناً في متناول الجميع كباراً، صغاراً، ذكوراً، إناثاً في كلّ الأوقات بكاميرا الهاتف

¹ - سعيد محمد رحيم. ثقافة الصورة.. ثقافة المشاهدة. الحوار المتمدن- العدد: 2295

المحمول الذي تطوّرت به كاميرا التقاط الصّور، ومعالجتها، وتحسينها في الهاتف نفسه؛ تقنية التصوير لم تعد محصورة في المتعلّم، المثقّف، احتزافي التصوير، ساكن الحضر؛ بل لدى المقيم في البوادي، وعلى قمم الجبال، وإنسان الفيافي، والصحراء. ما نشاهده الآن مع الثورة الرقمية أعطى الصورة معطيات، فأصبحت دلالاتها لا ترقن إلى مقاساتها التقنية وأبعادها الضوئية بل تنبع من المشاهد التي تعبر عن حدث ما، أو مؤثرات من تدبير المصوّر. ساعدت الصورة الرقمية على سرعة تغيير الأزياء والموضة وأنماط الحياة في بيئات محلية كانت مغلقة ومعزولة، وأحدثت تحولاً كبيراً في تجربتي الزمان والمكان بالنسبة للوعي الفردي والجمعي. فسرعة الاتصال المرئي والمسموع بين الأفراد وسرعة تداول المعلومات والصور أدت إلى إيجاد علاقات جديدة مع بعدي الزمان والمكان. وإذا كانت حقبة التلفزيون، والقنوات الفضائية، والاتصالات عبر الأقمار الاصطناعية قد عملت على انضغاط الزمان والمكان، كما يصف الباحث الأمريكي ديفيد هارفي في كتابه "حالة ما بعد الحداثة. 2015م"، فإن الصورة الرقمية والشبكة الالكترونية قد همّشتا الزمان والمكان بوصفهما سياقاً قسرياً يُوْطر عمليات التواصل، والتفاعل البشري ويحددها.

الصورة.. البريق؟

تحول المُتلقي العادي من مستهلك للصور، والرموز إلى مستهلك ومنتج في الوقت ذاته من خلال ما يُعرف بالمدونات وإنتاج

تسجيلات الفيديو، ووضعها على مواقع متخصصة مثل "اليوتيوب"، ومواقع التواصل الواسعة الانتشار مثل "الفييس بوك، تويتر، أنستقرام اينكدن، باز، وغيرها". وفي محاولة منها لاحتواء هذه التغييرات المتسارعة لجأت تلك الشركات، والشبكات الإخبارية العالمية إلى تخصيص جوائز مالية هامة بفئة صحافة المواطن، تُمنح للأشخاص الغير متخصصين الذين يعملون على إنشاء مدونات صحفية، أو رفع تسجيلات فيديو، أو تسجيلات صوتية تعمل على تغطية أحداث بارزة في مناطق النزاعات المسلحة الخطرة. وقد ساهمت بعض تلك المدونات والتسجيلات بالفعل في نقل حقيقة ما يجري على الأرض للعالم، في الوقت الذي غابت فيه التغطية الصحفية والاعلامية المحترفة.¹

الجازبية والدهشة

يُعرّف الفيلسوف الفرنسي إدوار هربو الثقافة بقوله:

«الثقافة هي ما يبقى للإنسان عندما ينسى كل شيء». الصورة تنعم بقدره التسلسل، والإقامة الطويلة في الذاكرة، فقد ينسى أحدنا كتاباً قرأه قبل عشرين عاماً، ولكنه بالتأكيد لن ينسى مشهداً بصرياً، أو صوراً لا سيما تلك التي تحفل بجرعة عالية من الجاذبية والدهشة. للصورة مميزات وخواص تجعلها على قدرٍ من الأهمية لا يمكن إغفاله. فالصورة قادرة على التوصيل الناجح بتأثير أكبر من تأثير الكلمة،

¹ - هبة فتوح. عصر الصورة/ مجلة فكر. 07 . 11 . 2017.

وهو ما يستخدم في الدعاية عمومًا، وفي الحروب النفسية، وفي الإعلام والاتصال الجماهيري.

كما أن الصورة في ذاتها تُدعم الحقيقة. للتذكير أن الحكمة القديمة تقول «من رأى ليس كمن سمع» إشارة إلى أهمية الصورة ودورها التأثيري الكبير للحد الذي جعلها بديلاً عن الخبرات الشخصية التي يمرّ بها الفرد، كما أننا أصبحنا نحوز الكثير من الأفكار عن غيرنا من خلال الصورة، فهناك الكثير من البلاد لم نرها لكن لدينا الكثير من المعلومات عنها، وعن حياة أهلها من خلال الصورة؛ كما أننا لم نقابل كل من نعرفهم؛ لكن الصورة ظلت شاخصة، وحاضرة في تكوين أفكارنا نحوهم، ولاشك أن التطور التكنولوجي الذي نعيشه في أقبية نقل الصورة وتداولها، ومنها وسائل التواصل الشخصي، والإعلام الجديد والتي ساهمت في أن يكون الشخص ذاته منتجًا للصورة وليس متلقيًا فقط لها، زاد من انتشارها، الأمر الذي جعلها بحق ثقافة تُبنى عليها الخبرات والمواقف. وقد نقلت الصورة الثقافة بمعناها الاصطلاحي من برجها العاجي، ونزلت بها بين الناس، فإذا كانت الكلمة هي وسيلة الثقافة لدى النخب؛ فإن الصورة هي حيلة باقي أفراد المجتمع بمختلف مستوياتهم التعليمية، وهم القطاع الأكبر المستهدف، فالنخب غالبًا هم صنّاع الرسالة وغيرهم جمهورها، كما أن الكلمة في شكلها المجرد تخاطب العقل في حين الصورة تتجه إلى العقل والعاطفة، حيث سبقت الصورة أحيانًا

الكلمة. ومن يتفحص النصوص المقروءة على مدار التاريخ يجد دون
مواربة أنها لكي تخترق عقل، ووجدان القارئ اتجهت إلى رسم صور
في ذهن المتلقي؛ كما أن الأفكار المجردة سعت إلى البحث عن صور
تتقرّب بها إلى المتلقي.

صناعة الصورة.. تشكيل للوجدان والسلوك

إن من يملك أدوات صناعة الصورة يلون العالم كما يشاء،
ويقدم نفسه كما يشاء، وكما يود أن يراه الآخرون، ليس في عالم
السياسة فحسب؛ ولكن في الفن والأزياء، وتشكيل الوجدان
والسلوك، لأن قوة الصورة بلونها، وحركتها، ومضمونها الذي يعبر
عما يصل للمتابع مُختصرة الزمان، والمكان، وعناء التحليل
والاستيعاب، وهو ما يجعلنا بحاجة إلى التفكير بجد في إعادة صياغة
ما لدينا من فكر، وثقافة وإبداع، وتاريخ عبر الصورة باعتبارها الذاكرة
المرئية للشعوب، فضلاً على أن ثقافة الصورة باتت ثقافة العصر.

الصورة ماهية الذات

آلية معرفتنا لذواتنا، وإدراكنا لما يُحيط بنا ذاتُ طبيعة
تصويرية، لأن كل صورة هي "مجموع ما يظهر أمامنا"، لنسبغ عليها
رؤانا وأفكارنا، وندخل في تشابك مع مؤثراتها. الصور مُمارسة ثقافية
تعبر بها الذات التي تنتجها، والتي تتلقاها عن انتمائها الاجتماعي،
واستعمالاتها القيمية داخل الجماعة، وحيثياتها السيكولوجية، ودوافعها
اللاشعورية، واستعمالاتها الثقافية. فهي تعبر عن رؤى نفسية،

ومنظورات اجتماعية وظلال ثقافية.. ولذلك، كانت عنصراً فاعلاً في كل الطفرات التي عرفتها الإنسانية، من الخطوط على الجدران، إلى الكتابة على الورق، إلى المطبعة، ثم الوسائل الرقمية.. وسواء كنا أمام رسوم على الصخر، أو زجاجيات في كنيسة، أو منمنمات إسلامية، أو لوحات تشكيلية، أو "سيلفي" لمراهق، يبقى للصورة عمقها، ومعناها، وتأثيرها؛ وإلى جانب أبعادها الفيزيائية، ووظيفتها الجمالية، فإن الصورة مهما كانت عفوية وطائشة، فهي تعكس منظوراً خاصاً للذات، والوجود، والأشياء..¹

إنها لا تُعبّر فقط عن مقاصد الشخص الذي التقطها، بل تعبّر عن نسق قيمي، ورؤية للعالم من طرف جماعة كاملة؛ كما تظل مُحاطة برغبة عارمة في الرؤية والاكتشاف، وأحياناً بفتنة مثيرة غير يسيرة؛ تُنتج الدلالات، وتفضح الممارسات، وتؤسس الأنساق الجمالية والقيمية، لتعيد تشكيلها وفق أنماط معدّلة، وحسب رؤى مستجدة منقحة، تعكس فكراً غير تقليدي، ونسقا غير نمطي، ونزوعاً متواصلاً إلى الإبداع، والإفصاح والتجديد. تستمد الصور أهميتها من هذا الاحتفاء الكبير بها، والتعظيم الذي يرافقها، ومن المواجهة القصوى لآثارها، واعتبارها خطراً عمومياً وتهديداً أخلاقياً، ومؤثراً سحرياً وفتنة دينية.. إن قوة الصور الحقيقية تنجلي في سلطتها "التجميعية"،

¹ - عبد الفتاح شهيد. جبروت الصورة: على وسائل التواصل الاجتماعي. معهد الجزيرة. 05 / 2020 / 01.

وقدرتها "التنويرية"، وتأثيرها العاطفي، وامتدادها الاجتماعي. لكن هشاشتها تتمثل في "تضحّمها" الأيقوني، وميوعتها الدلالية، ومرونتها التعبيرية.

فضاءات عوّضت الفضاءات القديمة

صارت وسائل التواصل الاجتماعي في العصر الرقمي مجالات مشتركة للعرض والاستعراض، عوّضت الأدوار التقليدية التي كانت تنهض بها الساحات العمومية، الملتقيات، المنتديات، سوق عكاظ الأدبي، سوق ذي الجواز الأدبي، والتجمعات الطقوسية في الأحران والأفراح.. يسعى عبرها الإنسان المعاصر "إلى التمتع باللحظة، ويبحث عن الرفاهية بشكل فوري، وعن تحقيق الذات، ويعطي الأولوية لذاته مع البحث في الوقت نفسه عن اعتراف الآخر عن طريق الصور الجميلة التي يبثها لنفسه". ولذلك، فهي مرحلة مهمة تمر منها الإنسانية، تحتاج إلى مزيد من النظر والتحليل والتنوير. ذلك أن هذه التكنولوجيات الحديثة اليوم أكبر من مجرد وسائط، فهي تدخل في تفاصيل حياتنا، وتعيد تشكيل منظورنا للعديد من القضايا، وتتغذى على مخاوفنا من العزلة والوحدة والانحدار، وتقنات على آمالنا في مستقبل أفضل بشروط أحسن، لأننا نعيش امتدادا في حياتنا البيولوجية مع تطور الخدمات الصحية والأبحاث الطبية، لكننا نحيا انحسارا في جودة الحياة الاجتماعية والنفسية، في عالم يتلعب فيه الرقمي الواقعي ويعيد تدويره وتدوير آمال الإنسان وأحلامه معه في حياة

هنيئة مطمئنة، وتشكل فيه الصورة موقع الصدارة، ويحتل فيه الإنسان المحور والمركز والمدار؛ وهي كلها عوامل تجعل وسائل التواصل الاجتماعي بيئة جديدة ستعيش فيها الصور حياة مغايرة ومختلفة، قد تكون مؤلمة أكثر ومقلقة أكثر، لكنها تمارس تأثيرها وسلطتها وسطوتها كما اعتادت منذ الأزل؛ تحيي أحيانا وتقتل أحيانا أخرى، تُفَعِّل الحقيقة أحيانا وتفقد عينها أحيانا أخرى، لكنها بدون شك هي حياة جديدة جديدة بالبحث والرصد والمتابعة.

الصورة تعرية للذات..

الإنسان المعاصر يسعى من خلال الصور إلى تأكيد الذات، بالإضافة إلى التمتع باللحظة، فتصير هذه الصور المتدفقة، والتعرية المتواصلة ذات أغراض بنائية لهوية تسير نحو الافتقاد في مجتمع مُعولم؛ لكن هذا البناء الأيقوني الهش، حين لا يُتحكم فيه بالدقة الكافية، ولا يُدرس بالشكل اللازم، لن يزيد الذات إلا ضعفا، ولن يزيد الهوية إلا تبذرا. وحين نطن أننا نقتنص اللحظات الجميلة، فإننا في الواقع نقتنص ذواتنا من تلك اللحظات، ونجعل "لحظتنا الشخصية القريبة" حفلات مشاهدة جماعية، إمعانا في الفضح والتعرية، ومبالغة في المشاركة.

الصورة عيِّنا على العالم

من خلال الصور ننظر إلى العالم، نتشارك أحداثه، ومآسيه عبر شاشاتنا، "نفقا عيونه ومعاه عيوننا" بعبارة الفيلسوف الفرنسي

والصحفي ريجيس دوبري، حين تنبعث آلامنا صورا، وتنبجس آمالنا مضمخة بدماء الحقيقة المهذورة. ولذلك، فلا محيد لنا عن الصور مهما كانت عابرة، كاذبة، قاتلة، مرعبة. إن حياة الصورة في العالم الرقمي اكتسبت أبعادا مستجدة وصيغا غير مسبوقه. في وسائل التواصل الاجتماعي، وجدت الصور فرصة أخرى لتكريس سلطتها، ووجدت في جاذبية الشاشات مجالا أخصب لتجذير عولمتها وسطوتها، لتنتقل عبر الحدود بلا قيود، وتمتد في العوالم المختلفة بكل انسيابية، وتكتسب ألوانها، وظلالها من خلال تنوع مشاهديها وتعدددهم.

دفعت وسائل التواصل الاجتماعي اليوم الناس إلى مزيد من الإفصاح، ومزيد من التعبير عن الذات، بل إلى مزيد من التعرية والكشف. ورغم كل المخاطر والأضرار والمآسي التي تحدثها، ورغم كمّ الحرائق التي تُشعلها، فإنها تستمر بقوة وحيوية. ولا تزال الصور المعدّلة والمنقحة تمارس دورها في إضفاء الحيوية على الذات، وانتزاع الاعتراف من الآخر. كما لا تزال الصور وسيلة مثلى للإثبات والنفي، للإيلام والإسعاد، للتحرير والتقييد، للانتشار أو الانحسار.

.. من خطاب اللغة إلى خطاب الصورة

في عصرنا الراهن جاءت الحضارة الرقمية وثقافتها، فتحولّ العالم بجميع تفاصيله إلى توليفة رمزية من الصفر والواحد، وتجلّى خطابٌ جديد يوظف الصورة في مدّ جسور التواصل بين المستخدم

والعالم الرقمي؛ وبنفس الطريقة في رأيي العديد من الفاعلين، والمتابعين - بدأ الخطاب اللغوي يتضاءل تدريجيًا، بعد أن برز الخطاب الصوري الذي ليس في حاجة إلى آليات اللغة، وقواعد النحو، وضوابط البلاغة والبيان؛ لتداول المفردة المعرفية، وضمان وصولها إلى آخر بدون تشويه في المحتوى أو الدلالة. تحوّلنا من النص إلى الصورة، بعد أن أسهم النصُّ التشعبي **Hypertext** في تفكيك البنية التركيبية للنص التقليدي، وأقحم في نسيجه المؤثرات الصورية، التي ساهمت إلى حد كبير في غياب سلطة الخطاب المنطوق، على حساب سيادة المُتغيّر المرئي، الذي تحفُّ به الفتن من كل جانب، فُتسحر المستخدم، الذي بدأ يشيح بوجهه تدريجيًا عن النص المنطوق، ويُفضّل الغوص في مفردات الصورة، التي لا تتطلب جهدًا، ولا معاناة معرفية للتحديق في مادتها. تحولنا من شمولية اللغة، والقدرة الكبيرة لخطابها على استيعاب المتغير الثقافي، ووصف مفرداته بالتفصيل، إلى الإدراك المرئي عبر سلسلة من عمليات اختزال المتغير الثقافي، وقولبته وفق منظور الوصف المتوجه نحوه، وتغييب تفاصيل المفردات المعرفية في زخرف المظهر اللوني الساحر، فبدأت مفردات اللغة تنسلُّ من بين أيدينا، وبدأت البلاغة بالغياب عن خطابنا، بعد أن أصبحت دقّة المشهد الصوري معيارًا لتحديد فحوى الخطاب المعرفي المُصاحب للخطاب الصوري.¹

¹ - حسن مظفر الرزّو. الصورة وانعكاساتها على ثقافة الإنسان المعاصر موقع الالوكمة

يرى المدافعون عن الخطاب اللغوي، أنه قد ينجُرُّ عن الحالة الجديدة غيابُ أهمية اللغة، بوصفها رابطاً متيناً يلمُّ شتات المثقفين، ويجمع تصوّراتهم للكون الذي يتعاملون معه، ويسهمون في تحليل مكوناته وسبُر دلالته، وقد توخّد الجميع برباط الخطاب الصوري الذي لا يفتقر إلى أبجدية تختص ببلد دون آخر، فأبجديته للجميع؛ الأمر الذي سيسهم في تقليص دور الهوية الوطنية، ويبذر بذوراً جديدة، ستنبُت مفاهيم غريبة عن تراثنا وأصالتنا التي نستمد منها هويتنا المعرفية، وعمق خطابنا المعرفي التي يدافع عنها مثقفو الكلمة، ومبدعو الفنون الأصيلة.

الكلمة المكتوبة متجذّرة..

في رأيي الشخصي كما في رأي الملايين من حملة القلم، وعشاق الكلمة المكتوبة لا تعني ثقافة الصورة القضاء على الكلمة المكتوبة، أو الحدّ من تأثيرها، بل داعمٌ هامٌّ لحقيقة الكلمة، وقد تكون اختصاراً لها في زمن تتسارع فيه الأحداث، وتتعدّد مصادر المعرفة للدرجة التي يعجز فيها الفرد عن متابعة ما يكتب أو ينشر، هنا تكون الصورة الحاضر القويّ. وكلما كان المضمون المقدم في أي وسيلة إعلامية أقرب إلى الواقع كلما كان أكثر مصداقية لدى المتلقّي المتابع، وهنا تأتي الصورة التي تعكس الواقع، وتعبر عنه، وتتجاوزه أحيانا لتطبع في ذهن المتابع الحدث، مُختصرة كثيراً من الوقت والجهد. وإذا كانت

ثقافة الكلمة، وما تحتاجه من جهد وإعمال للعقل يحفظ لها ديمومتها وبقاءها لفترات طويلة؛ إلا أنه من الثابت أن استخدام أكثر من حاسة في الاطلاع على مضمون ما يضمن له الاستمرار، آية ذلك أن الآثار الخالدة لمختلف الحضارات الإنسانية كانت في بدايتها صوراً تعبر عن أنماط حياتهم، كما أن الصور ودلالاتها كانت الطريق إلى التعرف على كنوز تلك الحضارات.¹

الصورة حاصرت المثقف

كما يرى الكثيرون أنّ الصورة نزعت من المثقف التقليدي تاجه، وأنزلته من برجه العاجي، وجردته من نرجسيتها، حيث بات مطوّقاً بضراوة الصورة، التي نزعت منه سلطة كان يتمتع بها فيما مضى، على وقع تفهقر متواصل لدور الكلمة المكتوبة، التي يُعوّل عليها المثقف في صُنْع رؤيته للعالم وتغييره، إذ خرجت السيطرة من مجالها الثقافي التقليدي، وانتقلت إلى مراكز جديدة، تضطلع بدور صُنْع الرؤى والتأثير فيها، مُمثلة في أبطال الصورة الذين يتربّعون على عرش الثقافة الجماهيرية من نجوم الغناء، وأبطال الأفلام، وكرة القدم، ومصممي الأزياء.. فهؤلاء يحققون انتشاراً كونياً، ويضخّون قيماً استهلاكية تغمر الكيانات الثقافية بكل تنوعها الاتصالية، ووعودها المثالية، وتسلب منها قدرة المجابهة مع مارد الصورة العابر للقارات، فقد سبقت الصورة إلى تحقيق فكرة القرية العالمية، وصولاً إلى تفكيك

1 - خالد الحاجة. ثقافة الصورة.. ثقافة العصر/ البيان الاماراتية. 26 ماي 2015م

المنظومات الثقافية، والقيمة السائدة، فغلبة الصوت، والصورة القائمين على التقنية بمثابة ضغط شديد على الأداة الرئيسية لتجربة الثقافة الرفيعة المستمرة، أي الكلمة المطبوعة، بحسب المؤرخ والمفكر البريطاني ايريك هوبزباوم. لكن بالمقابل الكثير ممن يرون وأنا أحدهم أنّ ثقافة الصورة لا تُلغي ثقافة الكلمة؛ وإنما تتعايش معها، تسند إحداها الأخرى وتعزز دورها، وإذا كانت ثقافة الكلمة المكتوبة خاصة بالنخب المتعلمة؛ فإن متلقي ثقافة الصورة هم كل البشر الذين يحظون بنعمة البصر.

في تقديري إن المقابلة بين ثقافة الكلمة، وثقافة الصورة وتأطيرهما باعتبار أنهما طرفا نقيض هو نوع من التعسف في التعامل مع المعينات الثقافية، سواء كانت صورة، أو كلمة، أو رمزا، أو لونا، أو موسيقى، أو حتى لغة الجسد لأن جميعها أثرت الثقافة الإنسانية، كما أن جميعها حفظت لنا تاريخا يُمكن الرجوع إليه، غير أنه لاعتبارات تتعلق بطبيعة كل مرحلة تاريخية تقدمت إحداها على الأخرى، والشاهد أن وسائل الإعلام المطبوعة استفادت من الصورة الفوتوغرافية وأفردت لها مساحات تفوق في كثير من الأحيان المادة التحريرية، كما أنها استفادت كذلك من الصورة المرئية المتحركة التي باتت جزءا أصيلا من مواقعها الإلكترونية تدعم مادتها التحريرية وتؤكد مصداقيتها.

الصُّورة حاملة المشاعر

استُخدمت الصورة بحميمية أُسرياً، واجتماعياً منذ عقود؛ بل لقرونٍ لحفظ ذكريات الأفراد، والأسر. والعديد من ألبومات الصور خير مثال على ذاكرة حيّة، مُحملة بذكريات عائلية تحمل بداخلها العديد من الأجزاء المكونة للسرديات الشخصية والجماعية، كمناسبة زواج، أو ولادة طفل، وسفر، أو حضور فعالية مفرحة، عائدة لفترات زمنية قريبة أو بعيدة، أو احتفاء بعودة حاجٍ، ومعتمرٍ؛ بينما يغيب عن هذه الألبومات، غالباً، ذاكرة الحزن الشخصية المزامنة للأحداث الحزنة، وكأن الصورة في الماضي كانت قرينة الفرح والبهجة.

الصُّور الاستعراضية

من مشاهداتي الحياتية، ومعايشتي لأطياف أفراد المجتمع الجزائري، ومن رحلاتي داخل الوطن، وخارجه مع جزائريين وجزائريات استخلصتُ أنّ أغلب الصُّور الملتقطة في أماكن، ومعالم ذات أهميّة تاريخية، أو سياحية، أو بيئية جمالية القصد منها الاستعراض الذاتي أمام الآخر؛ فأكثر ممّن يصورون أنفسهم، أو مع غيرهم في أماكن طبيعية، أو أثرية همّهم الصورة نفسها، ولا يعطون هذا الأثر التاريخي اهتماماً ورغبة صادقة في معرفته، لدرجة إن البعض يأخذ صورة أمام تمثال يرمز لقضية نضال، وكفاح إنساني لا يتوق إلى معرفتها، أو في قلعة تاريخية، أو في ثكنة عسكرية كانت نقطة انطلاقٍ لاحتلال مناطق أخرى، أو كانت مراكز تعذيب، وقتل للجزائريين قبل الثورة التحريرية، وأثناءها؛

بحيث يتّضح إن علاقتنا مع التاريخ علاقة تعارف سطحية قابلة للنسيان. كما يكون استخدام الصّور الملتقطة ما بغرض العرض للآخر المجتمعي بما يملكه مستعرض الصور من مقتنيات مادية، أو ملكات ثقافية فكرية يرغب من ورائها مستعرض الصّور أن يُنصّب نفسه نموذجاً، ومثالا اجتماعياً، أو ثقافياً يعرض ما لديه للآخر.

صورة "السيلفي".. عِشْقٌ لِلذَّاتِ

كما وقد انتشرت في السنوات الأخيرة ما سُمّيت بصورة "السيلفي" التي يُصوّرُها الشخص بنفسه لذاته، ويُعيد اللقطة التصويرية في لحظات عدّة مرّات، أو مع شخص، أو أشخاصٍ آخرين، ويكون هو في مقدّمة الصورة، يشعر بالانتشاء وهو يرى نفسه وكأنه أمام مرآة يتأنق من أجل الخروج، وعرض نفسه أمام الآخر. كشفت عدة دراسات ان الاشخاص الذين يلتقطون صور السيلفي كثيراً ما يصابون بداء العظمة، أو مرض النرجسية الذي يدفع صاحبه للتعالي، والغرور بالتركيز على نفسه فقط ممّا يؤدي به إلى تجاهل اخبار الآخرين، ومعرفة احوالهم. وأوضحت دراسة، أن الأشخاص الذين يرتبطون بتصوير السيلفي، وقضاء وقت طويل في تعديل الصور، ونشرها على مواقع التواصل الاجتماعي يركزون اهتمامهم على ذاتهم بشكل أكبر، ويعتقدون أنهم أكثر ذكاءً وجاذبية وأفضل من الآخرين. بالإضافة إلى وجود مشاكل في عدم الشعور بالأمان، وبعض السلوك المتهور وعدم التعاطف، ومراعاة الآخرين، بالإضافة إلى بعض سمات معاداة المجتمع.

وإن نشرهم لصورهم الذاتية على مواقع التواصل الاجتماعي غايته تأكيد "تضخيم الذات" أمام الآخرين.

الصورة وثيقة تاريخية

الصورة سجّلٍ حيّ يفضح بشاعة سلوك الإنسان حيال أخيه الإنسان عبر التاريخ البشري، وفي كلّ الأزمنة: الغزو، الاستعمار، العبودية، الرّق، الحروب، بشاعة الاستعمار الأوروبي الأمريكي للشعوب الأخرى، قبل الصورة الفوتوغرافية أدّت الصورة التشكيلية دورها المميّز، وغطّت العديد من الغزوات والحروب؛ إن أخذنا الشعب الجزائريّ نموذجاً، فالصور التشكيلية لثورات الجزائر الشعبية، وللغزو الفرنسي للجزائر، والاعتداء، والاستيلاء، والقتل، وقطع رؤوس الجزائريين دونتها اللوحة التشكيلية، ثم إن الصورة الفوتوغرافية منذ الحرب العالمية الأولى حتى نهاية حرب التحرير، واستقلال الجزائر كانت الثورة الوثيقة الحقيقية الأولى، أرشيف الجزائر ثريّ بصور بطولة الشعب الجزائري، كما هو ثريّ جداً بالمآسي والنكبات التي تعرّض لها من أبعث استعمار في التاريخ، صور ضحايا 08 ماي 1945م، صور حرق المداشر، الدواوير، القرى، الجبال بالنابام، إعدام المواطنين، المناضلين، المجاهدين، صور مظاهرات 11 ديسمبر 1960م، صور الفرحة بالحصول على الاستقلال. الصورة صادمة، فجائية، مؤلمة لأحداث وطنية كالإرهاب وضحاياه ببلادنا، الزلازل، الفيضانات، الأوبئة، حوادث المرور...

الصورة وثيقة تاريخية يُعتمد عليها في تدوين التاريخ.. هي
أوسع من الذاكرة، مُحتواها واقعيّ، موضوعي.

الصورة أيقونة عصرنا..

نُخلصَ أنّ للصورة دوراً كبيراً في حياتنا، وذات فوائد كثيرة في
تنشيط عمليات الانتباه، والادراك، والتذكر، والتصور، والتخيّل. كما
أصبحت الصُورُ مرتبطة بكل جوانب حياتنا الإنسانية، ولعبت الميديا
خاصّة التلفزيون، والسينما، والإنترنت، وفنون الاعلان، والاعلام
بشكل عام، ومواقع التواصل الاجتماعي المختلفة دوراً اساسياً في
تشكيل وعي الانسان المعاصر إيجاباً، وسلّباً، تجلّى ذلك على
سبيل المثال في سنة 2020م، أثناء الحجر الصحيّ بسبب وباء
فيروس كورونا، كيف تحوّل التواصل لدى أهل السياسة، الاقتصاد،
المال، الصحة، التربية، وغيرها دولياً، ووطنياً عندنا بواسطة التواصل
المرئي عن بُعد بواسطة الصورة الفيديوية، كانعقاد مجلس الوزراء،
مجلس الحكومة، الوزراء مع المديرين الولائيين كلٌّ في مجاله. دولياً
كالمشاركة في قمم الرؤساء، مؤتمرات المنظمات الدولية، الإقليمية، ...

فنّ القرافيتي.. تفرغُ المكبوتِ

إنّ قادتك ذات يومِ الحاجة البشرية إلى مرحاضٍ عموميٍّ، - وإنّ كان عددها قليلاً - في مدننا الكبرى، سيّما في العاصمة الجزائرية، ستُفاجأ بالكتابات على الأبواب، والجدران التي تجعلك تُصدم بمضامينها الانحرافية من أفرادٍ ينتمون إلى مجتمعٍ مسلمٍ، أو من أفرادٍ في أسوأ الحالات ينتمون إلى بني البشر الذين كرّمهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء / 70).

هذه الظاهرة ليست موجودة فحسب في المراحيض العمومية المأجورة؛ إنّما في مراحيض المقاهي، والمطاعم، والفضاءات التجارية، والاقتصادية الكبرى، وحتى مراحيض المعاهد الجامعية، ومؤسسات التكوين، فالكتابات على المناضد، والطاولات، والكراسي المدرسية؛ بل حتى على أوراق العملة قد نثر على الكتابات، الأرقام، التواريخ. الأمرُ قد نراه عاديًا عندما تكون الكتابات، والرسوم سياسية، معارضة للسلط، ولنظام الحُكم، احتجاجًا على إدارة المعهد، أو المؤسسة في تعاملها مع الطلبة، وتقصيرها في ظروف الإقامة، الإطعام، النقل، المنحة. لكن إذا تجاوزت هذه المطالبات إلى تعرية الذات،

والإعلان عن الشذوذ الجنسي صراحة، أو بتدوين رقم الهاتف للاتصال، والتواصل، أو الرسوم الجنسية الانحرافية، يصبح الأمر خطيراً، ونشرًا للانحراف.

فن الجرافيتي

يُطلق عليه في بلدان غربية "فن الجرافيتي" حيث تجده أمام عينيك في الشارع على الجدران، وداخل الأنفاق والأسوار الخالية ووسائل المواصلات.. وفي كل مكان تقع عليه العين، تشاهد هذا الفن الذي يراه البعض مجرد شخبطة، وتشويه وتلويث بصري.

الجرافيتي هو فنُّ الكتابة، أو الرسم على الجدران الخالية بعبارات ورسومات تُلفت الأنظار، وتخطب عقول الجماهير، والحكومات، وتحرك مشاعرهم نحو قضايا الوطن.¹

ظاهرة الكتابة على جدران المراحيض من الظواهر التي انتشرت في المجتمعات، بما فيها المجتمع الجزائري؛ بل أصبحت تُمثل منحدرًا سلوكياً سيئاً، وهذا لم يأت من فراغ، حيث هناك عوامل متعددة وراء ذلك، فقد يكون العامل النفسي، والانفعالي للفرد سبباً، متخذاً في ذلك حججاً، وأفكاراً وهمية على أن تلك الكتابات، والرسوم ما هي إلا محاكاة مع النفس، وتعبير عن الذات، والآراء، والخواطر الدفينة، والرغبات المكبوتة، بتلك الكتابات يُنقّس عن نفسه، ويُفرغ شحنته

¹ - وليد محمد الشوري. الجرافيتي إشكالية الرفض والقبول. المجلة العربية السعودية.

المكبوتة التي تُثَقِّلُه، وتُسبِّب له التوتر، والاكْتِتاب إن لم يكتبها، لهذا نجد الأماكن الأكثر استهدافا بالكتابة المشبوهة هي المراحيض، باعتبارها أماكن معزولة، وخفية عن الآخرين على الأقل وقت الكتابة لتصبح أماكن عامة بعد ذلك، وهذه هي غاية الذي يكتب بالمراحيض حيث الكتابة يراها الجميع، والكاتب مجهول.

الكتابة على الجدران ..؟

يرى البعض من علماء الاجتماع، ومن المتابعين لهذا الظاهرة أن الكتابة على الجدران من طرف الشباب، قد تكون ظاهرة صحية اجتماعية مقبولة، لما تكون مجموعة من الرسومات التي يعبر من خلالها الشباب عما يخالجهم من أحاسيس، وخواطر ترجموها من خلال جداريات اصطفت ألوانا مختلفة على حيطان الأزقة، والأحياء، والساحات، تطوّعوا مادياً، وجلباً للأدوات، والرسم لأيام دون مقابل؛ كما هو في الجزائر العاصمة خلال بعض المناسبات في الأحياء الشعبية؛ وقد تكون الكتابة من قبيل: "ممنوع البول على الحائط وشكرا"، "كل من تبول على الحائط غرامة"، "ممنوع رمي القمامة"، "لا تُسرّع بسيارتك". وبحسب مختصين نفسيين، واجتماعيين فإن ظاهرة الكتابة على الجدران تعتبر من ضمن أسباب نفسية انفعالية، ويهدف لفت نظر الآخرين، وربما تشويه سمعة الغير، أو تخليد ذكرى للمكان، أو تعصّب لنادٍ معين، أو الحلم بالهجرة، إلى أوروبا، أو أمريكا؛ الأمر الذي يؤدي إلى الإضرار بالممتلكات العامة، والخاصة.

ما يمكن اعتباره رسالة، ووسيلة إعلامية سهلة، ومجانية للتعبير عن الرأي، ولكن بطريقة غير مرغوب فيها، أو بدون موافقة صاحب المكان، وهو ما يمثل اعتداء على حقوق الغير، وعملاً ضدّ القانون في معظم دول العالم، ففي ألمانيا تخسر الحكومة الألمانية 200 مليون يورو سنوياً من أجل إزالة وتنظيف الجدران التي يمارس عليها عشاق هذا الفن هوايتهم، بينما يؤكد الفنان التشكيلي بنيامين سويالا:

« إننا لا نجد أماكن كافية في مدينة بون لممارسة هذا الفن في الوقت الذي يجد الفنانون في مدينة لايبزيغ مساحات كبيرة.»¹

أما الفنان الإنجليزي روبرت بانكس فهو حالة خاصة، حيث كان يُخفي اسمه دائماً، ولكن جريدة الجارديان الإنجليزية توصلت إلى اسمه، ولا يعرف أحد حتى اليوم شكله بشكل مؤكد، حيث امتاز بانكس بالأعمال الجريئة التي غالباً ما تكون سياسية ضد الحروب، والرأسمالية، والنفاق، والجشع، ويرى البعض أن بانكس الأكثر شهرة، وعبقرية، وموهبة، وقدرة على تحريك الناس، ولفت أنظارهم، وتفجير قضايا من خلال خطوط وريشة وفكرة، بينما يراه البعض إنساناً مخرباً وسيئ السمعة، ويعمل بطريقة غير شرعية، وضد القانون، رغم أن رسوماته على جدران لندن، وبرايون، وبريستول (مسقط رأسه)، وعلى جدران الفصل العنصري في الضفة الغربية، وغزة في فلسطين؛ حصلت على شهرة كبيرة، وقد بيعت أعماله بمئات ألوف الدولارات، كما أن

¹ - مرجع سابق. الجرافيتي إشكالية الرفض والقبول

بانكس يحظى بإعجاب مجموعة من الفنانين أمثال براد بيت وأنجيلينا جولي، حيث يحرصون على اقتناء أعماله التي تتسم بالغرابة والغموض والجرأة. في الليل، وفي أماكن لا يتوقعها جمهوره يرسم فنان الجرافيتي بانكسي لوحاته على جدران الشوارع، متخذاً من أحد معالمها مرتكزاً لرسومه التي تلفت نظر الجمهور؛ لما تحمله من رسائل مختلفة حول الفن والفلسفة والسياسة، وما تثيره من قضايا، إذ تخوض موضوعاتها في الحرب، والرأسمالية والنظام العالمي، وممارسات رجال الشرطة، وغيرها.

نجح في تغيير وجهة النظر عن رسوم الشارع من مجرد كونها أعمالاً تخريبية إلى تثمينها كقطع فنية مبهرة، وأصبح بانكسي ملهماً للكثير من فناني الشوارع حول العالم الذين تحمل أعمالهم رسائل سياسية، وثورية، نسمع عن بانكسي مصر، وبانكسي بيروت، وبانكسي إيران، وإطلاق اسمه عليهم شيء يسعد أغلب الفنانين.

وفنان الجرافيتي يظل مجهولاً، وشبهاً مطاردًا، ويرفض التوقيع باسمه غالباً، ويستعمل اسماً مستعاراً على العمل الذي قد ينال الإعجاب، أو السخط والغضب، وبخاصة من جانبي الحكومات والأنظمة.

فنُّ الرأْي المعارض الحرُّ

كلمة "جرافيتي" هي صيغة الجمع من كلمة "جرافيتو" الإيطالية وهي تعني "خريشات"، وفيما كانت تطلق سابقاً على

المنقوشات القديمة التي وجدت في أطلال مدينة مومباي الهندية، صارت في العصر الحديث تعني الرسوم على الجدران، والمسطحات المدنية الأخرى في الحيز العام دون تصريح، أو إذن، وذلك باستخدام عُلب الرشّ الملونة، وأنواع أخرى من الدهانات لكتابة نصّ، أو رسم لوحة، أو المزج فيما بينهما.

عرف العالم اسم وتعريف الجرافيتي وانتشر استخدامه في العديد من المجالات كالدعاية، والإعلان، والتعبير عن الرأي، فهو أسلوب متاح للتعبير عن الرأي، أو إرسال رسالة سريعة ومختصرة ومعبرة وجديدة وفاعلة إلى الحكومات، والأنظمة، وتعبير عن الرفض باستخدام وسيلة أكثر انتشاراً في الآونة الأخيرة، كما أنها باتت ذات تأثير قوي، ورغم ما يجده هذا الفن من رفض من شريحة كبيرة داخل المجتمعات خصوصاً الأوروبية، حيث يرونه عملاً تخريبياً وغير شرعي؛ فإنه تحول إلى فن يومي متجدد، ويراها البعض فناً أو رسماً أو كتابات، وبشكل عام يجري الرسم دون إذن صاحب الملك، ولذلك يعتبر انتهاكاً للقانون وتخريباً.

الجرافيتي في الجزائر لتفريغ المكبوت

انتشرت، وتنتشر ظاهرة الكتابة على الجدران في الجزائر منذ سنوات، وكلّما ظهرت أزمة سياسية كالحراك سنة 2019م، أو اقتصادية، أو ظاهرة رياضية، لتغزو جدران المدارس، وواجهات المؤسسات، والمحلات الاقتصادية، وحتى واجهات المساكن،

والعمارات. حتى المقابر، لم تسلم منها. ويربط بعض الشباب هذه الكتابات بمشكلاتهم، ويوميأهم، إذ هي وسيلة بالنسبة إليهم للتعبير عن انشغالهم اليومية، وغالباً ما تكون "هروباً" من واقع معيش..

تأتي العبارات المقتضبة تلك إلى جانب أبيات شعرية، ورسومات جميلة سبق وملأت بعض الجدران. أما كلماتها فتكتب بلغة بسيطة، وغالباً ما تكون باللهجة المحلية، أو بإحدى اللغتين الفرنسية، أو الإنجليزية، وقد تترافق أحياناً ببعض رسومات. وفي العادة أصبح الراغب في تشجيع فريق رياضي، أو مناصرة حزب معين.

يُعدّ ذلك ذا حساسية، وأهمية: نفسياً، واجتماعياً، وكذلك مع بُعد ثقافي. بالنسبة إلى الاختصاصيين في علم النفس، هذه الكتابات هي وسيلة للتنفيس عن المكبوتات التي يعجز الفرد عن البوح بها، فيخرجها أمام الملا على الجدران.

ترى الباحثة نورة عامر، في "دراسة التصورات الاجتماعية للكتابات الجدارية في المجتمع الجزائري"، أن:

«الكتابات الجدارية، ومهما كان الهدف منها، سواء أكانت للمطالبة بالحقوق المهضومة، أم أسلوب تعبير، أو رفض للواقع المعيش، أو فرصة سانحة للانتقام، وردّ الاعتبار؛ فإنها في مجملها أسلوب عُنفٍ يعتمد فاعلوه إلى إشهاره في وجه العامة عبر ما يكتبونه، ويرسمونه بوضوح، أو بغموض، مفضّلين هذا الأسلوب على الظهور علناً. وتأتي الرموز الجدارية أسلوباً للتخفي في نشاط ممنوع قانونياً واجتماعياً».

وفي بحثٍ ميداني، حلّلت عامر الكتابات الجدارية في الجزائر من خلال التصورات الاجتماعية. وأتت النتائج على الشكل الآتي:

«1 - الكتابات الجدارية ظاهرة متواجدة، وأصبيلة في المجتمع الجزائري.

2 - ثمة تصورات اجتماعية متباينة حول الكتابات الجدارية.

3 - ثالثاً، تعدّ الكتابات الجدارية عنفاً رمزياً، عنف موجه إلى عامة الناس دون خاصتهم.

4 - تكرر العنف الرمزي في 28 عبارة، أي بنسبة تفوق 15 في

المائة. 5 - 5 - تلحق المعاناة النفسية العنف مع نسبة تتعدى 12

في المائة، لتليها المشاكل العاطفية، والعائلية، والاجتماعية¹».

كتابات في المدن الجزائرية وإن اختلفت في الصياغة، فإنها

تشابهت في التعبير عن مطالب "السُّكّنة"، سيّما الشباب:

نقرأ في مدينة قسنطينة شرقاً هذه المقولة "من الصعب أن تعيش في

وطن أجمل ما فيه الحلم بمغادرته"، وفي مدينة المسيلة، وسط، "رانا

تعبنا يا غاشينا"، أي "لقد تعبنا يا أهلنا"، وفي مدينة حمام بوحجر

غرباً "خذوا البترول واركبوا لنا الوطن"، وفي مدينة بشار جنوباً "أين

أنتم يا مسؤولين؟"، وكلها شعارات تشير إلى أن هناك جيلاً بات يشعر

بالاختناق في فضاء جزائري لا يراعي تطلعاته، مع ترده في اتخاذ أي

خطوة باتجاه الثورة على الوضع، خوفاً من الوقوع في الخراب، بالنظر

1 - جازية سليمانتي. جدران الجزائر لتفريغ المكبوت. صحيفة العربي الجديد. 06 نوفمبر 2015م

إلى ما يراه عند جيرانه العرب، فلم يبق له حلٌّ واحدٌ إلا الحلم بالهجرة".

رسم الجداريات أداة التعبير عن الهواجس

النظر إلى الظاهرة لا يكون بتلكم السوداوية؛ فقد يكون لها غاياتها الفنية، الجمالية، التكوينية، الذوقية عندما يتعلّق الأمر بالجدارية حيث تتحوّل شوارع المدن الجزائرية، بين الفينة والأخرى إلى ما يُشبه حلقات العمل المفتوحة، نظراً لإقبال كثير من الفنانين التشكيليين على رسم جداريات تدخل في إطار ما يُعرف بـ "فن الغرافيتي"، أو فنّ الشارع. وتختلف مواضيع الرسومات من مكان إلى آخر، بحسب اهتمامات الفنانين الذين يُشرفون على تجسيدها، إذ قام عددٌ من هؤلاء بتزيين بعض شوارع بسكرة بجداريات مستلهمة من البيئة الصحراوية المحلية التي تُزيّنها الرمال وأشجار النخيل، والأودية، التي عادة ما تُؤثت هذا الفضاء الجغرافي من الصحراء الجزائرية الشاسعة.

وبحسب التشكيلي مجيد قمرود، فإنّ فنّ الغرافيتي، ليس وافداً جديداً على الجزائر، خلاف ما يعتقد بعض المهتمّين بشؤون الفن في الجزائر، ولكنّه يعود إلى سنوات طويلة خلت، حيث ارتبط ببعض التجارب الأولى خلال سنوات الستينات من القرن الماضي، والتي يُعدّ التشكيليّ الجزائريّ دونيز مارتينيز، أحد أبرز روادها، وحمل أهمّ مُنجز قام به، في تلك الفترة، عنوان: "آخر كلمة لجدار"، وتمّ تجسيده بأحد شوارع مدينة البليدة، ويُرجع قمرود البدايات الأولى لفن الغرافيتي في

الجزائر إلى الجولات التي كان طلبة مدارس الفنون الجميلة يقومون بها تحت إشراف دونيز مارتينيز إلى بعض الأحياء لتزيينها بجداريات تُمثل أساساً روح الثقافة الجزائرية وتراثها.

يعزو قمرود انتشار فنّ الجرافيتي في العالم إلى النحات، والمصوّر الفرنسي فيكتور فازاريلي (1905 . 1997)، الذي أطلق دعوة بضرورة إخراج الفن إلى الشارع، كما قدّم الكثير من أجل تبسيط الأشكال، وكان أيضاً أول من ابتدع فن الخداع البصري.

الجدارية لنشر القيم، والذوق الجمالي

يؤكد قمرود على ضرورة أن تكون الجدارية وسيلة لنشر القيم الجمالية، وألا تقتصر على تصوير المواضيع الاجتماعية، وترجمة بعض الأفكار السياسية، كما يأمل أن يتمّ تعميم فن الجرافيتي ليدخل المؤسسات التربوية، وغيرها من الفضاءات الرياضية، ليندمج في دائرة "استهلاك الفن" التي صارت ضرورية لترقية الحسّ، والارتقاء بالنفس.

من جهته، يرى التشكيليّ حسين عولمي، أنّ فن الجرافيتي يُمكنه شخصياً من التعبير بحرية عن المواضيع، والهواجس اليومية التي تُشغله، والتي يُفضّل التعبير عنها تقنياً من خلال المزج بين الحروف العربية، والأشكال الهندسية، والرموز الكاليجرافيتي، وأنّ فن الجرافيتي في الجزائر يتطور من سنة إلى أخرى، بفضل إسهامات الفنانين

التشكيليين، ولجوء البعض من السلطات المحلية إلى الاستعانة بهذا الفن لتزيين واجهات شوارع المدن¹.

فنُّ التعبير والتغييرِ باقٍ

من الصعب أن نجزم بأن الجرافيتي يمكن القضاء عليه، وملاحظته في كل مكان، فهناك مدنٌ مشهورة في أوروبا بهذا الفن، قامت بتحديد أماكن لرسمي هذا الفن الذي أصبح له شعبية واسعة، ومؤيدون؛ بينما يعيش فن الجرافيتي عربياً في مناخ لا يساعده على الإبداع، والتحرر، ولا يجد تلك المساحة التي يجدها أوروبياً.

نحن أمام فنٍّ يملك شعبية واسعة، ورواجاً في معظم مدن العالم. وفي ظلّ الصعوبات التي يواجهها الشباب، خصوصاً في الوطن العربي، وسوء الأوضاع، وعدم الاستقرار السياسي، والاقتصادي في عديد من دول العالم؛ يبقى لفنّ الجرافيتي أهمية ودورٌ أكبر، لأنه فنٌّ غير مكلفٍ مادياً، ولا يحتاج في ممارسته سوى لألوان البوية، والبخاخ، ومكان خالٍ لنقل ما يريده فنان الجرافيتي من آراء، ورسالة، وفكر، وموهبة في التعبير بخطوط، وريشة، وألوان.

¹ - ... رسم الجداريات أداة التعبير عن الهواجس في شوارع الجزائر. يومية الوطن العمانية. 17 / 2018 / 09

التنشئة الجمالية من فعل الإنسان وحده

إن تربية الإنسان تربية جمالية ينبغي أن ترافقه منذ الطفولة، وأن تتواصل معه إلى آخر حياته.. ففي مرحلة الطفولة يتأثر الطفل بمؤثرات جمالية كثيرة كألعاب الأطفال، وأسلوب المعيشة داخل الأسرة، ونوع العلاقات بين أفرادها سيما بين الأب والأم، وفي الحي ومع الجيران، وفي شوارع المدينة، وسلوكيات الناس في أقوالهم وأفعالهم، وما تزخر به الحياة المدرسية من تفاعل بين أفراد المجتمع المدرسي، ونوعية المناهج المطبقة، وما تتضمنه من معارف وقيم واتجاهات، ومكانة الكتاب في كل هذا، ونوعية الكتب التي يقرأها هذا الطفل سواء في المدرسة وخارجها، وخاصة في أيامنا هذه ما أصبح يُعرف بالوسائط التثقيفية المعاصرة التي صار تأثيرها قوياً وفعالاً إن على الصغار، أو على الكبار سلباً أو إيجاباً.

التربية الجمالية في الإسلام

تدعو التربية الإسلامية دائماً، وتحث على الاهتمام بالمظهر الشخصي والناحية الجمالية، ليكون المسلم جميلاً في مظهره، متناسقاً في هندامه، بعيداً عن الدروشة والقذارة والإهمال. قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) [الأعراف 31] . فالله سبحانه كما جاء في الحديث: "جميل يحب الجمال". وليس هذا فحسب بل إن في ذلك إشباعاً لحاسة الجمال في نفس المسلم، فيتولد في أعماقه إيمانٌ شديد بعظمة الخالق سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي صورنا فأحسن صورنا، وخلقنا في أحسن تقويم.

ومن عناية الإسلام بالمظهر الحسن، والهئية الجميلة أمره للمسلم، وحثه على الفطرة التي تُربي المسلم تربية جمالية تتمثل في :
* الطهارة الحسية الجسدية، وهي مما يحبه الله سبحانه. قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) [التوبة 108]. ولما رُوي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " تنظفوا فإن الإسلام نظيف" رواه ابن حبان. ويتمثل ذلك في تطهير البدن بالوضوء، والغسل فينعكس ذلك بدوره على المظهر الخارجي.

* الطهارة المعنوية التي تغرس في النفوس تطهير الضمير، كعبادة، وطاعة، وامتنال لأوامر الله سبحانه، ورسوله صلى الله عليه وسلم. وهذه التربية الجمالية تؤدي بدورها إلى تطهير النية، والعمل، والسلوك، فنظافة المظهر مدعاة لنظافة الجوهر، ونظافة الشكل مدعاة لنظافة الضمير، ونظافة الفرد مدعاة لنظافة المجتمع. وبذلك يتحقق

بُعدُ تربيويّ إسلاميٍّ عظيمٍ متميّلٍ في طهارة المجتمع المسلم، طهارة معنوية من الفواحش، والمعاصي، والذنوب، والآثام، فترتفع النفس المسلمة من رجس الفوضى، وأوحال الوحشية إلى نظافة الأخلاق، وتهذيب السلوك، ومن ثمّ يتمّ تطهير الحياة الاجتماعية عامة حتى تصبح التربية شاملة للنفس، والعقل والجسم.

وليس هذا فحسب، بل إن في هذه السُّنن مدعاةً لتأليف القلوب، ومدّ جسور المحبة والمودة، وتوطيد الصلة بين الإنسان المسلم، وزوجه، فتكون حياتهما مبنية على الرحمة، والمودة، وقائمة على السكن، والراحة، والقبول. وليس أجمل من أن يكون - كلا الزوجين - مناسباً للآخر، وملائماً له، مقبولاً عنده في شكله، وهيبته لأن ذلك مدعاة للائتلاف، والرضى، وسببٌ مباشر لقناعة كل منهما بالآخر. وهذا بدوره سيؤدي إلى استمرارية سعادتهما الزوجية. ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قدوة تُحتذى في هذا الشأن. يقول ابن الجوزي:

«كان النبي صلى الله عليه وسلم أنظفَ الناس، وأطيبَ الناس.»

وأحسبُ أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: « إن الله جميل يحب الجمال »، إنما هو دعوة إلى التخلق، والتحلي بالجمال الذي هو البهاء، والحسن، وجمال الصورة، وجمال المعنى على حدِّ سواء .

التربية الوجدانية الجمالية تتصدّر عملية التربية الشاملة

في المجتمعات السويّة يُنظر إلى الطفل كطاقة تنبض بالحياة، والثقة بالذات، والطفل الذي يحصل على تربية متكاملة؛ تتضافر في تنمية شخصيته صحياً، فيزيولوجياً، نفسياً، عقلياً، وجدانياً، روحياً.. ومن خلال هذه التربية الشاملة تحظى التنشئة الجمالية بنفس التنشئة الفسيولوجية، والعقلية والاجتماعية، وتتفاعل معا من خلال جمالية العرض الفني للطواهر، والعلاقات المتبادلة، ومن خلال هذه التنشئة المتوازنة تتحقّق التربية الوجدانية، حيث يهتدي الطفل إلى السموّ الروحي، ويستوعب القيم الإنسانية بالتدرّج؛ وتُكتسب الفضائل، وحبّ الخير، والعلاقات الإنسانية الخيرة من خلال تربية الذوق الجمالي. من التربية الجمالية يتمّ توليد انفعالات الخير، وزرع سموّ الذوق الذي يتجسّد في أنماط السلوك، والعلاقات، ويتجسّد أيضا في التعامل مع المحيط بما يزخر به من موضوعات، وخبرات. حيث يسعى المربون في كل بلد إلى الوصول إلى أفضل الأساليب التي تحقّق الأهداف التربوية، ومنها الأهداف الجمالية، التي يعتبرها المهتمون

جزءاً لا يتجزأ من أهداف التربية الشاملة، ومهما كانت تربية الذوق الفني في حد ذاتها مهمة؛ فإنها ليست هدفاً؛ بل وسيلة لتزويد الإنسان ليس للتذوق الفني فحسب، بل الحياة ذاتها. وان تربية الذوق الفني عند الفرد تعني تعليمه بمساعدة الفن، وعبر الفن بحيث يرى جمال الحياة بكل مظاهرها.

فالتربية الجمالية تضاهي أي نوع من أنواع التريبات " عقلية كانت، أو روحية، أو خلقية، أو بدنية، أو اجتماعية، أو مدنية " فإن لها أثراً إيجابياً جميلاً. فالحياة تصبح جافة، وتبعث على الملل إذا ما خلت من الفنون الجميلة كالرسم، والموسيقى، والمسرح، والأنشودة الملتهمة، وغيرها فالفنون تُرقي الحياة وتهذبها. وتتجلى قيمة الفن في التربية بأنه يرفع شأن شخصية الفرد في جميع النواحي، إذ لا يعمل على ربط النشاط العقلي بالمهارات البدنية فحسب، بل يُصهرها، ويدمجها في عمل إبداعي، هو أسمى، وأثمن ما يتصف به الإنسان.

الفنون كما يُعرّفها أحد الكُتّاب:

«على أنها حركة الذات الإنسانية في المجتمع بوسائل اللفظ، واللون، والنغم، والحركة، والشكل بالوسائل المختلفة.»

التربية بالفن

التربية عن طريق الفن: أن ينمو الفرد نموا متكاملا في بيئة فنية تمكنه من أن يفكر، ويحس، ويعي، ويقوم بمزاولة النشاط العام، والعمليات العقلية، والجسمية خلال المشكلات الفنية التي يعالجها؛ أي أن يقوم على الأسس التربوية عن طريق حلّ المشكلات التي يصادفها خلال تنفيذه للمشروعات التعليمية. والمشروعات هنا يمكن أن تكون مشروعات فنية، تربط فروع المعرفة، والتدريب، والتنمية، والتوجيه، والوسائل المؤدية إلى حل المشكلات، وهذه عمليات بحث، وتجريب يقوم بها الفرد، ويناقش النتيجة، ثم يفكر ثانية ويستعين بخبراته السابقة. إن الهدف من تدريس التربية الفنية، وخاصة في المرحلة الابتدائية مثلا ليس تدريب التلاميذ على إنتاج الأعمال الفنية، بل تعديل سلوكهم، والمساهمة في تربيتهم عن طريق الأعمال الفنية بهذا المعنى، فممارسة الأعمال الفنية ليست غاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة يكتسب التلاميذ عن طريقها بعض القيم الإنسانية المستهدفة، وهو المقصود بالتربية عن طريق الفن، أي تدريب التلاميذ على بعض المهارات، والعادات، وتزويدهم ببعض المعلومات، والمفاهيم،

وإكسابهم بعض الاتجاهات، والميول عن طريق ممارستهم للأعمال الفنية، والاستمتاع بها.

السعي نحو تربية جمالية سليمة

تحرص المجتمعات المتطورة على تربية أجيالها تربية جمالية رصينة انطلاقاً من الأهمية الكبرى التي تنطوي عليها في خلق جيل واعٍ مستنير، يمكنه التفاعل مع الحياة، وإدراك مظهرها الجمالي عبر ذوق إنساني في رفيع.

وإذا سلمنا أن الجمال في أرجاء الكون بشتى صور الإبداع والخلق الفني؛ فإننا تأكيداً نجد في عالم الواقع بأشكال متنوعة، والفنون هي تلك الآثار الجمالية الرائعة التي ينتقي الفنان مفرداتها من الواقع بمهارة، وصنعة، ومعرفة جاعلاً منها قيمة جمالية مؤثرة.

يقول الفيلسوف الإنكليزي بيكون:

«الفن هو الإنسان مضافاً إلى الطبيعة.» لذلك فالفن يتغلغل في الحياة بكل تفاصيلها، ويمثل النزعة الإنسانية في التعبير عن كوامن الإنسان الشعورية، والعاطفية والحسية، كنشاط خلاق يصبّ في عالم الأخلاق، والخير، والجمال؛ فلو تصورنا الحياة بغير لمسة فن، وبدون مسحة جمال فأية حياة تكون حياتنا؟

التربية الجمالية "تنمية للوجدان..!!

إذا كان التعليم يؤكد على حقوق الإنسان في التفكير، والعمل فإن التربية الجمالية تؤكد على حقه في أن يكون أكثر حساسية، وأزهف شعورا وأكثر تعاطفا مع الحق، والخير، والجمال.

لحدّ الساعة في كلّ مناهج التربية العربية لم تُفرد التربية الجمالية باهتمام خاصّ، غالبا ما تكون مدمجة في مناهج التربية الفنية والموسيقية بمرحلة التعليم المتوسط، وكأنها مواضيع تابعة للتربية الفنية، وليس العكس، كما أن إلفات نظر المتعلم إلى مواطن الجمال، واستعمال دقّة الملاحظة لاستشفاف ما فيها من روعة وبهاء، ثم تذوّق ذاك البهاء من الأمور التي لم تلتفت إليها مناهجنا التعليمية، والدليل على ذلك الإهمال أن التربية الفنية، ولا أقول "الجمالية" لها أستاذ متخصص يُسمّى في نظامنا التعليمي "أستاذ مادة التربية الفنية" ويُنظر إليه من التلاميذ والأولياء، بل وحتى من الإدارة التعليمية على عدم أهميته هو ومادّته التعليمية؛ حيث في بعض الحالات يُلغى المنصب من الخريطة التربوية للمؤسسة، وفي مرحلة التعليم الثانوي ينعدم المنصب بالمرّة، أو يكون المنصب المالي موجودا ولكن تُدعّم به مادة تعليمية أخرى .

وبالرغم من خلوّ تقاليدنا التعليمية ممّا يُسمّى بالتربية الجمالية، وندرة المراجع التي تبحث في الموضوع، سأحاول أن أركز على ضرورة

تنمية التذوق الجمالي الحسي، وعلى تربية التذوقية الجمالية الحسية، التي تستطيع النقاط التوهج الذي يشعّ من الأشياء الجميلة أيّاً كانت. ولا بد من الإشارة إلى ندرة المراجع النظرية التي تبحث في هذا الموضوع، مما يدفع ببعض المرين الذين منحهم الله نعمة الشعور بالجمال، ولبؤورته عمليا في سلوكهم، وفي إبداعات يقومون بها مع تلاميذهم وهم قلة بكلّ أسفٍ وهذا واقعٌ عايشناه، ورأيناه في المؤسسات التعليمية.

إذا انتبهنا إلى أن الحسّ الجمالي، والقيم الجمالية، والاستمتاع بما هو جميل... لا يدرّس كمادة مستقلة، أو كموضوعات دراسية منفصلة، وإنما كنوع من التعلم المصاحب، يكتسبه الفرد من المعيشة، والتعرض المستمر للبيئة المفعمة بالأشياء الجميلة التي تشعّ بالقيم الجمالية والفنية؛ وطالما الواقع التعليمي هو كذاك، وانعكس الأمر سلبا في واقعنا الحياتي اليومي، حيث الجفاء، والرعونة، وعزلة الجار عن جاره، وخشونة المعاملة، والتعامل، والانعزالية، والتجهم، والقلق الفردي، والمجتمعي.. العنف بكلّ صوره يطبع حياتنا في هذه البلاد الجزائرية الجميلة .

هناك من يُرجع هذه الظاهرة الدائمة، والخطيرة في المجتمع الجزائري إلى المحن نتيجة التعدي، والغزو اللذين تعرّضت لهما هذه البلاد منذ بداية التاريخ حتى مرحلة الاستعمار الفرنسي، وإلى الفتن الداخلية التي تعدّدت وتنوّعت، وكانت آخرها محنة التسعينيات من القرن العشرين، وقد تركت جُرحًا غائرًا يطول الزمن كي تُشفى منه النفس الجزائرية؛ لكن في مقابل ذلك أخبرنا التاريخ القديم، والحديث، والمعاصر بأن هذا الإنسان الجزائري يحوز إرادة قوية، وإيمانًا بالله جعله صلبا سرعان ما يقف على رجليه، ويللمم جراحه، ويعود إلى حياته الطبيعية يبني، ويشيد .

هَلَّا التفتنا إلى هذا الإنسان الطيب بصدقٍ، وبنية خالصة، وبتخطيط عمليٍّ بعيد المدى إلى الاهتمام به من خلال إضفاء اللمسة الجمالية على كلِّ مرافق حياته بدءًا من الأسرة؟؟

حوارات

الصحراء في الجزائر من أغنى المنجز الإبداعي في الجزائر متعدد ومتنوع، وثريٌّ

حاوره: حسن خليفة*

وجهتُنا في هذا العدد، في سياق الحوارات، وجهة أدبية ثقافية بامتياز؛ حيث نُحاور مبدعا، وكاتبا، وأديبا من الجزائر العميقة.. أديب أسلست له اللغة العربية قيادها ففسج منها سرودا مائعة جميلة، وكتب بها دراسات، ومقالات مفيدة رائقة في عدد من المحاور والموضوعات ذات العمق الفكري والبعدين الجزائري والعربي. إنه الأديب الأستاذ بشير خَلْف سِيرْتُهُ في ذاتها عبرة للكتاب والأدباء الطامحين الذين لا يعرفون اليأس ولا القنوط، ويصنعون نجاحهم وتمييزهم بأنفسهم ينحتونه من صخر الحياة.... وإلى الحوار الممتع.

1. نبذة غير يسيرة عن حياتك ومسارك الأدبي والمهني..؟

ج 1 - بشير خلف من مواليد 28 جوان 1941م بقمار.. ولاية الوادي، بالجنوب الشرقي الجزائري. نشأ في أسرة فلاحية فقيرة جدا كسائر سكان المنطقة، في أوج الحرب العالمية الثانية، حيث الثالث الخطير الذي فتك بالجميع، من فقرٍ مدقعٍ، وأمراضٍ وجَهْلٍ، وتسلَّط

* - نصّ الحوار الثقافي الذي أجراه معي الأستاذ حسن خليفة رئيس تحرير صحيفة (الصانر) وصدر بها يوم الإثنين 23 /09/ 2019، في العدد 978

استعمار وحشيّ. رفض والده إدخاله المدرسة الفرنسية خشية فرنسته روحًا وفكرًا، فتلقّى تعليمه في الكتاب، فحفظ القرآن الكريم في سنّ اثني عشر سنة، وصلّى به التراويح في ذلك السنّ في مسجد ” الطُّلبة ” بقمار، لم يمكِّنه والده من الالتحاق بمدرسة النجاح التي فتحت أبوابها في أكتوبر سنة 1948؛ مدرسة النجاح في ظاهرها مدرسة حُرّة أنشأها الأولياء تفاديّ غلقها من الاستعمار الفرنسي؛ إلاّ أنّها سرًّا تابعة لجمعية العلماء الجزائريين في اتجاهاتها، وبرامجها، وكتبها. أدارها العلامّة المرحوم الفقيه، الشاعر، المصلح الشيخ محمد الطاهر تليلي حتى مرحلة استقلال الجزائر. بشير خلف لم يمكِّنه والده أيضا من الالتحاق بهذه المدرسة ليس عدم رغبة في المعرفة خاصّة باللغة العربية؛ إنّما لمساعدته في النشاط الفلاحي منذ كان عمره ثماني سنوات، نشاط فلاحي بسيط يُدرّ مدخولا بسيطا. في سنة 1957م بعد وفاة الوالد، رحل إلى عنابة عاملا بسيطا عند أحد التجار كي يُعيل أمّه الأرملة، وأخوين أقلّ منه سنًّا مقابل أجره تافهة تساوي 30.000 سنتيم للعام. في أول سنة 1959 استطاع أن يفتح متجرا صغيرا له بمدينة عنابة. وفي أواخر سنة هذه السنة انضمّ إلى الثورة كفدائي داخل مدينة عنابة، وشارك مع شباب آخرين في القضاء على عملاء خونة جزائريين. ألقت عليه القوات الاستعمارية الفرنسية القبض يوم 20 أوت 1960 رفقة عديد الفدائيين والفدائيات.

بعد محاكمة دامت ثلاثة أيام في المحكمة العسكرية بعنابة، حُكِم عليه بـ 15 سنة سجنًا، وعمره 19 سنة.. قضى منها سنتين في سجن تازولت (لامبيس) بباتنة، وأُفرج عنه بحكم اتفاقيات ” إيفيان ” في شهر ماي 1962. في السجن أخذ قسطًا كبيرًا من التعليم على أيدي أساتذة أجلاء مسجونين أيضًا، أغلبهم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سجن ” لامبيس ” تازولت حاليًا قُرب باتنة.. حيث اكتشف حلاوة المعرفة في كل مجالاتها، وخاصة اللغة العربية لدى الأساتذة، والكتب وما بها من معارف مختلفة؛ ومنها الإبداع من نثرٍ وشعرٍ. بمجرد خروجه من سجن الاستعمار الفرنسي انضم إلى الجيش الوطني الشعبي في شهر جوان 1962 لتكون محطته النهائية بهذه المؤسسة السيادية في الناحية العسكرية الثالثة ببشار، أين شارك كجندي في الحرب الجزائرية المغربية سنة 1963/ 64 وهو جندي شارك في امتحان “الممرنين” للتعليم، فكان النجاح حليفه.. قرّر مغادرة الحياة العسكرية. عُرض عليه البقاء في الجيش، والتكوين كضابطٍ سامٍ بالاتحاد السوفياتي؛ فأثر التربية والتعليم بدلًا من ذلك. معلمًا من سنة 64 حتى سنة 78 ثم مفتشًا حتى أكتوبر 2001 سنة تقاعده.

2 - كمتقف وأديب جزائري .. كيف تقرأ الأوضاع العامة في بلادنا خلال العقود القليلة الماضية ؟

2 - ج: لقد قيّض الله لي والحمد لله أن أعيش أوضاع بلادي الجزائر من سنة 1964 حتى يوم الناس هذا، وأن أتأثر بكل الأحداث التي مرّت بها كغيري من جيلي؛ يمكن لي أن أقول بصدق وبدون مبالغة، وبدون تطاول: أننا منذ البداية لم نؤسس لبناء دولة، متكاملة الأركان؛ بدلاً من ذلك كانت بداية من تولّوا الأمر التفرّغ إلى الصراع على السلطة، ونقل الخلاف في ذلك من مؤتمري الصومام، وطرابلس إلى أرض الواقع، وفرض أولوية العسكري على السياسي؛ ممّا انعكس على إبعاد المدني مهما كانت درجته الأكاديمية وتحصيله المعرفي ليس في المستويات العليا فحسب؛ بل في كل القطاعات، تمّ تقييد المعرفة، ونُصّب مكانها الجهل الذي فُتحت له الأبواب في كل القطاعات ومفاصل المجتمع.

غاب الحوار الراقي المؤدي إلى احترام الآخر والاستماع إليه، وتقبّل الاختلاف ممّا يساعد على تكوين مجتمع مدني راقٍ يؤمن بالوطن الواحد للجميع، وبالتعاون في بنائه، واحترام الكل، وفتح المجال للجميع في توظيف القدرات، والحرص على تكوين مجتمع مدني منه تبرز الأحزاب، والمنظمات، والجمعيات التي تؤسس لمواطنة واعية من خلالها تظهر الحقوق والواجبات، فتبرز الروح الديمقراطية، وحرية التعبير، والوصول إلى الحكم في إطار شفاف؛ ممّا يساعد على مشروع مجتمع في كل القطاعات لا يزول بزوال الأشخاص، مشروع مجتمع، وليس مشروع فلان أو فلتان، أو برنامج الرئيس...وما أزماتنا

المتكررة، ومنها أزمنا الحالية هذه السنة 2019 إلا نتيجة انعدام المشروع المجتمعي: مشروع الهوية، المشروع التربوي، الثقافي، الاجتماعي، الصحي، الاقتصادي، البيئي،...

3. وماذا تقول في الشأنين الثقافي والأدبي؟

3 - ج : - إذا رجعنا إلى الوراء قبل سنة 1988 كان الشأنان الثقافي والأدبي أحسن حالا؛ في تلك الفترة، ظهرت إلى الساحة الثقافية أسماء لها مكانتها في الإعلام كما الثقافة، المجلات الثقافية، الفضاءات، اتحاد الكتاب وفروعه، الجامعة، المسرح، السينما، الفنون التشكيلية، المتعاونون المشاركة المقيمون في إطار التعاون، زيارات كتاب ومبدعين من القارات الأخرى، كان بالإمكان ترسيخ هذا الزخم الثقافي الذي أبرز أسماء في الساحة الثقافية من جيلٍ نذر نفسه للثقافة في كلِّ مكوّناتها، والإبداع في كل تجلياته؛ كان بالإمكان تجديره، والمحافظة عليه، بعيدا عن اهتزازات السياسة، وصراع العُصب في التكالب عليها. إلا أنّ غياب المشروع الذي ينبثق من فلسفة المجتمع بداية، ثم إن المجتمع وكل الهيئات المُشرفة عليه والمتحرّكة فيه تُؤمن بهذا المشروع بدءاً وتخطّط له، وتعمل من أجل تجسيده عمليا بنفسٍ طويلٍ وباستمرارٍ، كيفما كانت الظروف ومهما تغيّر الرجال والطواقم المسؤولة.. المشروع الثقافي بقدر ما تكون السلطات التنفيذية مسؤولة عنه وعن تنفيذه، فإن الجماعات الفاعلة والضاغطة في المجتمع مسؤولة عنه كالأحزاب، والنقابات، والمجتمع المدني، بما في ذلك الجمعيات

وغيرها...لننظرُ إلى مشاريع الأحزاب التي تَهفو إلى الحكم، وقيادة المجتمع حتى في الاستحقاقات الانتخابية، هل نحن واجدون فيها ولو نُتفا بسيطة عن مشروع ثقافي؟! وانظرُ إلى النقابات بكل ألوانها، هل أنت واجدٌ في أديياتها ما يدلّ على تكوين المنتمين إليها ثقافيا ومعرفيا؟ وهلمّ جرّا.

4 - كيف تفسّر انحسار "الإبداع" في ساحتنا الثقافية على النحو الذي نراه منذ سنوات ؟

4 - ج : في السبعينات والثمانينات، وكما أسلفتُ نشط المشهد الثقافي وفي إطاره انتعش الإبداع الذي أوجده وساهم فيه، وواصل، ورسّخ مكانته اليوم في الساحة الإبداعية العربية، جيل أُطلق عليه جيل "السبعينات"، بعد هذا الجيل انحسر الإبداع، واختفى المشهد الثقافي إلا في زوايا ضيقة بفعل الزلزال السياسي والأمني الذي هزّ البلاد؛ إلا أنه وبداية من سنة 2007 سنة الجزائر عاصمة للثقافة العربية عاد الإبداع إلى مكانته حيث طبعت وزارة الثقافة 1259 عملا إبداعيا، ومعرفيا، وتواصلت الطباعة في كل سنة حتى 2011 أين حُصصت الإصدارات لتلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية، كما العديد من المبدعين طبعوا على حسابهم الخاص، ومنهم من طبع لهم بعض الجمعيات الثقافية، وكذا مديريات الثقافة، ودُور الثقافة، والمكتبات الرئيسية الولائية للمطالعة العمومية... ومن يزور معرض الكتاب السنوي بالعاصمة يُفاجأ بعشرات العناوين الجديدة الصادرة خاصة في

مجال السرد الروائي. وما وصل إليّ أن معرض هذه السنة 2019 سيكون مُميّزا من حيث الإصدارات الإبداعية الجزائرية، وللتذكير أن دور النشر التي تكاثرت، وتواجدت في أغلب ولايات الوطن ساهمت وتساهم في الإصدارات، والترويج لها.

5. خصّصت كثيرا من المؤلفات للشأن الثقافي والفكري الوطني.. حدثنا عن مؤلفاتك ..؟

5 - ج : البداية كانت في أواخر سنة 1970م تفاعلت مع مجلة المجاهد الأسبوعية، وخاصة مع "بريد القراء" ساهمت بمواضيع تخصّ منطقة وادي سُوف: مشكلة المواصلات في الواحات، الصناعات التقليدية، دور رجل الدين، شباب ضائع وسلطة محلية نائمة، رأيي في الشعر، افتقارنا إلى المكتبات، وغيرها، نتيجة قراءاتي لهذه المجلة من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، وتوقّفا طويلاً مع القسم الثقافي بها: شعر، قصص قصيرة، أخبار ثقافية؛ جذبني الأدب من قصص قصيرة، وشعرٍ.

أول قصة قصيرة كتبتها كانت في سنة 1972، بعد أن حبرّت عدة مواضيع اجتماعية أرسلتها إلى صحيفة "المجاهد الأسبوعي" التي كانت يومئذٍ هي وصحيفة "الشعب" تملآن الساحة المعرّبة، وأيضاً صحيفة: "النصر" بدرجة أقلّ، والتي عُرّبت سنة 1972؛ كانت صحيفة "المجاهد الأسبوعي" تنشر لي هذه المواضيع الاجتماعية، وبدأت من خلالها أيضاً أتعرّف على القصة القصيرة المعاصرة، وأتبع

مسارها الموضوعاتي، والاتجاهاتي، والفنيّ ممّا حرّك في نفسي نزعة الكتابة الإبداعية، وبالتحديد القصصية، ووهج ثورة التحرير المباركة لا يزال حينذاك في أوجه، فساعدتني الذاكرة التي أعادتني إلى تلك الأحداث، فجأة وجدّتي أكتب أول قصة مستوحاة من هذه الأحداث، قصة بعنوان " النفس الأبيّة " قصة واقعية أحداثها وقعت في سجن " لامبيس"، بطلها استُدعي من قبل الإدارة الفرنسية بالسجن، وعُرضت عليه مزايا، وعطايا، مقابل أن يكون مُخبراً داخل السجن بين إخوانه، يبلغ الإدارة الفرنسية عن رفاقه في كلّ ما يقومون به من كبيرة، أو صغيرة، أو حديث عن الثورة؛ وبإيحاء ونخوة الجزائري رفض، فعُوقب بوضعه في زنزانة منفردة... هذه القصة الأولى لتتوالى بعدها القصص، وتتفتّق القريحة، وأدخَلَ هذا العالم الإبداعي الجميل.

مجلة آمال.. إضاءةُ الإشراف: في فاتح جانفي 1977م اتّصلت بي وزارة الثقافة تُخبرني بأنّها قرّرت جمع كل القصص التي صدرت لي بمجلة آمال، وستصدرها في عدد خاص من المجلة، حيث صدرت القصص في العدد 39 بتاريخ ماي . جوان 1977م مجموعة قصصية تحمل عنوان " أحاديث على شريط الزمن" .. عدد به 19 قصة، وخمسة قصص قصيرة جدا. المفارقة أنني لم أستلم هذا العدد الخاص من وزارة الثقافة مباشرة، أو عن طريق البريد، إنما ابتعثته من مكتبة ابن باديس بمدينة الوادي كانت في كل شهر تصلها المجلات الثقافية العربية من تونس (الفكر، الحياة الثقافية)، مصر(الهلال، اقرأ)، لبنان (الآداب،

الأديب)، العراق (الأقلام، الطليعة الأدبية)، ليبيا (الثقافة العربية)،
السعودية (الفيصل)، قطر (الدوحة)، وكذا مجلة "الثقافة" و"الأصالة"
، ومجلة "آمال" من الجزائر العاصمة.. وكأني غير مصدق أن يصدر
لي عددٌ خاصٌ بي.

ثم صدرت لي المجموعة القصصية الثانية الموسومة بـ "القرص
الأحمر" سنة 1986 المؤسسة الوطنية للكتاب. وغيرها فيما بعد من
الإصدارات لتوشح مساري الفكري والإبداعي السردى، ففي إطار
نشرٍ مشترك، وباقتراح من المرحوم الطاهر وطار صدرت لي عن
الجمعية الثقافية الوطنية "الجاحظية" سنة 1999م مجموعتان
قصصيتان: "الدّفء المفقود"، "الشموخ". ثم في سنة 2007م
صدرت لي المجموعة الخامسة "ظلالٌ بلا أجساد"، عن وزارة الثقافة
في إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية. منذ 2007م بعد أن استهوتني
الكتابة في مجالات أخرى غير القصة القصيرة؛ في سنة 2017م،
عدتُ إلى القصة القصيرة؛ تحديدا القصة القصيرة جدًّا، العصيّة
الكتابة، إذ أصدرتُ مجموعتين قصصيتين على حسابي الخاص: "ترانيم
في حضرة القبح"، "لا قليل من الفرح"، عدد المجموعات القصصية
التي صدرت لي سبعة وعدد المؤلفات مجتمعة تفوق الـ 28 في: القصة
القصيرة، الجمال والفنون، الفكر والإبداع الأدبي والنقد، دراسات
أدبية، السيرة، حوارات ثقافية، إعداد وإشرافٍ لكتبٍ أخرى، والحمد
لله.

6. كتبت القصة القصيرة والرواية والمقال الأدبي والمقال الثقافي إن صحَّ التعبير... كيف يمكن توصيف "غياب" النقد في ساحتنا الأدبية الوطنية؟

6. ج: أ - يقول الدكتور إبراهيم رماني تعريفاً للنقد الأدبي: «..النقد الأدبي إنما يسعى إلى "معرفة الصور الجمالية، للقطعة الأدبية، وتقدير الصفات الأساسية التي يجب توفرها ليكون النص أثراً فنياً خالداً»؛ إذا كان الإبداع الأدبي يحتاج إلى الإضاءة النقدية، فإن النقد يحتاج لبيئة إبداعية خصبة تكفل له التفاعل والتواجد، والاستمرارية، كما تحفز الناقد على الرصد والمتابعة للأعمال الإبداعية في الساحة الثقافية، أيضاً تحفز هذا الناقد على العطاء، والمثابرة، وإبراز قدراته الإبداعية كراصد، وموجه؛ فالأدب كإبداع، والنقد كمتقّم لعملية الإبداع كلاهما يسيران جنباً إلى جنب في خطٍّ واحد ليتم كلاهما الآخر، ويدفع كلاهما الآخر نحو صناعة إبداع راقٍ يحفظ ذاكرة الأمة، ويستفزّ قريحة المبدع، ويعبر عن طموح المتلقّي كطرفٍ آخر في عملية تغذية أطرافها ثلاثة: مبدع، ناقد، متلقٍ.

في بلادنا وفي السنوات الأخيرة وقد انحسرت المقروئية رغم تواجد الإبداع، وحلّت محلّ المقروئية الوسائط الحديثة، وسيطرة مواقع التواصل الاجتماعي، والعزوف عن حضور الفضاءات الثقافية، والمنابر الإبداعية، والإعلام الثقافي، كما غياب الحصص الثقافية، واستضافة المبدعين أدّت بالنقد الأدبي أن يغيب عن الساحة الثقافية،

ويتواجد في الجامعات لا في المنابر، إنما في بحوث ومقالات في مجلات محكمة هدف أصحابها الترقية بدل الكشف عن المواهب، ومساعدتها. في غمرة هذا الفراغ، خلا المجال لظهور لون جديد من النقد هو (النقد الجامعي) الذي يستخفّ بالنقد خارج الجامعة دون أن يقدم البديل المقبول، لأنّ أصحابه باحثون وأساتذة جامعيون منزوعو الذائقة الجمالية في كثير من الأحوال... يلوكون أفكارا مجردة ونظريات مثالية، ويستجمعون ركاما من الأقوال الشرقية والغربية وأثقالا من الهوامش والإحالات، وحين يبلغون النصوص الممتعة الخلاقة تغلق دونهم، لأن من سمات الناقد إن لم يكن مبدعًا يكون ذوّاقًا للإبداع، مهووسًا بالجمال، باحثًا عنه في ثنايا النصّ، مثمّنًا مبدعه الذي من المفترض أن يتعرّف على المبدع شخصيا، لا على نصّه فحسب.

7. المنجز الإبداعي في الجزائر متعدد ومتنوع (سرديا وشعريا.. هل يمكن أن نعرف منك "تقييما" لهذا المنجز.. وبم يعد في تقديرك ؟

ج.7: المنجز الإبداعي يدخل ضمن المنجز المعرفي الشامل في البلاد، وتأكيدا فمن يرغب في معرفة هذا المنجز عليه بزيارة معرض الكتاب الدولي السنوي، ويطوف في أجنحته، ويغوص في أغواره، ويتوقّف عند العناوين سيفاجأ بالإصدارات الجديدة في كل المجالات الفكرية؛ إلا أن الحديث عن المنجز الإبداعي طاع منذ ما قبل المعرض في الإشارة إلى العناوين الجديدة التي ستكون حاضرة. إن المتتبع للمنجز الإبداعي لا يُفاجأ بسيطرة المنجز السردى الروائي في السنوات الأخيرة كما هو

الحال في أغلب بلدان العالم. قيل قديما: (الشعر ديوان العرب)، وحاليا " الرواية ديوان العرب.. بل العالم"، هذا المنجز نافست فيه الأنثى الرجل، وتبوأت فيه مكانتها؛ أما الشعر فقد انحسر متلقّوه إلا في مبدعيه، وأصدقائهم، وفقد مكانته، ومنابره، ومواقعه، وحتى دور النشر تتحاشى إصداره.. ولما نتحدث عن المنجز السردي الروائي في الجزائر الذي كانت بوادره الحديثة سنة 1973 برواية " ريح الجنوب" للمرحوم عبد الحميد بن هدوقة، وما تلتها من روايات، وحتى شعرٍ كانت نصوصا مشبعة أيديولوجيا بالواقعية الاشتراكية، معبرة عن الثورة، وواقع المجتمع الجزائري بعدها، وما يطمح إليه أفرادها؛ وأثناء الأزمة السياسية وما بعدها ظهر الإبداع الاستعجالي الذي وثق للمآسي اليومية دون النظر إلى الجانب الفني والجمالي، وحتى البناء اللغوي في عديد النصوص السردية؛ بعدها ظهرت نصوص من حيث العدد كثيرة، ومن حيث المضمون أغلبها ذاتية عاطفية مغلقة، الساحة أخيرا برزت فيها أسماء شبابية من الجنسين أبدعت نصوصا إنسانية راقية أهلتها للفوز بجوائز وطنية وعربية؛ دون الإشارة إلى الأسماء التي سبقتها والتي وصلت إلى الريادة ولا تزال.

8- نالت بعض الأقلام الجزائرية جوائز عربية مقدورة في المجال الإبداعي (رواية، شعر، أبحاث أدبية ونقدية)... لكن في الوطن ليس هناك ما يكافئ هذا النجاح.. إلام يعود ذلك في تقديرك؟

8 - ج: لا ننفي أنّ هناك جوائز سنوية في الرواية، المسرح، الإعلام، الأبحاث ذات مستوى مادي معتبر ترصدها مؤسسة الرئاسة، ومؤسسات أخرى، ويحتفى بالفائزين بها؛ ومن المفارقات أنّ العديد من الشباب المبدع الجزائري لما يتألق، ويتحصّل على الجوائز والمراتب المتقدمة خارج الجزائر؛ حينها يُحتفى به داخلها، وينتهي كل شيء، ويُناسى وكأنه ليس مكسبا جديدا يُثمّن ويرعى. الاهتمام بالمواهب، والكشف عنها، بل وتهيئة كل الظروف لوجودها، ومساعدتها، ووضعها مكانها اللائق الذي تبذع فيه فتفيد نفسها ووطنها يأتي من ثمرات المشروع الثقافي الوطني الذي لا نقول (معطّلاً)؛ بل معدوما لم يظهر إلى النور منذ الاستقلال.

9- كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور في النهضتين الثقافية والأدبية، بشهادة دارسين ومؤرخين كعبد المالك مرتاض وغيره.. كيف تنظر اليوم إلى دور الأدب والثقافة في صناعة الغد المنشود للمجتمع الجزائري.. وكيف تتصوّر إسهام الأدب في نهضة المجتمع؟

9- ج: كل وطني نزيه غيور على هذا البلد يثمّن الدور الرائد التاريخي الذي أدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولا تزال. إن الأدب والثقافة يدخلان ضمن عوامل مكّونات هوية الأمة، كما يشكّلان الغذاء الروحي، والجمالي، والتوازن النفسي، ممّا يساعد على السلوك السوي للفرد المنسجم مع نفسه، غيره، مجتمعه، ومن هذا المجتمع

المنسجم يكون الغد المنشود الذي يكون قوامه الاحترام، والعيش المشترك في وطن واحد المجتمع تحتضنه "المواطنة".

10. لوحظ من الدارسين وجود "تجاوزات" إن صحَّ التعبير في مجال الكتابة الإبداعية خاصة، بالسخرية من المقدسات والعدوان على القيم والمبادئ (لدى البعض حتى من كبار الكتاب) كيف تقرأ ذلك؟ وهل يرتبط الأدب والإبداع بالضرورة مع "الجرأة" على الدين والقيم

10. ج: ظلّ، ويظلّ الأدب مُستمدًّا من تجارب الإنسان، باعتباره كائنًا حيًّا مكوّنًا من الروح، والمادة، والعقل، والوجدان، وهو يحتاج إلى ما يُشبع احتياجاته المتعددة التي تتعلق بمكوناته تلك إشباعًا ماديًّا وروحيًّا متوازنًا في إطار القيم الإنسانية الرّاقية، وفي إطار احترام كرامة الإنسان نفسه ومجتمعه؛ لأنّ الأدب بما يعبر عنه من فنون الشعر، والنثر يعبر عن حقيقة شعور الإنسان الجمالي، والدّوقّي، وطبيعة إحساسه تجاه غيره، وتجاه الطبيعة بمختلف مظاهرها؛ بحيث تحكمه رسالة الأديب الذي يُسكب أحلامه، وأفكاره، وآلامه، وآماله بلغة ملك ناصيتها، وطوّعها، وحملها من قيم الجمال، والحقّ، والخير ما يرفع من مستوى المتلقّي.

إنّ أيّ أدبٍ لا يصبّ في هذا المنحى هو هدمٌ للقيم، وخطرٌ على المجتمع. بكلّ أسفٍ ظهرت في بلادنا كتابات شعرية وسردية ليس في هذا القرن فحسب، بل بداية من القرن الماضي، وإن كانت قلّة لتتغوّل نفس الأسماء، وتنضاف إليها أسماء جديدة من الجنسين كتبت،

وتكتب نصوصًا سردية وشعرية، سيّما السردية ضمّنتها، وتضمّنها دعوات للتحلّل من القيم الروحية، والدينية، ووصف المتمسكين، والمدافعين عنها بالجهل، والتخلّف؛ بل والدّعوة إلى التحرّر الجنسي، والمثلية من خلال ما يُطلقُ عليه بالأدب الإيروتيكي، وسعّي هؤلاء العمل على تفشّي هذا الأدب، ومن هؤلاء أساتذة أكاديميون معروفون؛ إلا أنه في تقديري من خلال رصدّي لتحركاتهم أنهم فشلوا، وسيفشلون أمام تصدّي المجتمع الجزائري المسلم لدعاويهم.

11. الجوائز الأدبية.. هل هي فعلا معيار حقيقي للحكم على قدرة وصدارة كاتب، أو مثقّف ما ؟

11- ج: إن انتشار الجوائز الأدبية والثقافية في العالم العربي بما في ذلك الجزائر، بادرة تستحق الالتفات، إذ هي مهمّة لتشجيع الكاتب على مواصلة إبداعه، وانتشار الكتاب بشكل أوسع. وهذه المبادرات التشجيعية وُجدت في أوروبا منذ قرون، وصاحبت الحركات النهضوية الفنية والأدبية. وفي العالم العربي هناك جوائز تمنحها سلطات الدول، وأخرى تمنحها مؤسسات تجارية، وبعضها تقوم برعايتها هيئات ثقافية مدعومة من جهات عديدة كما هو في دول الخليج. من حقّ أيّ مبدعٍ التقدّم إلى هذه الجوائز لكن وفق شروطٍ مضبوطةٍ، في رأيي ليست هذه الشروط دائمًا متوقّرة ممّا أدّى إلى بروز لهفة جديدة لدى كل من يكتب، ومنّ يحاول أن يكتب، في الركض للحصول على الجائزة، ولذلك نجد عديدا من الأعمال المقدمة للجوائز الأدبية، حتى من

كتاب كبار، متسرّعة غير ناضجة، لتركّض في سباق الجائزة. كما العديد ممّن لم ينشر، أو تنشر نصّاً في حياته، أو حتّى مقالاً أدبياً، يطلب منك، أو تطلب صداقة بمجرد موافقتك ترسل، أو يرسل إليك نصّاً أسماه (رواية)، لا ليطلب منك تقيّمه، بل الاطلاع عليه، وتزكّيته كي يشارك به في جائزة من جوائز ” البترودولار”.

. كلمة أخيرة :

- ج أتقدّم لصحيفتكم بالشكر والتقدير، وهيئة تحريرها التي منحتني هذه المساحة كي أدلي بآرائي الشخصية في قضايا بلادي.. آراء شخصية خاصّة بي، أرجو ممّن يطّلع عليها أن يجد فيها ربّما ما يشغله فكراً، والله الموفق.

الكاتب والقاص بشير خلف لـ " الخبر "

" لا يمكن للأديب أن يؤدي وظيفته بعيداً عن مقومات الإبداع الفنية"
" النصُّ الروائيُّ الحقُّ بقدر ما هو وثيقة سرديّة؛ فإنه نصٌّ يستمدُّ
قوّته، وجاذبيته من موهبة الكاتب "

برز اسم الكاتب، والقاص بشير خلف في السبعينيات، فنشر
مجموعته القصصية الأولى سنة 1977م بعنوان: "أخايد على شريط
الزمن" التي اعتبرها النقاد كمجموعة قصصية متكاملة فنيّاً، ثم واصل
كتابة القصة القصيرة، فنشر مجموعة ثانية بعنوان " القرص الأحمر"؛
ورغم طول المسافة بين المجموعتين؛ إلا أن بشير خلف الذي عمل في
سلك التعليم ظلّ كاتباً فاعلاً يكتب المقالة الأدبية، ويساهم في
النشاط الثقافي. يتحدّث في هذا الحوار مع " الخبر" عن تجربته في
الكتابة الإبداعية، ويجيب عن سؤال: لماذا لم ينتقل إلى كتابة الرواية،
فضلّ وفيّاً إلى القصة القصيرة، ثمّ القصة القصيرة جدّاً.

حاوره: **حميد عبد القادر***

السؤال الأول: بشير خلف من كتاب الرعيل الأول، كتبت القصة القصيرة مع بداية مسارك الإبداعي مطلع السبعينات، وبقيت وفيها لها، فلم تستهويك كتابة الرواية، لماذا؟

ب.خ: بدءًا أنا مهووس بفنّ الرواية، وفضاءاتها، وقراءتها بشغفٍ لا نظير له، حتى أُنِي في السنوات الأخيرة قاطعتُ قراءة القصص ماعدا القصة القصيرة جدا، ومن شوقي للرواية أذكر أُنِي قرأت في سنة 2017م ما ينيف عن الأربعين منها، وفي سنة 2019م قرأت ما ينيف عن الخمس وأربعين منها؛ وفي هذه السنة 2020م وبفضل شهر الحجر الصحي المنزلي أكملتُ كل ما بقي لدي من روايات كنت ابتعتها من "سيلا" في السنوات الماضية. ومن حبي للسرد الروائي، ودعّمي لمبدعيه الشباب من الجنسين، فتحت الباب أمامهم، وأمامهنّ من خلال تنظيم مسابقة الرواية القصيرة للرابطة الولائية للفكر والإبداع التي ترأستها، حيث نظمنا أربع دورات: 2011 ، 2014 ، 2016 ، 2018 م، بمنح الفائزين الثلاثة جوائز مالية، وطبّع رواياتهم، ومنح كل فائز ما بين 250 و 300 نسخة أثناء احتفائية إعلان النتائج، وقد دفعنا للساحة الإبداعية السردية الجزائرية العربية 12 روائيا، وروائية منهم على سبيل المثال: عيساوي عبد الوهاب، ابن المنعم عبد السايح، الأمين ابن الربيع، آسيا بودخانة، مهداوي عبد القادر، وغيرهم.

ما أعاقني عن كتابة الرواية في تقديري الشخصي أراها ليست الجلوس في مكتب، أو أريكة، والشروع في كتابة نص تتناسل جملة، وتتالى عباراته، والتعبير كيفما شاء، والدفع بالنص إلى المطبعة؛ بل قناعتي أن الرواية " مشروع معرفي " متكامل يحتاج إلى عُدة من المراجع، والوثائق، وحتى السفريات، وزيارة عديد الأماكن، والمواقع؛ فالنص الروائي الحقّ وثيقة بقدر ما هي سردية فإن نصّها يستمدّ قوته وجاذبيته من موهبة الكاتب، وقدراته العقلية، وملكاته الفكرية، وثقافته الواسعة، وإلمامه بقضايا عصره، وتمكّنه من اللغة وقواعدها، وأسرارها، وحسن توظيفه للكلمات، والعبارات.. أعاقني على أن أُلجّ عوامها ساردا وكاتباً أن الفترة الزمنية التي كان من المفترض أن أشرع فيها بكل قواي، كنت خلالها مسؤولاً في قطاع التربية، مُكلِّفًا بمهامّ بيداغوجية وإدارية ثقيلة تحتم عليّ الانقطاع عن الكتابة التي عدت إليها بعد تقاعدي سنة 2001م لأعود إلى القصة إلاّ في سنة 2007م بصدر مجموعتي القصصية " ظلال بلا أجساد"، نتيجة " الجزائر عاصمة للثقافة العربية"، ما لم يشجعي حينذاك عدم فضاءات للنشر مشجّعة، كما الموارد المالية الشخصية محدودة. فكان أمامي خياران: إمّا التوجّه كغيري من جيلي إلى الرواية، أو إلى الكتابة في مواضيع أخرى شغلتنني، وكنت أميّ نفسي الكتابة فيها كأدب الطفل، الفنون، الجمال، المجتمع المدني، ثقافة الحوار، ... فتغلّب الخيار الثاني.

السؤال الثاني: ما سرّ ولعك بالقصة القصيرة؟

ب.خ: بدأت مساري الإبداعي بالقصة القصيرة منذ سنة 1972م، حتى سنة 1987م بصدور مجموعتي القصصية الثانية " القرص الأحمر"، وتوقفتُ عن الكتابة لأنَّ المنصب الوظيفي الإشرافي في التربية حتم عليّ ذلك حتى سنة 1999م بإصدار مجموعتين قصصيتين في الجاحظية، ثم المجموعة الخامسة " ظلال بلا أجساد، لأنقطع عن كتابة القصة القصيرة، وأتوجّه إلى الكتابة في مجالات أخرى غير الإبداع السّردي؛ لأعود إلى الإبداع القصصي في تقنياته الجديدة" القصة القصيرة جدا سنة 2017م بمجموعتين: " لا قليل من الفرح"، " ترانيم في حضرة القبح". سرّ ولعي بالقصة القصيرة، وبقائي وفيها لها أنّها فن جميل وصعب وممتع في آن. فن يشغل على الإنساني، ويدخل الذات فيهبها هزّاً ويحكي عن المكابدات التي يمرّ بها الإنسان؛ وما أكثر مكابدات الإنسان الجزائري!!

من تجربتي الذاتية أرى النصّ القصصي يرتبط بالقدرة الفنية التي تتعلق بقدرة الكاتب على الصياغة اللغوية الإدهاشية، أي التي تخترق أحاسيس القارئ، وتدججه عاطفياً مع الفكرة القصصية، وتثير دهشته من البداية حتى النهاية، وهي تتعلق أيضاً بالتكنيك القصصي الذي يتبعه الكاتب..

واضح هنا أن لغة القصة تختلف بأسلوب صياغتها عن لغة الخبر أو التحقيق، أو المقال أو البحث.. صحيح أننا نستعمل نفس الألفاظ، ولكن وضعها في السياق وترتيبها هو ما يخلق الفرق. وهذا

ليس كل شيء، بل لا بد من أن يطور الكاتب لغته درامياً.. ذلك أن اللغة مترابطة بالحدث، ومتفاعلة معه، وتنبض بنبضه.

السؤال الثالث: من هم كتاب القصة القصيرة الذين أثروا في مسارك الإبداعي، وتقرأ لهم باستمرار؟

ب.خ: لَمَّا تعلقت بالكتابة القصصية في البداية بعد قراءات متعددة لقصاصين جزائريين النقينا معا في مجلة "آمال" الشهرية كالحبيب السايح، الأمين الزاوي، جروة علاوة وهي، خلاص الجيلالي، عمار بلحسن، محمد أمين الزاوي، د. خير الله عصّار، أحمد منور، عبد الحفيظ بوالطين، مولود عاشور، بشير سعدوني، مصطفى فاسي، حميدة العياشي وغيرهم، وقبلهم الطاهر وطار، وعبد الحميد بن هدوقة، زهور ونيسي. علماً أن المجلات الثقافية العربية كانت تصل الجزائر إثر صدورها: الثقافة العربية الليبية، الفكر التونسية، الأقلام العراقية، الموقف الأدبي السورية، مجلة الهلال المصرية، الرسالة، الآداب البيروتية، كل عدد كان به القصة القصيرة، ومن الذين قرأت قصصهم يوسف السباعي، يوسف إدريس، بشير خريف، العروسي المطوي الذي كان يرأس مجلة القصة التونسية، إضافة إلى القصص المترجمة في تلكم المجلات.

السؤال الرابع: لماذا يعزف عنها (القصة القصيرة) كتاب الجيل الجديد حسب رأيك؟

ب.خ: يبدو لي أن هناك العديد العوامل تصدّ الجيل الجديد عن كتابة القصة القصيرة منها أن مقروئيتها صارت شبه معدومة، الكلّ توجه إلى الرواية، كما أنّ دور النشر لا تُقبل على طبعها لكسادها في السوق، وحتى في المعارض، كما أن الجوائز المرصودة في خليج البترو دولار، وحتى في الجزائر كجائزة علي معاشي، وآسيا جبار هي للرواية، وليست للقصة القصيرة، والبعض من الجيل الجديد متسرّع، ويريد الشهرة والمال في أسرع وقت، ولا ينتظر مثل سابقه حتى يقوى عوده في الساحة الإبداعية، ثمّ إنّ القصة القصيرة عصيّ من حيث هو مساحة محدودة من الحكيم، والمدى المتاح لرؤية الكاتب لطرح الموضوع في مساحة محدودة تشترط لغة مكثفة، ومفارقات، وإدهاشات عجائبية فجائية للمتلقّي..

السؤال الخامس: كيف تنظر اليوم إلى مجموعتك القصصية الأولى "أخايد على شريط الزمن"؟

ب.خ: كانت أول الغيث، وكانت البنت الأولى التي تصدرت البقية، كانت فرحتي بها كبيرة جدا، ومما زاد فرحي أنّها وُزعت في أغلب مناطق الوطن، وابتاعها أغلب الكتاب والمثقفين عهد ذاك، وأتفاجأ حتى تاريخ اليوم لما يخبرني أحدهم في هذه الولاية، أو تلك بأنّها عنده. حقاً إنّ فنيات كتابة القصة تغيّرت بفعل تطوّر الحياة والمعرفة، لكنها بمقياس ذاك العهد هي تجربة مهمّة بالنسبة إليّ، وإضافة للمشهد الثقافي الجزائري.

السؤال السادس: انتقلت خلال السنوات الأخيرة لكتابة القصة القصيرة جداً، ونشرت كتاب "لا قليل من الفرح"، ما الذي أملى عليك هذا التوجه الجديد في الكتابة الإبداعية؟

ب.خ: من خلال معاشتي للتغير المتسارع في حيواتنا المحلية، والوطنية، والعالمية، وتعقد الحياة، وتعدد علاقات الإنسان مع محيطه الاجتماعي، والبيئي، وثقافة التشكي من الجميع تجاه كل شيء، وتهافت الناس على كل ما هو سريع ومُعلَب. القصة القصيرة جداً ابنة هذا العصر، خاصة أن عالم يومياتنا مليء بالملاحظات العابرة، باللقطات السريعة، ورصد المفارقات والمواقف؛ لذلك تكيّفت القصة القصيرة مع إيقاع العصر، فركبت لغة الاختزال، على أن الإنسان نفسه لم يعد قادراً على الإنصات لكل تفاصيل الحياة اليومية، ولم يعد يملك الترف القرائي في ظل التطور الرقمي، وانبثاق النصّ الشبكي، وتزايد الأزمات العالمية المتعددة المتسارعة، وميل الإنسان المعاصر إلى تجريب كتابة مخالفة، تتلاءم مع التحولات المعاصرة؛ لذلك كانت القصة القصيرة جداً محاولةً فنيّة ذات دلالة احتجاجية. القصة القصيرة جداً مُصطلح اختزالي لنصّ روائي، أو حكاية، أو قصة بشكلٍ مُوجز جداً وتكون مُكثّفةً وخاليةً من الزوائد، والحشو الوصفي، والاستطرادات.. تفاعلاً مع هذه المُعطيات عدت إلى كتابة القصة القصيرة جداً في سنة 2017م بمجموعتين: "لا قليل من الفرح" و "ترانيم في حضرة القبح".

السؤال السابع: تقول في أحد حواراتك أنّ الرواية التي تفوص كثيرا في الذات، في إشارة منك لأدب التسعينات، ولا تنظر للمجتمع، يعتبر أدبا ناقصا، هل هذا يعني أنك من أنصار الأدب في علاقته بالمجتمع وليس بذات الفرد؟

ب.خ: للكلمة دور في بناء المجتمعات، وأكثر ما يظهر في الحالات العصبية، والأزمات، ومبدع الكلمة أديب ملك عقلا، واعيا متسلحا بالوعي، والإيمان بالهدف.. فالأدب الصادق أدب ليس معزولا عن المجتمع، هو ما عبّر عنه الفيلسوف الألماني (نيتشه):

«فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمع ما طاب له من نعيم الدنيا لن يكون ذلك كاتباً وإنما هو أفك مزور لا قدر له ولا مقام».

الأدباء يعيشون واقع عصرهم، ويعكسوا تفاعلاته في أعمالهم متوحيين ترسيخ الجديده ونفي الفاسد. وللأديب وظيفة اجتماعية نحو قضايا مجتمعه دون أن تخرجه عن إطار ومقومات العمل الفنية لأن ما يقوله ليس عاديا، ولا يمكن للأديب أن يؤدي وظيفته بعيدا عن مقومات الإبداع الفنية من خيال، ورؤية، وأسلوب مناسب، وتصور لما يعبر عنه، ويرسمه بحريته بعيدا عن الإلزام، والتبعية لغيره؛ ليس بوقفا لهذا المنبر أو ذاك، ولا يعني هذا أن الروائي، أو الفنان يذوب في المجتمع، ويختفي كفرد؛ بل من خلال نسجه للنصّ الروائي يعبر عن ذاته، ويبرز مواقفه، وعواطفه، ويقاوم الظلم، ومن خلال إبراز مواقفه يدافع عن حريته، ووجوده، وحقه في الحياة الكريمة.

مع الكاتب بشير خلف، في صحيفة " البصائر " *

حاوره: جمال بوزيان

نستضيف اليوم قامة تربوية وأدبية وثقافية سامقة تُغرد عالياً ببوصلة واضحة المعالم.. سيرته ناصعة البياض؛ وحافلة بالأعجاز في محطات تاريخية كثيرة؛ قاوم -رغم صغر سنه- وببساطة المستدمر الفرنسي من أجل الحرية؛ هو أحد مربي الأجيال بعد الاستقلال؛ اشتغل أيضا في «الإشراف التربوي».. من جيل عصي الكسر على أهل الإغواء الفكري، والاستلاب الثقافي لأنه من طينة الوطنيين الأحرار الذين تفخر بهم الجزائر.. مثل ما تجرع الألم زمن القيد؛ نهل من منابع المداد زمن الحرية؛ له عدة مقالات في الفكر والثقافة والنقد والأدب نشرها في صحف ومجلات جزائرية وعربية عديدة.. أصدر في مجال القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا مجموعات منها «ظلال بلا أجساد» و «القرص الأحمر»؛ واهتم أيضا بالكتابة للأطفال.. يصدر له الشهر الجاري كتاب عنوانه «حياتي في دائرة الضوء.. سيرة

* - صحيفة البصائر (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، الأثنين 26 جمادى الآخرة 1442هـ 8-2-

ذاتية».. نشطٌ ثقافي بامتياز؛ حيث شارك في إنشاء جمعيات ولائية ووطنية تهتم بالحركة الأدبية في الجزائر؛ وأضاء دروب المبدعين بشموع لا تنطفئ. في هذا الحديث الحصري؛ يجيب المرابي، والمفتش، والكاتب بشير خلف على جملة من الأسئلة.

س1- من بشير خلف؟

ج - بشير خلف من مواليد 28 جوان 1941م بقمار.. ولاية الوادي، بالجنوب الشرقي الجزائري. نشأ في أسرة فلاحية فقيرة جدًا كسائر سكان المنطقة، في أوج الحرب العالمية الثانية، حيث الثالث الخطير الذي فتك بالجميع، من فقرٍ مدقع، وأمراضٍ وجهلي، وتسَلَّطِ استعمار وحشيّ. رفض والده إدخاله المدرسة الفرنسية خشية فرنسته روحًا وفكرًا، فنلقَى تعليمه في الكُتَّاب، حيث حفظ القرآن الكريم في سنِّ إحدى عشر سنة، وصلَّى به التراويح في ذلك السنِّ في مسجد "الطلُّبة" بقمار، لم يمكِّنه والده من الالتحاق بمدرسة النجاح التي فتحت أبوابها في أكتوبر سنة 1948؛ مدرسة النجاح في ظاهرها مدرسة حُرَّة أنشأها الأولياء تفاديًا غلقها من الاستعمار الفرنسي؛ إلا أنها سرًّا تابعة لجمعية العلماء الجزائريين في اتجاهاتها، وبرامجها، وكتبها. أدارها العلامة المرحوم الفقيه، الشاعر، المصلح الشيخ محمد الطاهر تليلي حتى مرحلة استقلال الجزائر. بشير خلف لم يمكِّنه والده أيضا

من الالتحاق بهذه المدرسة ليس عدم رغبة في المعرفة خاصّة باللغة العربية؛ إنّما لمساعدته في النشاط الفلاحي منذ كان عمره ثماني سنوات، نشاط فلاحي بسيط يُدرّ مدخولا بسيطا. في سنة 1957م بعد وفاة الوالد، رحل إلى عنابة عاملا بسيطا عند أحد التجّار كي يُعيل أمّه الأرملة، وأخوين أقلّ منه سنّاً مقابل أجره تافهة تساوي 30.000 سنتيم للعام. في أول سنة 1959 استطاع أن يفتح متجرا صغيرا له بمدينة عنابة. وفي أواخر سنة هذه السنة انضمّ إلى الثورة كفدائي داخل مدينة عنابة، وشارك مع شباب آخرين في القضاء على عملاء خونة جزائريين. ألقت عليه القوات الاستعمارية الفرنسية القبض يوم 20 أوت 1960 رفقة عديد الفدائيين والفدائيات.

بعد محاكمة دامت ثلاثة أيام في المحكمة العسكرية بعنابة، حُكِم عليه بـ 15 سنة سجنا، وعمره 19 سنة.. قضى منها سنتين في سجن تازولت (لامبيس) بباتنة، وأُفرج عنه بحكم اتفاقيات "إيفيان" في شهر ماي 1962. في السجن أخذ قسطا كبيرا من التعليم على أيدي أساتذة أجلاء مسجونين أيضا، أغلبهم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سجن "لامبيس" تازولت حاليا قُرب باتنة.. حيث اكتشف حلاوة المعرفة في كل مجالاتها، وخاصة اللغة العربية لدى الأساتذة، والكتب وما بها من معارف مختلفة؛ ومنها الإبداع من نثرٍ وشعرٍ. بمجرد خروجه من سجن الاستعمار الفرنسي انضمّ إلى الجيش

الوطني الشعبي في شهر جوان 1962 لتكون محطته النهائية بهذه المؤسسة السيادية في الناحية العسكرية الثالثة ببشار، أين شارك كجندي في الحرب الجزائرية المغربية سنة 1963/64، وهو جندي شارك في امتحان "الممرنين" للتعليم، فكان النجاح حليفه.. قرّر مغادرة الحياة العسكرية. عُرض عليه البقاء في الجيش، والتكوين كضابطٍ سامٍ بالاتحاد السوفياتي؛ فآثر التربية والتعليم بدلا من ذلك. معلّمًا من سنة 64 حتى سنة 78 ثم مفتشًا حتى أكتوبر 2001 سنة تقاعده.

س2- كيف تَرَكَ دَوْرَ والديكَ في تربيَتِكَ؟ وأثناء التَّعليمِ القرآنيِّ في الكتاتيب؟ ثُمَّ في مَسارِكِ المَدْرَسِيِّ؟

ج - بشير خلف بن بلقاسم ينحدر من عائلة فلاحية بسيطة، ما كانت تملك نخيلا، ولا تجارة. نشأ في هذه الظروف البئيسة، حيث كان الوالد يعمل تارات عند مُلَّاك النخيل، تلقّحًا للنخل في موسم الربيع، أو رَفَعًا وحملاً للرمال على الظهر في قُفْفٍ مصنوعة من جريد النَّخْلِ من قاعِ غوطِ النَّخيلِ صُعودًا إلى قمة كَثيبِ الرَّمْلِ كغيره من المُعْدَمين أمثاله الكُثُرُ. الغوطُ شبيهه بالهرم المقلوب، مقابل ثَمَنِ زهيدٍ، أو مقابل عدّة أرباع من القمح، أو الشعير. كما كان الوالد رحمه الله فلاحا بسيطا في أرض صغيرة المساحة، خصّصها لزراعة الدخّان "التبغ" كغيره من أغلب سكان قمار الفقراء.

حرص والدي على إدخال الكُتاب لما كان عمري خمس سنوات، وحرص على أن أحفظ القرآن الكريم كاملاً. حدث ذلك في منتصف الأربعينات من القرن الماضي كسائر أبناء بلدي الفقراء. انضمتُ إلى الكُتاب في سنِّ مبكرة، وكان التعليم تقليدياً يُكتفى فيه بتعليم الكتابة، وتلقين القرآن الكريم على اللوح، ومادة الكتابة " السَّمق" وأداة الكتابة القلم المبري من القصب دون زيادة. حفظت القرآن الكريم، وصليت به التراويح لستين متتاليتين بمجرد حفظه للجماعة في الجامع الكبير في شهر رمضان.

س3- لِمَنْ قرأت؟ وبِمَنْ تأثرت؟ ومتى وكيف بدأت الكتابة؟ وما أول قصة كتبتها؟ ومن قرأها أول مرة؟

ج - لما أنزلوني بسجن " لامبيس"، مضتْ غيرُ أيّام قليلة حتى عرفتُ أن فيه العديد من السجناء المفكرين، المثقفين، علماء ينتمون إلى جمعية العلماء كالمرحوم أحمد حمّاني، المرحوم الشارف، وغيرهم، وكذا عبد الله فاضل، وقيادات في جبهة التحرير الوطني، وجيش التحرير الوطني، وقيادات في أحزاب أخرى تواجدت قبل ثورة التحرير. من الحقوق التي تحصل عليها السجناء من السلطة الاستعمارية، وضغوط الصليب الأحمر الدولي، الحقّ في التعليم لمنْ رغب باللغتين العربية والفرنسية، ومن واجب سلطة السجن أن توافق على منْ يتقدّم للتدريس من السجناء، أيضاً توجّب عليها مدُّ كلِّ متعلّم أسبوعياً بكراس 96 صفحة للعربية، وثانٍ للفرنسية، وقلم أزرق، وآخر أحمر.

دخلت سلك التعليم سنة 1964م كممّرن، وكان علي أن أعوّض حرمانني من التعليم من جهة، وأرفع مستوي المعرفي، والمهني في علوم التربية، وعلم النفس، وخاصة علم نفس الطفل، وبعد سنتين تحصّلت على شهادة الأهلية، ثم شهادة البكالوريا سنة 1972م كمترشح حرّ، فسجّلت في جامعة قسنطينة مباشرة؛ لكن لظروف بُعد المسافة، والمسؤولية العائلية لم أواصل. في سنة 1978م شاركت في مسابقة تكوين مفتشي التربية، ونجحت فيها لأتخرّج بعد سنتين مفتشا متخرجا من مركز التفتيش بجامعة الجزائر. وكجيلي قرأت لأغلب الكتاب العرب والجزائريين: مصر، لبنان، العراق، سوريا، تونس، المغرب، الجزائر، الأدب الأجنبي المترجم.

بداية الكتابة كانت في 1972م حينما ظهرت في كتابة مواضيع تتعلق بمنطقة " وادي سّوف" كمشاكل النقل، والصناعات التقليدية، وغيرها، تُرسل هذه المواضيع إلى ركن القراء بصحيفة المجاهد الأسبوعي، وصحيفة النصر التي عُرّبت سنة 1972. إن أول قصة قصيرة كتبتها كانت في سنة 1972، بعد أن حبرت عدة مواضيع اجتماعية أرسلتها إلى صحيفة " المجاهد الأسبوعي " التي كانت يومئذ هي وصحيفة " الشعب " تملآن الساحة المعرّبة، وأيضًا صحيفة: النصر" بدرجة أقلّ، والتي عُرّبت سنة 1972. كانت صحيفة "المجاهد الأسبوعي" تنشر لي هذه المواضيع الاجتماعية، وبدأت من خلالها أيضًا أتعرف على القصة الجزائرية القصيرة المعاصرة، وأتبع مسارها

الموضوعاتي، والاتجاهاتي، والفنيّ ممّا حرّك في نفسي نزعة الكتابة الإبداعية، وبالتحديد القصصية، ووهج ثورة التحرير المباركة لا يزال في أوجّه، فساعدتني الذاكرة التي أعادتني إلى هذه الأحداث، فجأة وجدّتي أكتب أول قصة مستوحاة من هذه الأحداث، قصة بعنوان " الأبّي " وهي قصة واقعية وقعت أحداثها في السجن، بطلها يُستدعى من قبل الإدارة الفرنسية للسجن، وتُعرض عليه مزايا، وعطايا، وهدايا مقابل أن يكون مُخبراً داخل السجن، يبلغ الإدارة الفرنسية عن رفاقه في كلّ ما يقومون به من كبيرة، أو صغيرة، وبإباء ونخوة الجزائري يرفض، فيعاقب بوضعه في زنزانة منفردة... هذه هي القصة الأولى نُشرت لي في مجلة آمال في شهر فيفري 1972 لتتوالى بعدها القصص، وتتفتق القريحة، وأدخل هذا العالم الإبداعي الجميل.

وكانت في الساحة أيضاً صحيفة الشباب الأسبوعية أرسلت إليها القصة الأولى بعنوان: "التحدّي". صدرت في العدد 48 بتاريخ: 1973/03/01 في باب نادي الشباب الأدبي، تليها قصة: "العودة" في نفس النادي بالعدد 109 سنة 1974 ثم قصة "سيول جارفة" في العدد: 130 بتاريخ: 1974/02/26. أمّا يومية النصر الجديدة المعرّبة نشرت لي بتاريخ 1974/01/12 قصة بعنوان: "الجرح العائر" وبتاريخ: 06 / 03 / 1975 نشرت لي القصة الثانية بعنوان " الذكرى " ليتواصل النشر بالصحيفة. في تلك الأثناء كانت تطلّ علينا مجلة " آمال " الشهرية التي تصدرها وزارة الثقافة، وهي مجلة

أدب الشباب ... كانت تأتينا تباعاً، وتصدر بانتظام، وسعر مقبول يساوي ديناراً ونصفاً للعدد الواحد.. سعرٌ مثبتٌ في واجهة المجلة. كنت أتلهّف إليها بشوقٍ وحنينٍ، حيث كنت أقرأ محتوياتها من الألف إلى الياء، وغالبا ما أعود إلى قسم القصة القصيرة المنشورة بها، فأعيد قراءة كل قصة مرّة أو مرتين، وكوّنتُ أصدقاء حميمين يدعون في هذا الجنس الأدبي دون أن أعرفهم بأشخاصهم، ودون أن أقابلهم، ثم عرفتهم عن قُرْبٍ والتقيتُ أغلبهم، وتكوّن منّا من يُطلق عليهم بجيل السبعينيات فيما بعد.

تأثراً بما كنتُ أطلعه في صحيفة الشعب، وصحيفة المجاهد الأسبوعي، ومجلة آمال بخاصة دفعني إلى المغامرة.. نعم أسميها مغامرةً، فلماذا لا أدلي بدلوي مثل هؤلاء الذين تنشر لهم مجلة "آمال" حيث هناك من تنشر لهم في كل عدد، وهناك من تنشر لهم أحياناً.. كم كانت فرحتي كبيرة جداً.. بل كانت مفاجأة لي وأنا أتطلع إلى اسمي بجانب أسماء مثل: خلاص الجيلالي، عمار بلحسن، محمد أمين الزاوي، د. خير الله عصّار، أحمد منور، عبد الحفيظ بوالطين، السائح الحبيب، مولود عاشور، بشير سعدوني، مصطفى فاسي، جروة علاوة وهبي، حميدة العياشي، واسيني لعرج وغيرهم... وكانت أول قصة تُنشر لي في المجلة في عدد فيفري 1972 بعنوان: " الأبّي " وتنشر لي أيضا في العدد الواحد والعشرين بتاريخ اجوان . أوت 1974 عمليّن في عدد واحد.. قصة قصيرة في باب القصة بعنوان " القدر الساخر"، وقصيدة

شعرية في باب الشعر عنوانها: " صرخة جرح .." ويتتالى نشرُ القصص القصيرة لي بالمجلة في أغلب أعدادها المتوالية: 25،26،27،28،30،33،43،44... ولم تُرفض لي أيّ قصة. إلى أن أصدرت لي المجلة " آمال" عددًا خاصًا بي: 39 لشهري ماي، اجوان 1977 مجموعة قصصية تحمل عنوان " أخايد على شريط الزمن.. عدد به 19 قصة، وخمسن قصص قصيرة جدا. نُشرت المجموعة، ووُزعت في كل مناطق الوطن، وتلقفها القراء، والعديد من كُتاب، وأدباء تلك المرحلة لا يزالون يحتفظون بها، ويذكرونني بها.

س4- ماذا تتناول أول مجموعة قصصية لك؟ وما ظروف كتابتها؟

ج - كُتبت قصص المجموعة السابقة على مراحل، وكانت الجزائر حينذاك دخلت في الثورات الثلاث: الزراعية الصناعية، الثقافية تعويضا للإنسان الجزائري عن مخلفات الاستعمار البشع، والتطلع إلى حياة كريمة تستند إلى تكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية؛ فانتهج الكُتاب، المبدعون الأدب الواقعي الذي يعايش الواقع المعيش، فكانت قصصي في هذا المجال.

س5- ماذا قال النقاد عن قصصك؟

ج - (منصف بوزفور/ صحيفة الخبر):

«القارئ المتابع لا يجيب ظنه في أسلوب " بشير خلف " وفي القيمة السردية وفي الكيفية التي بنى بها الأحداث والوقائع والصور. فهو ولا شك وكمثل ما قاله " الطاهر وطار " فيه: أحد الذين بنوا بصمت

وتتواضع صرّح الأدب الجزائري الحديث، إذ انزوى في- قمار -
بولاية الوادي، يلقّن الأجيال الصاعدة الحلم، ويثري المكتبة الوطنية.
والحقيقة أن هذه الصفحة لا تتبع النص السردي خطوة بخطوة، ولا
المحتوى الدلالي لنصوصه القصصية. ولما كانت العلاقات في النظام
الزمني لتتابع الأحداث في الرواية ليس نفسه في الأقصوصة القصيرة؛
رأينا أن نقدم هذا العمل الأدبي دون التعمق في النص، ولا في
مواصفات الأسلوب السردى عند " خلف " .

(الطاهر يحيايوي/ المجاهد الأسبوعي):

«...القاص بشير خلف، يُصدر مجموعته القصصية الجديدة " القرص
الأحمر"، التي تُعبّر عن نُضجٍ فيّ بعد مجموعته الأولى " أخايد على
شريط الزمن". ويبدو من القصص الجديدة أنه خرج من إطار
الإنشائية والموضوعات الجاهزة، فهو في " القرص الأحمر" يؤكّد
إمكاناته القصصية ومقدرته على استيعاب الواقع الاجتماعي المتغيّر.
إذاً في هذه المجموعة التي تحتوي على 12 قصة قصيرة، وخمس قصص
قصيرة جداً؛ يجرّب "خلف" الأشكال القصصية الجديدة، ويتجاوز
الكتابة التقليدية الإنشائية.»

س6- اختر إحدى قصصك القصيرة للقراء.

ج - (نقله):

" في رحاب البادية النقية الأجواء. نشأت وشبت. كانت تعترّ
بلباسها الصوفي. تتفاخر بغذائها من حليب النّوق.. تتباهى بدفء

خيمة الشَّعْرِ.. أين نضجت أنوثتها.. قبل أن تتأثر بممثلات
المسلسلات التركية.. التي أدمنت على مشاهدتها.. لما تقدّم إليها
ابن عمّها طالبًا يدها. اشترطتِ الحرير بديلا.. المدينة إقامة.. الفيلا
سكنًا..

س7- هل لديك مشروع رواية ؟

ج - ليس لديّ مشروع رواية، لو كانت لي رغبة في ذلك لكان التنفيذ
قبل نهاية القرن الماضي، كتابة الرواية في تقديري الشخصي أراها
ليست الجلوس في مكتب، أو أريكة، والشروع في كتابة نصّ تتناسل
جمله، وتتالى عباراته، والتعبير كيفما شاء، والدفع بالنص إلى المطبعة؛
بل قناعتي أن الرواية " مشروع معرفي " متكامل يحتاج إلى عُدة من
المراجع، والوثائق، وحتى السفريات، وزيارة عديد الأماكن، والمواقع؛
فالنص الروائي الحقّ وثيقة بقدر ما هي سردية فإن نصّها يستمدّ قوته
وجاذبيته من موهبة الكاتب، وقدراته العقلية، وملكاته الفكرية،
وثقافته الواسعة، وإلمامه بقضايا عصره، وتمكّنه من اللغة وقواعدها،
وأسرارها، وحسن توظيفه للكلمات، والعبارات..

س8- ابعث رسالة موجزة إلى المؤلّفين الجدد.

ج - يجب أن تكون لديك موهبة فطرية في رواية الحكاية، والصياغة،
وتطوير الحبكة الدرامية، واستحضار المشاعر، عليك أن تكون صبورا؛
إذ يستغرق الأمر سنوات طويلة قبل أن تكون روائيا ناجحا معروفاً.
وعلى الرغم من أن الروائي يكتب خيالا، فإن أفضل الروايات هي ما

يشعر معها القارئ بالواقع، وتبدو معقولة حتى لو كانت خيالية؛ ولأن كتابة الرواية تعد عملاً احترافياً، فيلزمك أن تراعي معايير النشر، وتتحدى عقبات الملل، والتصميم، والتشتت لتنجز الرواية بالمزيد من العمل والصبر والتصميم على الاستمرار حتى عندما تصطدم بالعقبات.

لا تأمل أن تحقق روايتك مبيعات عالية، وتجلب لك دخلاً كبيراً، إذ لا يكون هذا هدفك لئلا تصاب بخيبة أمل. يجب عليك أن تتبنى فكرة أنك لا تكتب من أجل الربح أو المكافأة المادية، واجعل بناء الشخصيات وإحكام السرد والحبكة والحوار هدفك الأساسي، وتدريب بما فيه الكفاية، وسوف يأتي الربح لاحقاً حينما تقدم أدباً قوياً ذا قيمة إنسانية عالية. وقد تستغرق عملية النشر سنوات، وينصح بعض خبراء كتابة الروايات أن تكون الكتابة وظيفية جانبية، واسع إلى ضمان عمل، أو وظيفة تمكّنك من تحقيق دخل يسمح لك بالحفاظ على لقمة العيش. يجب أن تقرأ الكثير لا يهم نوع الروايات التي تقرأها، سواء أكانت أدباً عربياً، أو عالمياً، أو روايات لأدباء شباب أو كبار السن، عليك أن تقرأ الكثير، وتستمرّ دون توقّف.

س9- هل ترى تطوراً للنقد الأدبي في العالم العربي؟ وما ملامحه؟
(اذكر أمثلة).

ج - في رأيي الشخصي لم يتبلور حدّ الآن نقد أدبي عربي مستقلّ عن الآداب الأخرى. إن نقدنا المعاصر ما زال حتى الآن في مرحلة

النقل والاتباع للآليات النقدية الغربية، وإجراءاتها، وهي في أغلب الأحيان لا تُطبق مثلما نُظِر لها في بيئتها وتربتها، ولعل هذا ناتج عن عدم الفهم الدقيق لهذه الآليات، فضلاً عن سوء الترجمة في بعض الأحيان، والخلط بين المناهج في منهج معين، وكذا الخلط بين الإجراءات التحليلية للأجناس الأدبية، في هذا الشأن يقول الشاعر، والناقد عبد الحميد هيمة: «أهم إشكالية يعاني منها اليوم نقدنا العربي عامة، والجزائري خاصة، وهو ضعف حضور النقد التطبيقي، الذي يستنتق النصوص، ويسبر أغوار الأعمال الأدبية، ومن ثمة يُسهم في تطور الإبداع الأدبي، وإن كنا لا ننكر أهمية النظرية والتنظير في النقد، فإننا نعتقد أن النقد الحقيقي هو الذي يتجه إلى النص، الذي هو جوهر العملية الأدبية. ولعل هذا ما أشار إليه تودروف في كتابه الأدب في خطر، عندما قال مخاطباً النقاد: "إن الأدب في خطر لأننا في المدرسة أصبحنا لا نتعلم عن ماذا تحدثت الأعمال الأدبية، وإنما عن ماذا يتحدث النقاد". مشكلة أخرى تواجه نقدنا المعاصر وهي طغيان النقد الشكلي الذي يغتال الأدب لا بدراسة نصوص غير أدبية؛ بل يجعل الأعمال الأدبية مجرد أمثلة إيضاحية لرؤية شكلانية، أو عدمية، أو أنانية للأدب مُعرفة في الغموض قد لا يفهمها إلا الباحث المتخصص. وهذا أدى إلى تعالي هذا النقد عن الجمهور العام للقراء، والذين يهمهم من قراءة الأدب معرفة علاقة العمل بشروط إنتاجه، وسياقاتها، ومعرفة مواطن تميز هذه الأعمال الأدبية، ومقدار

إضافتها إلى النوع الأدبي؛ ومن ثمّ حدث التباعد، وازدادت الهوة بين النقد الجامعي، وجمهور القراء، والمبدعين.»

س10- تسعى "دور ثقافة" وفروع "اتحاد الكتاب الجزائريين" و"جمعيات ثقافية" في بعض الولايات إلى طباعة مؤلفات المبدعين؛ في الحين نفسه لا تقوم بذلك مؤسسات، وكيانات مثلها في ولايات أخرى.. بما تفسّر ذلك؟

ج- ترأست جمعية ثقافية مدة 18 سنة من 2001 إلى 2018م طبعنا ثلاثين كتابًا لمبدعين في الشعر، والقصة، والرواية، ونظمنا أربع مسابقات للرواية، وطبعنا روايات الناجحين الـ 12 روائيا، وروائية، ووزعنا الروايات مجّانًا، بمساعدة القطاع الثقافي، ومحسنين، في ولاية الوادي في زمن البحوثه طبعت مديرية الثقافة، ودار الثقافة ما ينيف عن 150 كتابا لمبدعين ومبدعات؛ بينما في ولايات أخرى تلکم المؤسسات لها نفس الميزانية لم تطبع حتى كتابًا واحدًا؛ في رأيي، وحسب خبرتي تعود المبادرة إلى المسؤول الأول عن المؤسسة الثقافية، ونظرته الشخصية، وقناعته بأهمية المعرفة، وفي صدارتها الكتاب، وكذا مساعديه، والمحيطين به.

س11- بصفتك أحد مؤسسي "الجمعية الوطنية الثقافية الجاحظية" رفقة الرّوائيّ الطّاهر وطّار وغيره؛ وعضوًا في «اتحاد الكتاب الجزائريين».. كيف تركّ أوضاع هذين الصّرحين حاليًا؟ وماذا تقترح؟

ج - جمعية الجاحظية فقدت إشعاعها، ومكانتها بمرض مؤسسها، ورئيسها المرحوم الطاهر وطّار، بعده زلزلتها صراعاتُ رفاقي المرحوم حول رئاستها، والمرحوم محمد تين سعي جاداً إلى تمكينها من المواصلة، نجح نسبياً في الندوات الأسبوعية، وفشل في مواصلة طباعة الكتب، وبعد مرضه، ورحيله يبدو أنها توقفت نشاطاً، فهيتها المديرية لم تتجدد؛ أما اتحاد الكتاب الجزائريين واقعياً غير موجود، هيكلها موجود مركزياً؛ بعض فروعها ببعض الولايات تنشط أحياناً. مركزياً بالرغم من كثرة الأحداث المتسارعة بالجزائر وخطورتها، وتنوعها، والاتحاد يمثل النخب المثقفة من المفترض أن يكون في الصدارة؛ لكن لا أثر له.

س12- ما رؤيتك لتنظيم المكتبات العمومية بين تسيير المجالس الشعبية البلدية ومديريات الثقافة؟

ج- ما أعرفه، وأراه أن المكتبات العمومية الولائية، وفروعها البلدية، وبما بها من آلاف الكتب في شتى المعارف تؤدي دوراً ريادياً، وتقدم الكثير للطلبة، والتلاميذ، وقبل جائحة كورونا كانت بانتظام تقيم الندوات، والملتقيات المحلية، والجهوية، والوطنية، ونفس الدور الريادي تؤديه مكتبات مديريات الثقافة، وملحقاتها؛ مكتبات المجالس البلدية (إن وُجدت)، تُسيّر كمكاتب إدارية فحسب، ومسيروها إداريون عاديون دون تكوين، في أغلب الأحيان يفتقدون إلى تكوين تسيير المكتبات.

س13- ما رأيك في مشروعات تنمية القراءة لدى الإنسان العربي؟
وماذا تقترح؟

ج - يبدو لي في الحالات الطبيعية أن القراءة لا تحتاج إلى مشاريع تنمية إلا لدى متعلمي محو الأمية؛ أما غير ذلك فهي تبدأ مع الطفل في المنزل من خلال التنشئة الأسرية، ومعايشة الوالدين، والإخوة في ممارسة القراءة، ومساعدة الأبناء على ممارستها تدريجياً، ثم في الروضة، فمراحل التعليم المتصاعدة من خلال التعلم، واكتساب المعارف، وحصص المطالعة التي يُبدأ بها بداية من السنة الرابعة ابتدائي كحصّة مستقلة.. تنمية القراءة لدى الإنسان فيما بعد يواصلها بنفسه، وتنميتها لدى المجتمع يكون بالتشجيع على توفير الكتب بأسعار معقولة، وتقريبها للمواطن بتوفير المكتبات العمومية، وبالمنافسات القرائية للكتب، والتحفيز بالجوائز، والترشيد بواسطة الإعلام السمعي، والمرئي؛ وإقامة المعارض محلياً، وجهوياً، ووطنياً؛ لكن علينا أن نكون واقعيين، أمة العرب أقل الأمم قراءة. أقل الأمم اهتماماً بالمطالعة قياساً بالشعوب والأمم الأخرى. فالإحصاءات الخاصة بالقراءة والمطالعة والصادرة من منظمات محترمة لها مصداقية فيما تقول مثل منظمة الفكر العربي، ومنظمة اليونسكو تؤثر على حجم الكسل، وقلة الاهتمام بالمطالعة لدى المواطن العربي بالنسبة لنظيرة الأوروبي، أو الأمريكي، أو حتى الاسرائيلي.

س14- لا حضارة دون ثقافة؛ لكن الثقافة في العالم العربيّ
كأنها مُشكّلة؛ أو تراو "ثقافة مُستوردة أو محلّية مُحطّطة وعلى
المقاس"... كيف ترى ذلك؟

ج - في أي مجتمع ينشد التقدم، تكون الثقافة هي المغذي الأساسي الطبيعي لكل نواحي التنمية فيه، لكونها المستدامة في ذخيرته الحية، حيث تنطلق منها جميع الرؤى المؤسّسة للإبداع والتطور، بما يخدم البلاد والناس جميعاً. فالثقافة ليست حكراً على طيف من دون آخر، وإنما هي المحصلة الطبيعية لتعايش المجتمع بكل ألوانه. الثقافة قدرة خلاقة تمكّن الإنسان من توسيع رحاب نفسه عن طريق النشاط الإبداعي الأصيل؛ باعتبار أنه ليس مستهلكاً لتراثه الثقافي فحسب؛ بل إنه كذلك مستمرّ، ومساهم هو أيضاً في الإبداع، والزيادة على ما وصل إليه. ومن هنا فالمجتمع الذي يفتقر إلى مشروع ثقافي معروض إلى الاهتزازات التي تنخره من الداخل، فتعثره مسببات التآكل، وفقدان الحصانة؛ بل والتفكك. الثقافة ليست مادة دستورية تُضيف إليها في كل تعديل دستوري عبارة، ونعقد الندوات في وسائل الإعلام متغنين بهذه الانتصارات الوهمية التي لا تضيف شيئاً لواقع الثقافة في المجتمع الذي ترسخ في أذهان أفرادها أن الثقافة مهرجانات لأغنية الراي، وموسيقى ورقص الشباب. هل تركز الثقافة العربية على مقومات فكرية وقيم يجعلانها تمضي في بناء مشروع حضاري، يرتكز على أسس الحرية، والعدالة، والمساواة للإنسان العربي، أسوة بتلك الشعوب الحرة

التي اكتسبت ثقافة حقيقية مؤثرة، بعد أن استطاعت الانتصار على قيودها بفعل انحيازها للقيم الإنسانية العظيمة، وأصدرت تشريعات، ودساتير هدفها الحفاظ على كرامة الإنسان، وتعزيز حقوقه الأساسية، تستمد قيمها من مبادئ العيش الحر، والبناء السليم للأمم وإنجاز التطور الحقيقي؟

الجواب في تقديري لا، لم يكن الأمر كذلك، ولم تستطيع الثقافة العربية أن ترتقي إلى مستوى هذه المهام، وندلل على ذلك في انعدام القيم الإنسانية التي لا يتحلى بها معظم المثقفين العرب للمشاركة في بناء مشروع العرب الثقافي، ولذلك غاب النموذج والمثال، ولم نسمع عن مناضل عربي إن كان زعيماً سياسياً، أو مفكراً تنويرياً يدعو إلى شعارات الحرية، ويناضل من أجل تحرير الإنسان العربي من قيوده مهما بلغت التضحيات، كما فعل غاندي في الهند على سبيل المثال لا الحصر، أو كما فعل مانديلا في جنوب افريقيا، أو كما فعل العديد من رموز الفكر، والسياسة في اوروبا والولايات المتحدة من أجل تحرير شعوبهم من الاستبداد والظلامية. للأسف لا نجد أمثال هؤلاء بيننا في الواقع العربي الراهن، بل على العكس فإن أغلبية أهل الفكر والثقافة هم من يدعمون الأنظمة، ويصفقون لزعمائها، رغم علمهم أن هذه الأنظمة فشلت في صناعة الإنسان، طمعاً في مناصب، أو فتناً تُلقِي به السلطات لهؤلاء فيسكتوا.

الثقافة العربية لا هي محتطة، ولا هي على المقاس تواجه تحديات كبيرة، من أهمها التبعية الثقافية للدول الغربية، وتظهر بوضوح من خلال مبدأ تقليد الغرب في العديد من المظاهر سواءً في طبيعة اللباس، أو الكلام، أو طريقة التعامل مع الآخرين، وتبني اللغات الغربية، وتهميش اللغة الأم وغيرها الكثير من صور التقليد الأخرى، والذي أدى في النهاية إلى ظهور ثقافة جديدة بعيدة عن الثقافة العربية، وليست إلا تقليداً زائفاً للثقافة الغربية، ولا تساهم بنقل أي صورة صحيحة عن الثقافة العربية الحقيقية.

س15- في ظل الظروف الحالية على مستوى العالم العربي؛ هل ترى الثقافة لا تزال قادرة على خدمة الأمة والمشاركة في البناء الحضاري العالمي؟ وكيف؟

ج - إن فكرة وضع حلول، أو اقتراحات لوجود علاج مناسب لتحديات الحداثة التي تواجه الثقافة العربية، برأبي لن تؤدي إلى الوصول لأي نتيجة مفيدة في الوقت الراهن، وذلك لأن العلاج الحقيقي لهذه التحديات مرتبط بكمية المخزون الفكري، والثقافي عند الإنسان العربي، وعندما يدرك كل عربي في كافة أنحاء العالم هذه التحديات التي تواجه ثقافته، عندها من الممكن الوصول إلى حل جذري يساهم في إعادة الثقافة العربية إلى مسارها الصحيح. الخشية على ثقافتنا العربية، تبدو أمراً حيوياً في هذه المرحلة بالذات نظراً لجسامة التحديات التي تواجهنا كأمة وكهوية وثقافة، خاصة أن الثقافة

تشكل في واقع الأمر أهم خصائص الأمم، بما تحويه من عناصر مثل اللغة والعادات والتقاليد، وغيرها من الخصائص التي تشكل في نهاية المطاف هوية الأمة.

س16- **وجّه رسالة إلى وزراء الثقافة العرب؟ وما اقتراحاتك لهم؟**

ج - كلُّ وزارة ثقافة في العالم العربي لها أهدافها، ومهامها وفق سياسة بلدها، كما لكل وزارة أجندتها الخاصة، فبعضها بعد التطبيع مع الكيان الصهيوني، اختارت التعاون مع الكيان في عديد المجالات الثقافية، وبعضها الخيار يقاطع كل ما لع علاقة بالكيان؛ فمن الصّعب توجيه رسالة موحّدة إلى كلِّ وزراء الثقافة العرب، إنّما في كلّ الحالات هناك ما يربط دول العالم العربي، وعناصر رئيسة تجمعها كأمة تختلف عن باقي الأمم يجب دعمها، والحفاظة عليها: العوامل الطبيعية، العامل التاريخي، اللغة، التراث الحضاري، وغيرها وهي كثيرة كالتعاون الثقافي، الاقتصادي، السياحي، الدفاع المشترك عن الأمة العربية، وهويّتها.

س17- **كيف تركّ "التطبيع المتزايد مع الكيان الصّهيوني"؟**

ج - ما تم بين بعض الدول العربية وإسرائيل، التي لا تزال تحتل معظم فلسطين بما فيها المسجد الأقصى والقدس الشريف، لا يُسمّى صلحاً في حقيقته ولا هدنة، وإنّما هو تنازل عن أقدس الأراضي، وإقرار بشرعية العدو المحتل، لذلك فإن ما سمي باتفاقيات السلام، أو الصلح، أو التطبيع، في هذه الحالة، محرم وباطل شرعاً، وجريمة كبرى،

وخيانة لحقوق الله، وخيانة عظمى، وإني أُحْيِي الدول العربية التي أصرّت، وتُصرُّ على عدم الاعتراف بهذا الكيان أصلاً، ومنها بلادي الجزائر.

س18- ما عنوان الكتاب الذي قرأته كاملاً أكثر من مرّة؟ ولماذا؟

ج - القرآن الكريم مئات المرّات، ولا أزال، ولم أشبع منه، فقه السنّة للسيد سابق، منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري، صفوة التفاسير للسيد الصابوني، يسألونك في الدين والحياة للسيد الشرباصي؛ أمّا الكتب الأخرى فمنها ما رافقتني، ولا تزال إلى يوم الناس هذا وهي كثيرة في مكتبي الشخصية التي أعتزّ به، وأعتبرها جزءاً منّي، ورفيقة حياتي. مكتبة ثريّة متنوّعة، متجدّدة بالعناوين الحديثة، ومن الكتب التي قرأتها أكثر من مرّة: مقدمة ابن خلدون، مؤلفات الفيلسوف زكي نجيب محمود، مؤلفات عبد الله شريط، عبد المجيد مزيان، مؤلفات أبو القاسم سعد الله خاصة: خارج السرب، حبّ على ورق، حاطب أوراق، تاريخ الجزائر الثقافي وغيرها.

س19- ما آخر كتاب قرأته أو تقرأه حالياً؟

ج - رواية "تاغيت" للدكتور باديس فوغالي، رواية "رسول السماوات السبع" للروائي إبراهيم الكوني، رواية "ما لم تحكه شهر زاد القبيلة" للروائية الجزائرية فضيلة بهليل.

س20- اتحف القراء بمقتطف من كتابك الجديد «حياتي في دائرة الضوء.. سيرة ذاتية».

ج - (من المقدمة): إنَّ المسارَ الفكريَّ والإبداعِيَّ لأيِّ كاتبٍ لا يختلف البتَّة عن مسارات الآخرين.. كلُّ شخصٍ سويٍّ في الكون له مسارٌ به تحدَّدت عن طريقه كينونته، ومكانته، وأفعاله في الحياة؛ إلا أن مسارات العباقرة والمفكرين، والكتَّاب تتعدَّى فردانيتهم إلى الآخرين، وتنعكس عليهم، وفيهم؛ وإنني لا أرى اختلافًا جوهريًّا بين مسارات هؤلاء، وبين سيرهم الذاتية التي قد يروونها بأنفسهم، أو يَحبرونها على الورق، وتيمُّنها الصدق، والصراحة.

س21- تختلف كتابة السيرة الذاتية.. كثير من الشخصيات تكتبُ لهم سيرهم؛ وأنتم كتبتُم صفحات سيرتكم بنفسكم؛ وتحدِّثون فيها عن نفسكم.. ما الفروق بين الطريقتين سلِّبًا وإيجابًا؟

ج - يبدو لي أن أحسن سيرة ذاتية التي يكتبها صاحبها بنفسه لأنها ترسم حياة صاحبها، تُكتب ليُعرفَ بها الإنسانُ نفسه، ويزداد منها قربًا؛ ويعرضها على القراء بطبيعة الحال من زاوية نظره هو، ويحاول في عرْضه أن يكون أمينًا صادقًا، ويتجرّد ما أمكن من العاطفة التي تشدّه؛ لأن ما نسمّيه بـ"الأنا" ليس شيئًا واحدًا، بل متعدّدًا، ليس كلاًّ منسجمًا متجانسًا، "الأنا" متغيّرة تبعًا للمتغيّرات المُختلفة التي تطرأ على الفرد جسداً، أو نفساً، أو فكراً، أو ثقافة، أو اجتماعاً، أو معيشة. السيرة الذاتية بوعي كاتبها وتوخيّه محاولة تعبير صادق تكشف عن تمفُّضات مهمّة في مسار هذا الكاتب، أو ذاك، عن فترة، أو فترات من حياته الفكرية، ومسارات قلمه، أو الظروف التي رافقته

إيجاباً، أو سلباً وساعدته في مسيرته على أن يتبوأ مكانه ككاتب، أو مبدع، أو تغطيةٍ لمساره الأدبي والفكري.

س22- كيف تعاملت مع الحكم الصادر ضدك من السلطات الفرنسية الاستعمارية عام 1960 م؟

ج - تلقيتُ الحكم بشجاعة لأني ما كنت وحدي، بل كان معي رفاقٌ حُكم عليهم بالإعدام، وآخرون بأحكام أقلّ، ومنهم ثلاث نساء، وكنتُ مقتنعاً أنّ الجزائر ستستقلّ، خاصّة وأنّ أيام المحاكمة تصادفت مع أحداث 11 ديسمبر 1960م التي انتفض فيها الشعب الجزائري في أغلب المدن الجزائرية بمظاهرات تلاحم فيها الشعب مع الثورة المسلحة، ممّا زلزل الاستعمار الفرنسي.

س23- حدّثنا عن تعليمك على أيدي مرّيين من "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" المسجونين حينذاك في سجن تازولت «لامبيز سابقاً» بباتنة.

ج - كنت من السبّاقين إلى الانضمام للتعليم داخل السجن، التعليم الذي أُجبرت على السماح به السلطات الاستعمارية من طرف الصليب الأحمر الدولي، ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، كان أستاذاً في اللغة العربية من نحوٍ، وصرْفٍ، وإملاء المرحوم الشارف الذي صار بعد الاستقلال إطاراً في الشؤون الدينية، وعضو لجنة الفتوى، كما كان أستاذاً في الأدب العربي شابّاً متحمّساً للغة العربية يعشقها، ويتلذّد، وهو يتكلّمها سرّداً، وشعراً، وأقوالاً لأعلام،

وحكماً؛ فحبّبي فيها من ذاك العهد، وكذلك أستاذ آخر للغة الفرنسية، بفضل هؤلاء الأساتذة وغيرهم كانت الانطلاقة التي تواصلت بعد الاستقلال.

س24- اشتغلت بالتعليم مدة طويلة؛ وارتقيت مُفتشة للتربية والتعليم بولاية وادي سوف.. ما إرشاداتك للمُعَلِّمين والمُفْتَشِينَ مِنَ الجيل الجديد؟

ج - رسالة المُربيّ، المعلم عظمة جدًّا، فهي أمّ المهن. المعلم أعظم وأجلُّ من أن ينحصر دوره في زاوية التدريس الضيقة، فالتدريس جزءٌ من التربية، فالمعلّم هو الذي يبني المتعلّم الذي يجلس أمامه فكراً، وروحاً، وخلقاً فيخرج من تحت يديه الطبيب، والمهندس، والمحامي، والأستاذ الجامعي، لذا فمهنة التدريس هي أهمّ المهن، وأشرفها؛ يكفي المعلم فخراً، وشرفاً أن مهنته مهنة الأنبياء، والرسول، والمصلحين. المهنة التي تتطلّب الإعداد القاعدي المعرفي الجاد في مجالات المعرفة الإنسانية، كما العلوم الطبيعية العلمية، والإعداد المهني في معاهد إعداد المدرّسين، ومواصلة ذلك بعد التخرّج، والشروع في التدريس، الإعداد الجيّد، والجاد في علوم اللغة، وعلوم التربية، وعلم النفس، سيّما علم نفس الطفل، وعلوم تطبيق الموادّ التعليمية، وغير ذلك ممّا يدعّم الكفاءات التدريسية للمعلم.

التفتيش (الإشراف التربويّ) لصيق بالعملية التربوية التدريسية كمكوّن، ومقيّم، ومقوّم، فالمشرف التربوي(المفتش) خبير في يساعد

المعلمين على التطور، والنمو المهني، كما أنه يقوم بحلّ ما يواجههم من مشكلات تربوية، تعليمية؛ ويقدم العديد من الخدمات الفنية التي تهدف إلى تحسين أساليب التدريس، وجعل العملية التربوية تسير في المسار الصحيح. فعلى المشرف التربوي تشجيع المعلم مهما كان أدائه؛ فلكل معلم مفتاح، وعلى المشرف اكتشافه ليدفعه للأمام بأسلوبه، وتشجيعه؛ كما على المشرف تحفيز المعلمين المتميزين، وإبراز جهودهم في الميدان بتكريمهم بشهادات تقدير، والإشادة بهم في اللقاءات والاجتماعات. على المشرف أن يبني علاقة إيجابية بينه وبين المعلمين بالتواصل الدائم في أفراحهم، وأحزانهم، وفي الأعياد والمناسبات لتقوى العلاقة وتزداد. وأن تكون العلاقة بين المشرف والمعلم مبنية على المودة، والاحترام، والتقدير.

س25- ألا يُؤثّر التعليم عن بُعد "منصّات تعليميّة إلكترونيّة" وعبر "التلفزيون" على مردوديّة التلاميذ؟ وماذا تقترح؟

ج - في رأيي الشخصي يبقى التعليم الحضوري أهمّ تحصيلًا، فالعلاقة القريبة بين المعلم، والمتعلم، والأستاذ والطالب تنبني أكثر على القرب، والتأثير النفسي، وملامح الوجه، وأسلوب التخاطب، والتحاور، والتوضيح، فالمردودية أرفع لأنّها مستندة إلى التقييم، والتقييم عن قُربٍ. ضفّ إلى ذلك أن متطلبات المنصّات التعليمية غير متوقّرة في كل المؤسسات التعليمية، والأغلبية من الأسر الجزائرية لم تكتسب خبرة التعليم عن بُعدٍ، ولا تملك وسائله؛ بل هي عاجزة عن اقتنائه.

نعم لهذا التعليم، ونحن سائرون إليه في السنوات القادمة، وهو من نعم الثورات العلمية، وثمرات التكنولوجيا، إنما علينا ألا نُحدث اهتزازات لدى متعلمينا؛ بل نتدرّج وفق إمكانياتنا، واستعداداتنا.

26 - سعيد بك اليوم؛ شكراً جزيلاً لك؛ كرمًا لا أمرًا؛ اختتم الحوار.

سعيد جدًّا بهذا الحوار الثقافي الذي أجراه معي الأستاذ جمال، حوار ثريّ حفّزني على نبش أرشيفي، ووخز الذاكرة، بقدر ما كانت الإجابات مُتعبة تطلّبت التدقيق والتركيز، فإنها كانت مُمتعة، جعلتني أبحر في مجالات معرفية متنوّعة، ومُحبّبة إلي.. شكرا للأستاذ بوزيان جمال، ولصحيفة " أخبار اليوم" التي أتاحت إليّ هذه الفرصة الجميلة.

الكاتب بشير خلف لـ "الشعب ويكاد"*

– سياسيون جزائريون نشرُوا سيرهم بحثًا عن عذرية تاريخية.

– لستُ من أنصار تخيير أدب "التعرية الذاتية".

– حينما كتب البعض في المشرق العربي لحقهم الويل.

– لكلِّ منا حياته الخاصة التي سيَجها بسياجٍ حديديٍّ "برليني"

على غير عادة كثير من الأدباء الجزائريين، بادر القاص بشير خلف إلى كتابة مذكراته التي صدرت أخيرًا في طبعة أنيقة بعنوان: "حياتي في دائرة الضوء"، وتضمّنت كثيرًا من الحقائق عن مسار كاتبٍ متجدّدٍ، ومتعدّد التجارب من الثورة إلى التعليم، مرورًا بالجيش الوطني الشعبي، وتجربته الأدبية الطويلة. بشير خلف من أبرز الأدباء الجزائريين الذين برزوا في سبعينيات القرن العشرين، وله الكثير من الإصدارات في القصة القصيرة، والمقالات؛ إضافة إلى نشاطه الأدبي الذي لا يكاد ينقطع.

الأسئلة

1 - يقال إن المؤلفين في العادة يكتبون سيرهم الذاتية "مستترة"

بين ثنايا نصوصهم، ويتحوّلون إلى الكتابة الخيالية عند الحديث عن

* حوار ثقافي أجراه معي الروائي، الإعلامي خير شوار لجريدة الشعب يوم الخميس

سيرتهم الذاتية.. كيف تجنبت هذا المطب وأنت تضع حياتك "في دائرة الضوء"؟

ب.خ: لقد اهتممتُ مدّة سنوات بالسير الذاتية، وتاريخها القديم، والحديث، والمعاصر، ونقبتُ كثيرا عن حيوات، وسير الكثيرين من مؤرخين، كُتّاب، مبدعين، سياسيين، وكلّما أعرش على سيرة أحدهم، أو ما يشبه السيرة أقرأها باهتمام؛ لئن أدب السيرة الذاتية كان سبّاقا في الغرب، بدءا من سيرة الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو إلى أيامنا هذه؛ فإن السيرة الذاتية في العالم العربي قليلة، وأقلّ منها في الجزائر. في الجزائر تعمّد بعض السياسيين ونشروا سيرهم، بحثًا عن العذرية التاريخية، وتطهيرا لمسارهم ما قبل الثورة، وأثناءها، وبعد الاستقلال؛ لم يقولوا كل شيء؛ اكتفوا بمشاركاتهم في الثورة الجزائرية، وما قاموا به بعد الثورة من وظائف قيادية، أو حزبية، وما تخلّل ذلك من توافقات، أو صراعات مع غيرهم، أو نجاحات؛ أمّا العديد من الكتاب، والمبدعين فقد استترت بعضٌ من سيرهم الذاتية ضمن نصوصهم تارة بصيغة الصراحة، وتارات بالتلميح؛ ممّا يُصعّب على الباحث الوصول إلى سيرة ذاتية مكتملة لهذا الأديب، أو ذاك.

بكل تأكيد أنّ ما حفّزني على تحاشي كل ذلك ثلاثة أسباب: أولاها أن الأديب أمين الزاوي أشار عديد المرّات إلى تحلّي الأدباء الجزائريين عن كتابة سيرة حياتهم؛ بل وصفهم مرّة في مقال طويل قبل سنوات بـ " الجبن، والخوف " من القرب من " لغم " الكتابة عن "

الذات" في كل مراحل الأديب العمرية. ثانيها أن ساكنة مدينة قمار مسقط رأسي مهتمّون كثيرا سواء كبار السنّ أو صغارهن؛ أو شبابهم خاصة طلاب الثانويات، والجامعات مهتمّون، وباحثون كثيرا عن شخصيات قمار العلمية والثقافية؛ من ذلك أني عثرتُ ذات سنة قريبة على مخطوط قديم، مهملٍ عند أحدهم بخط يد المرحوم الشيخ محمد الطاهر تليلي، العالم اللغوي، المؤرخ الفقيه القماري، (1910م/ 2003م) عنوانه "حياتي"، اهتممت بالمخطوط، فكتبته على الحاسوب، ونقلته بأمانة، ونسّفته، وطبعته في 500 نسخة، بمساهمة دار الثقافة بالوادي، ووزعناه مجّاناً، واقتناه عديد الطالبات، والطلاب كمرجع لإعداد رسائلهم؛ وثالث الأسباب أن سيرة حياتي الإبداعية والثقافية مبثوثة هنا وهناك في نصوصي، وحواراتي، لكن طفولتي، ظروف نشأتي العسيرة، رحلتي إلى عنابة، وتواجدي بها، وغير ذلك من إكراهات الحياة، وصعوباتها، ومسراتها غير معروفة لغيري؛ فكان قراري أن يكون كل ذلك في كتاب يجمع كل مراحل حياتي، ويُنشر أمام الجميع، ويكون بين أيديهم للحاضرين، والقادمين للحياة.

2- ألا ترى أنك اقتربت من حقل مليء بالألغام، وكتبت في مجال يتجنّبه كثير من الكتاب؟

ب.خ: أنا لا أراه حقلا من الألغام؛ بل هي حقائق تاريخية مررنا بها أفرادا، ومررنا بها مناطق، ومرّت بها الجزائر وطننا للجميع؛ أكيدا أن ما كتبته تناوله المؤرخون بيقين وبإثباتات، ودونوه في أبحاثهم وكتبهم،

وبالتالي فليس من المناطق، المحرّمة، والملغّمة؛ ويبدو لي أن الكاتب، أو الأديب الذي عايش، أو ساهم في تلك الأحداث التاريخية، ويعرف عنها الكثير أولى من المؤرخ الذي لم يعيش تلك الأحداث، وما اكتوى بنارها عن قُرْبٍ أن يكون أشجع من غيره في الكتابة عنها.

3- في مقدمة السيرة، وضعت إطارا نظريا، ابتعدت من خلاله عن "أدب الاعتراف" بالمفهوم الغربي، كأن ذلك الإطار وضعته مسبقا حتى لا يقودك قلمك إلى "متهات" لا تريد دخولها؟

ب/خ: لكل منا حياته الخاصة.. الخاصة، وحميميّاته التي سيّجها بسياج حديدي "برليني" لا يعلمه إلا الله، والسيرة الذاتية الكاملة من المفترض أن تتضمن الكلّ، ويُفترض من كاتب سيرته أن يبوح لقرائه بكل كبيرة وصغيرة؛ إنما وأنا ابن آدم الخطّاء أخطائي كثيرة كغيري؛ وليس من حقّي كمؤمن، ومسلم أن أفعل ذلك. ثم إنّ الاعتراف بالحقيقة يعدُّ صدمة للمجتمع، ولعاداته ومعتقداته، وقدسيّاته؛ ومن ثمة فلا يُقبَل الأدباء، وأنا منهم على تحبير أدب "التعوية الذاتية" لأن ذلك يتسبّب في كسرٍ للحدود، والطابوهات، والانتقاصٍ من هيبة الأديب، ومكانته، وفقده احترام الآخرين؛ وكما كتبت في مقدمة كتاب سيرتي أن المُتلقي الذي أكتب إليه سيرتي، وهو متلهّفٌ لقراءتها، ومتابعة الكبيرة والصغيرة لم، ولن يغفر لي خطيئتي، حتى ولو كانت عن غير عمدٍ، هو متحفّزٌ أكثر لتضخيمها ونشرها، ولنا تجارب في هذا الشأن حينما كتب البعض في المشرق اعترافاتهم ببياضها، وسوادها؛ لحقهم

الويل، وحتى التصفية الجسدية من الأسرة، والعشيرة، وحتى الأصدقاء، والصديقات، من الضحايا صاحب مجلة " الآداب البيروتية" المرحوم سهيل إدريس، الذي قال: "إنّ مذكراتي أثارت الكثيرين، ومنهم أفراد أسرتي".

4- من الثورة وأهوال "لامبيز" إلى الكتابة، إلى الانخراط في الجيش الوطني الشعبي ثم التعليم والنضال الثقافي.. كيف تعايشت تلك الأضداد في داخلك وصنعت تحولاتها هوية الكاتب بشير خلف؟
ب/خ: في تقديري لو لم تكن هي بنفسها، وتسلسلها، وضدياتها، وإكراهاتها لكان بشير خلف "نكرة" كغيره من عشرات آلاف جيله، لَمَا تعدّى اسمه سجلّات الحالة المدنية، فالحرمان، الفقر، اليتيم، النشأة البئيسة أيام الاستعمار كانت من نصيب الكل؛ إنّما عدم الركون، والاستسلام إلى الواقع المفروض هو ما صنع الضد، والقفز إلى الوضع المغاير حتى ولو كان أخطر، وقضاء الله، وقدره فعلا فعلهما، وأنا من الحامدين الشاكرين لله، محدّد مصائرنا؛ ذلكم التصميم على القفز إلى الإمام، وولوج عوالم ما كانت تخطر على بال شاب، فقير، يتيم، نكرة، قادم من الصحراء أن يجد له بقعة في فضاءات ذات رمزية إنسانية ووطنية: مشاركة في الثورة، سجين سياسي، عامل في الجيش، مربّ، كاتب مبدع، ناشط ثقافي.

5- تناولت سيرتك بأكثر من منظور، إلى أن خصّصت جزء لكتاباتك "في عيون الآخرين"، هل تحوّلت السيرة الذاتية إلى "سيرة موضوعية"؟

ب/خ: الكاتب أيّ كاتب يعيش في مجتمع، يحيا بين الناس، يتأثر بهم، ويؤثر فيهم كإنسان أولاً، وككاتب ثانياً، من واقعه الذاتي، ومن واقع مجتمعه، واجتماعات الأخرى، يستمد مادته، الكاتب إنسان يمارس إنسانيته، وكيونته ضمن الجماعة الإنسانية، يتفاعل مع ما حوله، ومن حوله فينفعل بتقلبات الأحداث، وأصداء الوقائع، فيتأثر بها، وتؤثر فيه.. قد يكون مسارها في الاتجاه الذي يرتضيه، فيلتقي مع تطلعاته، ونظرته إلى الحياة، أو يكون في الاتجاه المضاد تماماً بعيداً عما ارتضاه، وعمّا اصطفاه من قيم واتجاهات. في هذا الإطار يؤدي رسالته كمتخف عضوي، ككاتب رسالي، ومن حقّه أن يتطلّع إلى ردّ الفعل من مُتلقي كتاباته، وإلى مدى تأثير دور رسالته لدى الغير؛ ممّا تراني لا أفصل بين السيرة الذاتية، والسيرة الموضوعية.

6 – وماذا عن مدينة "قمار" التي تحضر منذ البداية؟ هل هي الوجه الآخر للسيرة؟

ب/خ: إنّ كانت قمار "جغرافيا" هي مكان المولد، وبداية الطفولة، والمنشأ، ثمّ نهاية الاستقرار، لكن "المقام الزكي" هي "الجزائر" هي الحبيبة الغالية، الوطن الذي يحتضني مع كل أبناء شعبي؛ لولا الجزائر العميقة الشاخنة، لولا تاريخها التليد، الثري بالأجداد والبطولات، وثرأ هويتها، ومكانتها لما وجد "بشير خلف"، ولما كانت له مكانة محترمة، مكرّمة في هذا العالم الصعب. قمار مدينة عزيزة، مدينة الأصول، الجذور، الأهل، الأحبة الذين أراهم، أعيش بين ظهرايهم؛ كما أعيش،

وألتقي، وأتواصل مع أحبتي في كل ولاية، وفي كل بقعة من بلادي
الجزائر، بالكلّ تلاحمنا، ترابطنا، تحاببنا لنرفع الجزائر إلى الريّادة.

المراجع
. القرآن الكريم
. الحديث النبوي

الكتب:

- 1- الجنرال أوساريس. شهادتي حوا التعذيب. ترجمة مصطفى فرحات. منشورات وزارة المجاهدين. دار المعرفة للطبع والنشر/ الجزائر. 2008م
- 2 - الغنغرينا، أو تعذيب الجزائريين في باريس. ترجمة رمضان لاوند. دار العلم للملايين/ بيروت. 1959م.
- 3 - إحسان عباس. غربة الراعي/ الإصدار الثاني 2006 دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 4 - جان بول سارتر. عارنا ... في الجزائر. ترجمة عايدة وسهيل إدريس. دار العلم للملايين. بيروت. ط 2 .. 1959م
- 5 - جبور عبدالنور، المعجم الأدبي. الطبعة الأولى. بيروت: دار العلم للملايين 1979م
- 6 - ديوان طرفة بن العبد
- 7- ديوان عنتر بن شداد
- 8 - سلام نجم الدين الشرايبي. امرأة عنيفة.. احذر الاقتراب! مقالات ساخرة و مقالات أخرى. ص12 / ط1 / 2008. السعودية

- 9 - محمد الطاهر عزوي. ذكريات المعتقلين. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. المؤسسة الوطنية للاتصال، والنشر، والإشهار. 1996م
- 10 - هنري أليغ. الجلادون أو الاستجواب. ترجمة عايدة وسهيل إدريس. دار العلم للملايين/ بيروت. ط 1. 1958م
- 11 - فاطمة البريكي، مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص 49
- 12- سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005، ص 10

المجلات

1. - السيرة الذاتية هل هو أدب اعترافي؟ مجلة فكر الثقافية. العدد 22
- 2 - المحرّر الثقافي. 10 كتب عربية تروي حكايات السجون. مجلة فكر الثقافية. 25. 11. 2016
- 3 - حسن فتح الباب. السيرة الذاتية هل هو أدب اعترافي؟ مجلة فكر.
- 4 - عدي بن زيد العبادي. مجلة الرسالة/العدد 978/شعراء
- 5 - محسن عبد الكريم. هل السجون عامل من عوامل الابداع؟ المجلة الثقافية الجزائرية. 2011/04/06

6 - محمد العنوز. الأدب الورقي والأدب الرقمي. مجلة الكلمة العدد
111 يوليو 2016

7 - هبة فتوح. عصر الصورة/ مجلة فكر. 07 . 11 . 2017.

8 - وليد محمد الشوري. الجرافيتي إشكالية الرفض والقبول. المجلة
العربية السعودية. 2016/06/28

الصحف

1 - الناقد العراقي عبد الله إبراهيم. صحيفة العرب اللندنية 08 /
2017 / 04

2 - إبراهيم عبد النور/ جامعة بشار. كراس الثقافة. يومية
النصر: 2019/12/01

3 - جازية سليمان. جدران الجزائر لتفريغ المكبوت. صحيفة العربي
الجديد. 06 نوفمبر 2015م

4 - خالد الحاجة. ثقافة الصورة.. ثقافة العصر/ البيان الاماراتية. 26
ماي 2015م

5 - رشا المالح. رواية السجن تتمرد على الكلاسيكية. صحيفة البيان
الكويتية. 13 فبراير 2011

6 - رسم الجداريات أداة التعبير عن الهواجس في شوارع الجزائر. يومية
الوطن العمانية. 17 / 09 / 2018

7 - سجين سابق يروي "سنوات التعذيب" التي عاشها في غوانتانامو.
الاقتصادية. جريدة العرب الاقتصادية الدولية. 09 جانفي
2012م

8 - محمد بوعزّارة. النكتة في زمن الأزمات والكورونا. صحيفة
الشعب: 13 ماي 2020م

9 - محمد طيفوري. أدب السجون .. توثيق الإنسان جرائم الإنسان.
الصحيفة الاقتصادية الدولية. 5 مارس 2020

10 - نّوّارة الأحرش. الكُرّاس الثقافي " الأسبوعي لصحيفة النصر
الجزائرية: 18 - 08 - 2014

11 - واسيني الأعرج. "نقوش" أدب السيرة الذاتية. صحيفة الغد
الأردنية.

12 - وقائع معاناة الأسرى في سجون الاحتلال. صحيفة البيان.
صحيفة البيان الإماراتية. 27 / 12 / 1998 م

13 - ياسر خضير البياتي. الأدب الرقمي.. أدب المستقبل. صحيفة
العرب. 30 / 11 / 2016

المواقع

1 . الخير شوار. الكتابة الساخرة في الجزائر.. غائبة أم مغيبة؟ الجزيرة
نت.

- 2 - أصرف محسن. 5 روايات فلسطينية كُتبت في سجون الاحتلال الإسرائيلي. 15 - 11 - 2017 موقع إضاءات.
<https://www.ida2at.com>
- 3 - جمال نصار. الخطاب الديني بين التجديد والتبديد.. مركز الجزيرة للدراسات. 2015/05/20
- 4 - حسن مظفر الرزّو. الصورة وانعكاساتها على ثقافة الإنسان المعاصر موقع الألوكة 2012/12/30.
- 5 - داليا النهري. معتقلون يروون الجحيم الذي عاشوه. رصيف raseef22.com - 06 اجوان. 2019م
- 6 - سعيد محمد رحيم. ثقافة الصورة.. ثقافة المشاهدة. الحوار المتمدن - العدد: 2295
- 7 - سليمان العودة: دراسات في الدعوة. موقع إسلام ويب.
- 8 - عبد الفتاح شهيد. جبروت الصورة: على وسائل التواصل الاجتماعي. معهد الجزيرة. 2020 / 01 / 05.
- 9 - علي محمد سلام. العطر والطيب في السنة والأدب والتاريخ/ موقع الألوكة الثقافية.
- 10 - محمد صالح رشيد الحافظ. أدب السجون. الحوار المتمدن - العدد: 3799 - 2012 / 07 / 25

فهرس

مقدمة...03

أفكار ورؤى...07

الصفحة	عنوان الموضوع	الرقم
09	آثارٌ على الرّمال	01
19	الصحراء مبعثُ الحكى السّاحر	02
28	هل القصة القصير بخير	03
35	بحثًا عن أدب السجون في الجزائر	04
67	أزماتنا وليدة الإلغاء، والإعراض عن الحوار	05
71	نعم للمرجعية الدينية الوطنية، لكن ؟	06
84	المبدع ومحنة الامتثال	07
92	وصيةٌ كُتّابٍ بعدم نشر أعمالهم بعد رحيلهم	08
97	العطر رفيقُ الإنسان.. شذى الأزل	09
109	أدبُ السيرة الذاتية	10
126	الأدب الساخر.. الضحك على أوجاع الحياة	11
145	أدب السجون.. توثيق الإنسان لبشاعة جرائم أخيه الإنسان	12
174	الأدبُ الرّقمي التفاعلي	13

إيقاعات.....187

189	الجمال في القرآن الكريم	14
197	الجمال منبعُ الخير والمحبة	15
205	الفنّ إبداعٌ إنسانيٌّ	16
215	الجمال والفنّ .. تكاملٌ وتماهِ	17
221	الفنان الإنسان، وسموّ أداء الرسالة	18
229	فنّ النقش على الجبس	19
240	الصورة تشكّلُ عالمنا المعاصر	20
258	فنُّ القرافيتي	21
269	التنشئة الجمالية	22

حوارات.....279

281	صحيفة البصائر: مع الأستاذ حسن خليفة	22
279	صحيفة الخبر: مع الإعلامي حميد عبد القادر	23
306	صحيفة البصائر: مع الإعلامي جمال بوزيان	24
332	صحيفة الشعب: مع الإعلامي الروائي خير شوار	25



بشير خلف

- كاتب وقاصُّ، وإطار تربوي متقاعد.. بدأ الإبداع الأدبي منذ سنة 1972.

- نشرت له مجلات: " آمال " و"الثقافة " الكثير من إنتاجه القصصي. وكذلك مجلة " الرؤيا" لاتحاد الكتّاب الجزائريين، ومجلة " الأديب " لصاحبها المرحوم ألبير الأديب ببيروت. نشر في أغلب الصحف الوطنية.. لا يزال يكتب ويبدع، وينشر في المواقع: ديوان العرب، الحوار المتمدن، مجلة أصوات الشمال، المجلة الثقافية الجزائرية، صحيفة الجمهورية، صحيفة رأي اليوم اللندنية، صحيفة القدس العربي، صحيفة العرب اللندنية.

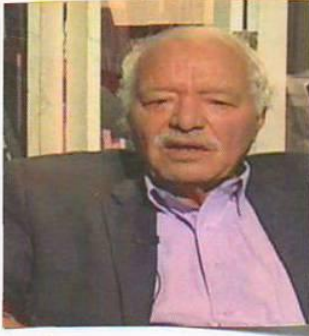
- له مدونة رابطها التالي: سُوف أوراق ثقافية

صدرت له المؤلفات التالية:

1. في القصة القصيرة: 07 مجموعات.
2. في الجمال والفنون: 04 كُتُبٍ.
3. في الثقافة، والفكر والإبداع الأدبي والنقد. مقالات: 07 كُتُبٍ.
4. دراسات: في الكتابة للطفل، الحوار، المجتمع المدني. 03 كُتُبٍ.
5. حوارات: حوارات ثقافية. 01 كتابٌ واحدٌ.

6 . سيرة ذاتية: 01 كتابٌ واحدٌ.

7 . كُتُبٌ أخرى، إعداد وإشراف بشير خلف: 04 كتب.



الثقافة المعاصرة التي تغلغت في كل مناحي حياتنا بفضل شبكة الإنترنت، ونتيجة: سهولة تعرّف الفرد على الأحداث، والأوضاع من حوله بسهولة، وبسرعة، وبدون بذل مزيد من المجهود.

وتعدُّ، وتنوعُ الوسائل، والتقنيات التي من خلالها يقوم الفرد بالتواصل مع آخرين من نفس الثقافة، أو مع آخرين يمتلكون ثقافات مختلفة، وهذا يؤدي إلى اتساع دوائر الثقافة، وتنوعها. ثراء الثقافة المعاصرة، وتوسُّعها، وتغلُّغها ما كان ليحدث لولا ثورة تكنولوجيايات الاتصال، والتواصل التي عمادها، ومحركها شبكة الإنترنت.

صنعت
للطباعة
والنشر
والتوزيع

ISBN:978-9931-273-05-9



9 789931 273059



سَامِي